

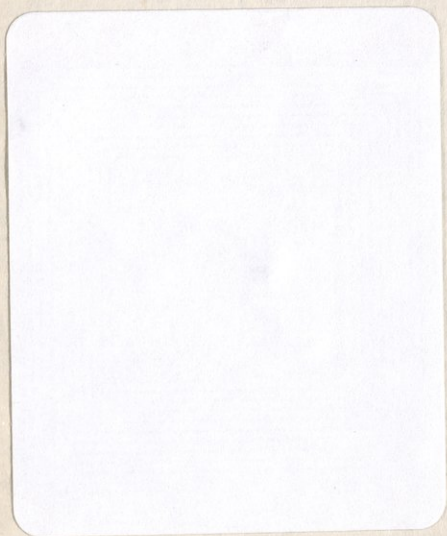
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 00845 5630

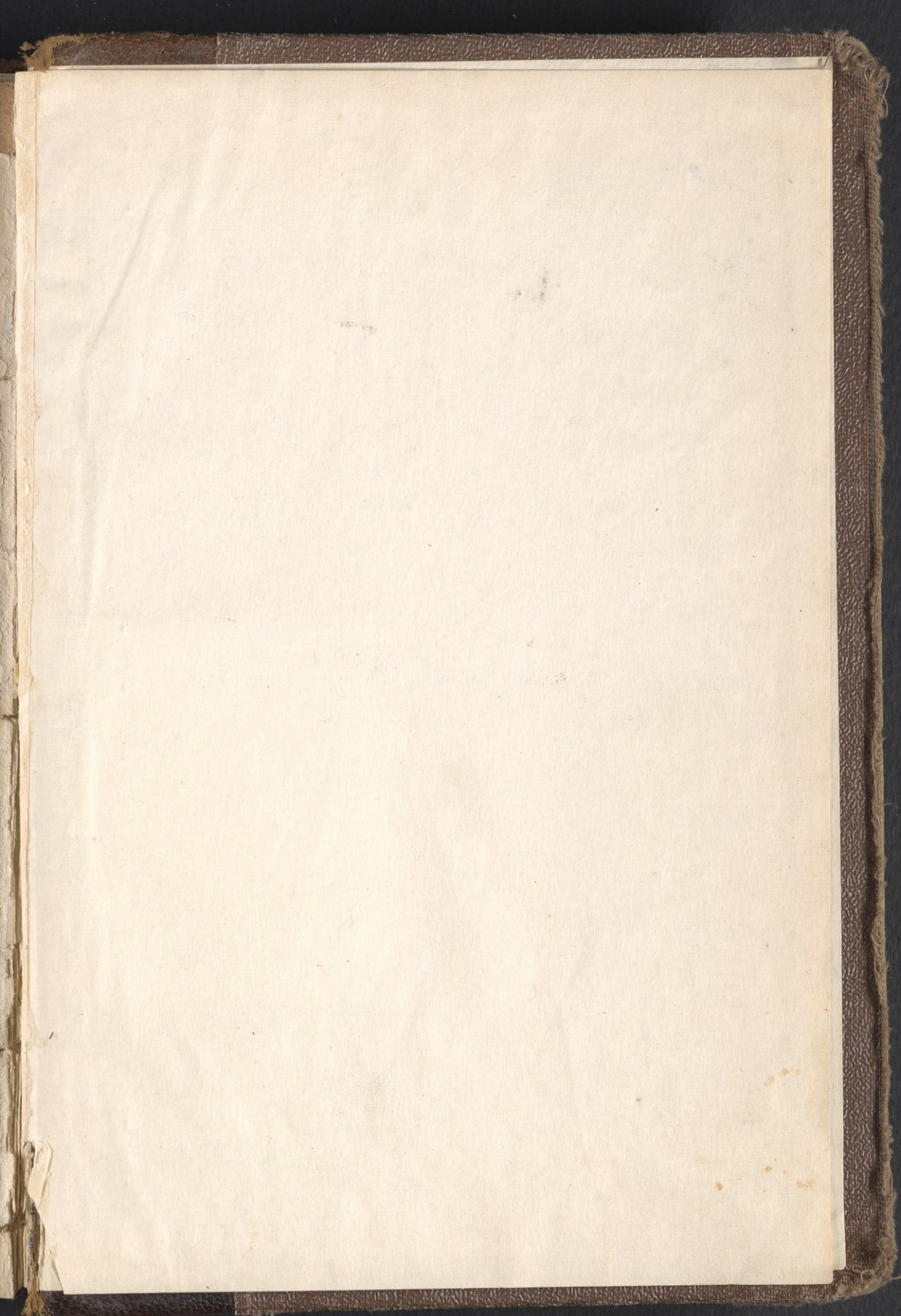
F
740
18
288
187
V.2
C.

o 2c



(c)

2



PJ

7750

M8

Z85

1936

V.2

C.2

لجنة التأليف والترجمة والنشر

(٤)

طه حسين

مع المتنبي

- ٢ -

الشيخ محمد عبد الله

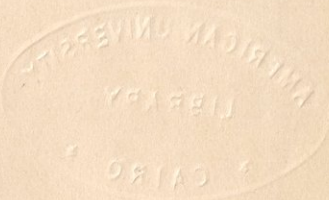
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٦

١١, ٢-٩
س.ع

CN CP

20094



الكتاب الثالث

شالٹاب لتکا

قوله في سنة ٣١٢ هـ في الحقل بالباب لهذا هوذا بقوله في سنة ٣١٢ هـ
منها في سنة ٣١٢ هـ في الحقل بالباب لهذا هوذا بقوله في سنة ٣١٢ هـ
في سنة ٣١٢ هـ في الحقل بالباب لهذا هوذا بقوله في سنة ٣١٢ هـ

وقد صلب المتنبي سيف الدولة تسع سنين أو ما يقرب
من تسع سنين . مدحه في جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين
بالميمية التي أولها :

وفؤؤ كما كالربع أشجاء طاسمة

بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمة

وأنشده لآخر مرة سنة خمس وأربعين الميمية التي أولها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندّم

ماذا يزيدك في إقدامك القسم

ومدحه كالمودع له سنة خمس وأربعين أيضا بالأبيات

التي أولها :

أيا راميا يضـمى فؤاد مرامه

تربى عداه ريشها لسهامه

ولم ينشده إياها ، وإنما أرسلها إليه حين انصرف من حلب

مغاضبا ، وقد أظهر الذهاب إلى إقطاع له قريبا من معرة
النعمان . وكأنه لم يمدحه بهذا الشعر إلا ليخدعه عما أزمع
من الهرب وليكف الطلب عن نفسه ، ولم تكن القصيدة
التي مدحه بها في أنطاكية سنة سبع وثلاثين أول شعر قاله
فيه . فقد رأيت أنه مدحه في عهد الشباب سنة إحدى
وعشرين وثلاثمائة بميمية أولها :

ذِكْرُ الصَّبَا وَمَرَاتِعِ الْأَرَامِ

جَلَبْتُ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي

ولم يختم المتنبي شعره في سيف الدولة حين أنشده أو حين
ودعه سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ، بل ذكره في مصر تصريحاً
حيناً وتعريضاً حيناً آخر . ثم مدحه في الكوفة ورثى أخته .
وكان آخر ما مدحه به البائية التي أولها :

فَهَمْتُ الْكِتَابَ أَبْرَّ الْكُتُبِ

فَسَمِعَا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ

أرسلها إليه من الكوفة في ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين
وثلاثمائة . فهو إذن قد عرفه في الثامنة عشرة من عمره ومدحه

في الثامنة والأربعين من عمره . عرفه عن بعد فمدحه عن بعد . ثم عاشه وفارقه ومدحه عن بعد أيضا .

وليس من الإسراف في شيء أن يقال إن المتنبي في سيف الدولة ديوانا خاصا يمكن أن يستقل بنفسه . وهو إن جمع في سفر مستقل لم يكن من أجل شعر المتنبي وأروعه وأحقه بالبقاء ، بل من أجل الشعر العربي كله ، وأروعه وأحقه بالبقاء . وقد مدح المتنبي عددا ضخما من أشرف الناس وأوساطهم ، ثم اتصل بالأمرء والحكام ، ثم اتصل بعد ذلك بالمتأخرين من أمراء الدولة الإسلامية في الشرق والغرب ، ووفق إلى الإجابة وإلى الروعة أحيانا في كثير مما قال في هؤلاء الناس .

ولكن شعره في سيف الدولة ممتاز بما لم يمتاز به سائر شعره . امتاز بالكثرة ، فالديوان يحفظ لنا من قول المتنبي في سيف الدولة نيفا وثمانين قصيدة ومقطوعة ، وهو مقدار ضخم لم يجتمع فيما أظن لشاعر من الشعراء القدماء في خليفة أو ملك أو أمير .

ولم يجتمع المتنبي نفسه في أحد من ممدوحيه غير

سيف الدولة . وليس في ذلك شيء من الغرابة ؛ فقد انقطع
المتنبى لسيف الدولة تسعة أعوام كاملة لم يمدح أثناءها أحدا
غيره ، ولم يقل أثناءها شعرا إلا وهو يتمثل سيف الدولة ؛
فيتحدث عنه ويتحدث .

وقد انقطع جماعة من كبار الشعراء المتقدمين منذ العصر
الجاهلي إلى عصر المتنبى ، لجماعة من الخلفاء وأشراف الناس ،
ولكنهم لم يقفوا أنفسهم على هؤلاء الخلفاء والأشراف
كما فعل المتنبى مع سيف الدولة ، وكما كان يفعل مع غيره
من الأمراء والأشراف الذين حموه وأظلوهم . فلم يشغل زهير بهرم عن غيره ، ولم يشغل به عن الشعر
الخالص ، ولم يشغل الخطيئة بعلقمة بن علاثة ولا بالزبرقان
ولا بالوليد بن عقبة عن غيرهم من الذين كان يتناولهم بالمدح
أو بالهجاء . وقد انقطع الأخطل ليزيد بن معاوية ، ولكنه
كان يقول الشعر في غير يزيد ، وانقطع لعبد الملك بن مروان ،
ولكنه كان يقول في غير عبد الملك بن مروان ، ومن قبل
ذلك انقطع النابغة للنعمان . ثم في أيام الأخطل فرغ جرير
للحجاج دهرًا . وفرغ الفرزدق لسليمان بن عبد الملك حينًا .

وانقطع الكهيت لبني هاشم ، وانقطع السيد الحميري لهم أيضا .
 واتصل بشار بجماعة من الخلفاء ، واتصل أبو نواس بجماعة
 منهم كذلك ، وانقطع للأمين أثناء خلافته ، وانقطع مروان
 ابن أبي حفصة للمهدى والرشيد ، وأكثر البحتري شعره
 في المتوكل . ولكن واحدا من هؤلاء ومن غير هؤلاء
 لم يقف حياته الفنية وغير الفنية تسعة أعوام كاملة على مولاه .
 إنما كانوا يُصنفون سادتهم وحمايتهم بعناية خاصة ، ولكنهم
 يبيحون لأنفسهم أن يمدحوا غيرهم من جهة ، ويبيحون لأنفسهم
 أن يقولوا في غير المدح من جهة أخرى .
 والرواة يتحدثون بما كان من انقطاع جرير للحجاج
 وإغراقه في مدحه حتى كره ذلك عبد الملك ، فأعرض
 عن جرير ولم يسمع له إلا بعد سعى وشفاعة وإلحاح .
 والرواة يروون هذا على أنه من الأشياء النادرة ، وذلك
 يدل من غير شك على أن انقطاع الشاعر لخليفة أو عامل
 أو أمير في القرون الثلاثة الأولى لم يكن معناه نزول الشاعر
 لمولاه عن نفسه وشخصيته وحرية كما فعل المتنبي غير مرة
 في حياته ، وكما فعل مع سيف الدولة بنوع خاص . وتعليل

هـ — إذا يسير فيما يظهر إذا لاحظنا تغير الحياة السياسية والاقتصادية ، وما نشأ عن هذا التغير من التنافس العنيف بين الأمراء والحكام في القرن الرابع . فقد كان هذا التنافس يقوم على أن يؤثر كل أمير أو حاكم نفسه ودولته بالخير ، وبكل ما من شأنه نشر الدعوة لهما والإشادة بذكرهما . فلم يكن من اليسير لشاعر من الشعراء أن يمدح أميرين أو حاكمين إلا أن يكون أحدهما ظلا للآخر ومتصلا به ، بحيث يكون مدحه وسيلة لا غاية وسببا لا غرضا .

ولو أن المتنبي هم بمدح أحد غير سيف الدولة أثناء اتصاله به في حلب ، أو بمدح أحد غير كافور أثناء اتصاله به في القسطنطينية لما كانت عاقبة ذلك عليه إلا وبالا ونكرا . فلنلاحظ هذه الظاهرة في نفسها فقد ينتهي بنا درسها واستقصاؤها إلى نتائج قيمة في تحقيق التاريخ الأدبي لهذا العصر . ولنلاحظ هذه الظاهرة بالقياس إلى شخصية المتنبي ، فهي تقفنا على أخص ما يمتاز به هذا الرجل من التناقض الغريب بين رأيه في نفسه وسيرته بين الناس . فهو قد كان في شبابه لا يطمح إلا إلى الحرية ، ولا يطمح إلا في الاستقلال .

✓ وهو قد ألقى نفسه في السجن ، وعرض نفسه للموت في سبيل
حريته واستقلاله . ولكنه لم يكن يظفر برعاية أمير من الأمراء
أو سيد من السادة ، إلا نزل له عن نفسه ، وضحى في سبيله
بهذه الحرية ، وذلك الاستقلال . وأغرب من هذا أن سيف
الدولة لم يشغل المتنبي عن غيره من الأمراء والملوك فحسب
X وإنما شغله عن الشعر الخالص .

فقد رأيت أن غير المتنبي من فحول الشعراء لم يكونوا
يفنون أنفسهم وفنهم في ساداتهم وحماهم . وقد كان رجل
كأبي نواس يستطيع أن ينقطع للأمين ، ولكنه مع ذلك
يقول في الخمر أو في الوصف أو في الهجاء أو في غير ذلك
من فنون الشعر .

✓ كانت له حياته يتصرف فيها كما يحب ، فأما المتنبي فإنه
لا يعرض لفن من فنون الشعر ، ولا يلم بلون من ألوان الكلام
إلا إذا كان متصلاً بسيف الدولة اتصالاً قريباً . وهو قد فعل
هذا نفسه حين اتصل ببدر بن عمار ، وكاد يفعل ذلك حين
اتصل بالأمير الأخشيدي الشاب في الرملة ، لولا أن ألح عليه
الأمير نفسه في مدح صديقه العلوي ~~ولما~~ انقطع لكافور

بعد انقطاعه لسيف الدولة ، وقف شعره عليه أثناء اتصاله به .

ولم يمدح فاتك إلا بعد مشقة وجهه واستئذان فيما يقال .

ولو أنه رضى عن كافور رضاه عن سيف الدولة ، لما فكر

في فاتك ، ولما فكر في الشعر الخالص الذى لا يتصل بشخص

كافور . *

فهذا كله يدلنا على أن المتنبي كان يتخذ الشعر وسيلة

لا غاية . وعلى أنه كان عبدا للطمع والمال ، لا للجمال والفن .

ويمتاز شعر المتنبي في سيف الدولة بشيء آخر غير الكثرة

هو التنوع . فمع أن سيف الدولة هو الموضوع الذى يدور حوله

شعر المتنبي أثناء هذه الأعوام التسعة ؛ فقد كان هذا الشعر

مختلف الأنواع والألوان والفنون . ولم يكن هذا الاختلاف

ناشئا عن رغبة الشعراء في التنويع والافتنان ، وإنما كان ناشئا

عن أن حياة سيف الدولة نفسه كانت مختلفة الأنحاء والوجوه .

فقد كان سيف الدولة أميرا عربيا شريف الأصل ، كريم

النسب ، جواد اليد ، بعيد الهممة . وهو من أجل هذا يتقاضى

للمتنبي مدحه كما يمدح أمراء العرب الذين يتصفون بهذه

الصفات .

لما كان يمدح سيف الدولة

وكان سيف الدولة مجاهدا يفاضل عن الإسلام ، ويحمي
ثغور المسلمين من قبل الروم . وكانت له مع هؤلاء مواقع حسن
بلاؤه فيها منتصرا ومنهزما . فكان من هذه الناحية يتقاضى
المتنبي مدحه كما يمدح المجاهدون والحامون للثغور والزائدون
عن حوزة الدين . وكان سيف الدولة أميرا ينافس أمراء
آخرين . ينافس قوما في العراق ، وقوما في مصر . فكان
يتقاضى المتنبي أن يمدحه مدحا يقدمه على منافسيه . وكانت
لسيف الدولة رعية بدوية قليلة الشعور بحب النظام ، شديدة
النقض للسلطان القوى ، كثيرة الجنوح إلى الشعب والخروج
والانتقاض . وكان سيف الدولة يردها إلى الطاعة ، ويأخذها
بالإذعان . فكان يتقاضى المتنبي أن يمدحه كما يمدح الأمير
الذي يأخذ رعيته بالحزم والعزم ، ويحملها حيناً على الشدة ،
وحيناً على اللين .

وكان سيف الدولة صاحب دعابة وهو ، وصاحب ترف
ونعيم ، حين تسمح له السلم بالاستمتاع من ذلك بحظ قليل
أو كثير . فكان يتقاضى المتنبي أن يكون له نديما مواتيا ،
يصرف شعره على ما تقتضيه المنادمة من اختلاف ألوان

الحياة واختلاف ألوان القول .

ثم كان سيف الدولة بعد ذلك يكبر المتنبي ويؤثره ويختصه بما لا يختص به غيره من ندمائه وشعرائه والعاملين في قصره والمختلفين إليه . فكان ذلك يشير حسدا وكيدا . وكانت غطرسة المتنبي تزيد هذا الكيد ، وذلك الحسد تلظيا واضطراما .

وكان سيف الدولة يفي للمتنبي ما وسعه الوفاء ولكنه كان كغيره من الأمراء ، يسمع للوشاة ، ويميل إلى الكائدين . فكان المتنبي مضطرا إلى أن يدافع عن نفسه بالعتاب والاستعطاف وهجاء الخصوم والمنافسين .

ثم كان سيف الدولة رجلا من الناس تمتحنه الأيام بما تمتحن به الناس جميعا من فقد الأبناء والأقرباء والأحباء . فلم يكن بد للمتنبي من أن يعزيه ويرثي له من تستأثر به المنية من دونه .

وإذن فقد كان في تنوع هذه الحياة التي كان يحياها سيف الدولة تنوع للشعر الذي كان يقوله أبو الطيب فيه . ونشأ عن ذلك أن سيف الدولة قد شغل المتنبي بنفسه عن

كل شيء ، وعن كل إنسان . ولكنه أتاح له أن يلم بطائفة
من الفنون الشعرية ، لم يكن ليلم بها لو أنه قصر نفسه على
المدح الخالص ، فما تفقده من حرية المتنبي في فنه تعوضه علينا
عبودية المتنبي لسيف الدولة إن صح هذا التعبير .

ونحن إذن نستطيع أن نعتبر هذه الأعوام التي قضاها
المتنبي عند سيف الدولة خير أعوامه ، وأخصبها وأغناها
وأكثرها حظا من الإنتاج المختلف المتنوع .

وخصلة ثالثة يمتاز بها شعر المتنبي في هذا الطور وهي أنه
قد استطاع لا أن ينشئ فنا جديدا من فنون الشعر ، بل أن
ينمي فنا من هذه الفنون ويقويه ، ويكثر القول الجيد فيه ،
حتى يمنحه من الامتياز والاستقلال ما يجعله فنا قائما بنفسه .

أريد بهذا الفن وصف الجهاد بين المسلمين والروم . فمن
الحق أن يقول قائل أو يظن ظان أن أبا الطيب قد ابتكر هذا
الفن أو خرج به عما ألف القدماء . فوصف الجهاد بين
المسلمين والروم قديم منذ كان الجهاد بين المسلمين والروم .
وقد امتاز جماعة من الشعراء في هذا الوصف . ويكفي أن
نذكر ما قاله أبو تمام ، وما قاله البحتري . ولكن أبا تمام

في
المدح
المدح

والبحتري وغيرهما من الشعراء الذين سبقوا المتنبي لم يفرغوا
لهذا الفن كما فرغ له ، ولم يققوا عليه أكثر جهدهم كما وقف
عليه أكثر جهده . ثم هم لم يشتركوا في الجهاد كما اشترك فيه
المتنبي ، ولم يشهدوا مواقعه كما شهدها المتنبي ، ولم ينعموا
كما نعم المتنبي ، ولم يشقوا كما شق المتنبي ، بما كانت هذه المواقع
تعقب من انتصار أو اندحار . فهم كانوا يقولون الشعر في
وصف هذا الجهاد متأثرين بفنهم وحده ، أو قل بفنهم وأملهم .
وكان المتنبي يقول متأثرا بما يرى قبل كل شيء ، ثم بالفن
والأمل بعد ذلك .

ومن هنا تفهم السبب فيما تحسه من تأثير خاص حين تقرأ
وصف المتنبي لهذا الجهاد بين المسلمين والروم . تأثر لا تجده
حين تقرأ ما كان يقوله أبو تمام للمعتصم ، أو البحتري
للمتوكل .

فأنت تجد عند هذا وذاك فنا وجمالا ، ولكنك تجد
فنا وجمالا لا يكادان يخلوان من الحرارة والنشاط .

فإذا قرأت وصف المتنبي لهذا الجهاد وجدت فيه نارا
تضطرم ، ولا تكاد تمس قلبك حتى تشيع فيه ، وإذا

الفرص من سيف
لما ذكره المتنبي
٣٢١
قلبك يضطرم أيضا حماسة ونشاطا .

ومصدر هذا أن المتنبي في هذا الوصف لم يكن يصدر
عن مدح سيف الدولة والرغبة في إرضائه وإثارة إعجابه بنفسه ،
وإعجاب الناس به ، كما كان يفعل أبو تمام والبحترى ، وإنما
هو يصدر عن هذا ويصدر معه عما كان يثور في نفسه من
العواطف ، وما كان يدور في رأسه من الخواطر حين كان
يشهد الواقعة ويتبع العدو منتصرا أو يولى أمامه منهزما ،
وكان يصدر مع هذا وذاك عن انفعالات المسلمين التي كانت
تثور حوله أثناء الاستعداد للحرب ، وأثناء الاشتراك في
المعركة ، وبعد الانتصار أو الفرار .

ثم كان المتنبي يصدر بعد هذا كله عن هذا الانفعال الآخر
الذي كان يشهده حين كان يثور في نفس العدو منهزما ومنتصرا
فقد كان المتنبي يمدح سيف الدولة من غير شك بهذا الشعر
ولكنه لم يكن يصور سيف الدولة وحده ، وإنما كان يصور
معه نفسه ، ويصور جماعة المسلمين المجاهدين ، ويصور جماعة
الروم أيضا .

ومن هنا تجد في وصف المتنبي لحروب سيف الدولة عند

الثغور فتوة عربية اجتماعية إن صح هذا الوصف . وترى هذه الفتوة العربية الاجتماعية تشيع في وصف المتنبي حية قوية مضطربة شديدة الاضطراب ، كأنها الكهرباء لا تكاد تتصل بهذا الشعر حتى ينتقل إليك ما صور فيه المتنبي من حياة هؤلاء المجاهدين ، وما كان يملؤها من نشاط فيه الأمل والابتهاج ، وفيه الاكتئاب والابتئاس ، وفيه الثقة بالنفس والايمان بالحق والارتفاع عن صغائر الأمور دائما .

ونحن نستطيع أن نفهم عجز الأستاذ بلاشير عن أن يذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي ، وأن نعلله وإن لم يكن في حاجة إلى هذا التعليل . فجنسية الأستاذ واختلاف مزاجه وطبعه ، وأخشى أن أذكر دينه أيضا . كل هذا يجعل تأثيره بهذا النحو من شعر المتنبي قليلا ضئيلا ، وربما جعله تأثيرا عكسيا وربما دفع الأستاذ إلى الغض من هذا الشعر ، والازدراء له ^(١) .

(١) وأنا في الوقت نفسه أخالف صديقي الدكتور عبد الوهاب عزام أشد الخلاف فيما ذهب إليه من تقديم هذا الفن من شعر المتنبي على الشعر القصصي القديم كله . فهذا غلو لا سبيل إلى قبوله مع ما هو محقق =

أما نحن فإن هذا الشعر يثير في نفوسنا عواطف أخرى ،
ويستتبع فيها حركات لا تنتظر من نفس الأستاذ بلاشير وأمثاله
من العلماء الأوروبيين .

وقد يقال إن المتنبي أغرق وأسرف ، وعظم من أمر هذه
المواقع أكثر مما ينبغي ، وأضاف إليها من الخطر أكثر مما
تستحق ، وأعرض عن تصوير الهزيمة ، ولم يعن إلا بتصوير
الانتصار . ولكن يجب أن نتفق ، فلم يكن المتنبي مؤرخا
ولا محققا ، وإنما كان شاعرا ، وشاعرا ليس غير . أستغفر
الله ، بل كان شاعرا يشترك في الجهاد ، يذوق لذته ويشقى
بآلامه . فالذين يطالبون هذا الشاعر بالتاريخ وتصوير الحق
كما وقع يسرفون عليه ، ويسرفون على أنفسهم ، ويسرفون
على الشعر نفسه ، وأين كانت تقع حرب طروادة التي وصفت
الإلياذة طورا من أطوارها من هذه الحروب التي شهدتها
المتنبي ووصفها تسعة أعوام كاملة .

= من انقطاع أسباب الموازنة بين شعر المتنبي هذا وقصص الهند واليونان
والرومان .

(راجع كتاب ذكرى أبي الطيب ، للدكتور عبد الوهاب عزام ،
صفحة ١١١) .

أفيعاب شعراء الإلياذة بأنهم لم يصفوا التاريخ كما كان ،
أم يحمد من هؤلاء الشعراء أنهم صوروا نفوس الجماعات
والأفراد التي اشتركت في هذه الحرب أبدع تصوير وأروع ؟
وبعد فهل من الحق أن المتنبي أسرف كل الإسراف ،
وتكثر حين كان يجب الاقتصاد . يجب أن نلاحظ أن معظم
البلاد الإسلامية في ذلك الوقت كانت منصرفة إلى نفسها ،
مشغولة بأمورها الخاصة عن هذه الثغور الرومية . وأن هذا
القسم من شمال سوريا والجزيرة كان وحده الناهض بحماية
هذه الثغور . ينهض بذلك على ضالته وقلة مصادره المالية
والعسكرية ، وينهض بذلك نهوضا حسنا يلقي فيه النصر ،
ويلقي فيه الهزيمة أحيانا . ولكن أمام أى قوة كان هذا
القسم من شمال سوريا يثبت أثناء هذا الجهاد المتصل العنيف .
أمام الامبراطورية البيزنطية الضخمة التي مهما يكن أمرها ،
فليس من الممكن أن تفكر في المقارنة بينها وبين هذا
الطرف الصغير اليسير من أطراف المسلمين .

فإذا نظر أبو الطيب فرأى دولة ضخمة كالدولة الإسلامية
ساهية لاهية ، مشغولة بما يفسد حياتها من اللهو والعبث ،

ومن الخصومة والاضطراب ، ورأى فتى عربيا قد ثبت مع
من حوله من هؤلاء العرب الذين أقصوا عن ملكهم وردوا
عن سلطانهم لهذه الامبراطورية الضخمة ، فحى منها الشغور
وذادها عن حوزة الإسلام ، واقتحم عليها ملكها حتى أبعد
في الغارة أحيانا . إذا نظر المتنبي فرأى هذا كله ، وامتلأت
نفسه به إعجابا وتيها فتغناه أروع غناء وأبقاه . أي يمكن أن
يوصف بأنه مسرف متكرر يتجاوز الحق ويفسد التاريخ .

كلا إنه لا يتجاوز الحق ولا يفسد التاريخ بالقياس إلى
الذين لا يحسنون استنباط التاريخ من الشعر ، ولا يفرقون
بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين .

ولنعد إلى ما أخذنا فيه فنقول : إن المتنبي إذن لم ينشئ
بشعره في وصف الجهاد بين المسلمين والروم فنا جديدا ، فقد
ارتقى بهذا الفن حتى انتهى به إلى أقصى ما كان قد قدر له
من كمال . وأنت تشعر بهذا شعورا قويا واضحا حين تقرأ شعر
المتنبي وشعر أبي فراس في وصف هذا الجهاد . فكلما الشاعرين
قد شهد المواقع واشترك فيها وذاق لذاتها وآلامها ، ثم وصف
ما تركت في نفسه وفي نفس غيره من الأثر .

ولكنك واجد في وصف المتنبي قوة وفتوة ونشاطا
وعنفا ، لا تجدها في شعر أبي فراس الذي ظهرت فيه دقة
الحس ورقة العاطفة . فهو لا يخلو من فتور لا يلائم هذه الحياة
العنيفة التي كان يحياها هؤلاء العرب من المسلمين في ذلك
الوقت ، ولعله يلائم الترف الذي كان يشمل القصرين في
أوقات السلم : قصر سيف الدولة في حلب ، وقصر أبي فراس
نفسه في منبج . أنت واجد حين تقرأ هذين الشاعرين ، فرق
ما بين القوة التي ترتفع بك إلى أقصى ما تستطيع أن تبلغ
من أمل وثقة وعنف ، والضعف الذي ينحط بك إلى الخضيض
ولكنه يحتفظ بك معلقا في الهواء لا تبلغ الأرض فتمشى عليها
ولا تبلغ أعلى الجو فتحلق فيه تحليق النسر .

على أني أخشى أن يخدع القارئون لهذا الفن من فنون
المتنبي عن أنفسهم بعض الشيء ، فيظنوا أن هذا الفن هو
القصص ، كما نجده في الإلياذة وأشباهها من آيات الشعر
القصص القديم والحديث .

وقد خدع الأستاذ بلاشير نفسه عن هذا الشعر وعن
الشعر الحماسي كله ، فسماه قصصا . والواقع أن في شعر المتنبي

هذا كثيرا من مميزات الشعر القصصى . فيه قوة المعنى ، وفيه
جزالة اللفظ ، وفيه روعة الوصف للحرب وأهوالها ، وبلاء
الأبطال فيها ، وفيه الاشادة بنفس الجماعة وما ترتقى إليه حين
تبلى فتحسن البلاء ، وحين تمتحن فتحسن احتمال المحنة . ولكن
فيه عنصرا يميزه من الشعر القصصى ويرده إلى الغناء ردا قويا
ويلزمه مكانه من الشعر العربى المألوف ، وهو أن الشاعر
لا ينسى نفسه لحظة ولا بعض لحظة ، وإنما هو يذكرها دائما
حتى حين يغرق فى وصف سيف الدولة ، أو حين يغرق فى
وصف الحرب والمحاربين . فشخصية المتنبي ظاهرة قوية ، فى
شعره الرومى لا يستطيع القارئ وإن بعد العهد بينه وبين
الشاعر أن ينساها أو يعرض عنها ، وإنما هى تفرض نفسها عليه
فرضا ، وقد لا يكتفى المتنبي بحضور شخصيته فى ذهنه ، وفى
ذهن سامعيه وقارئيه . فإذا هو يذكرها تصرىحا ويحدث عنها
فى غير لبس ولا التواء . وأخص ما يمتاز به الشعر الغنائى من
الشعر القصصى هو هذا العنصر بالضبط ، هذا العنصر الذى يمثل
الشاعر أمامك فى كل لحظة ، ويقنعك بأن الشاعر لا يصف
وإنما يتغنى ، فإذا وصف فوصفه أداة من أدوات الغناء

ووسيلة من وسائله . فليس شعر المتنبي في وصف الجهاد بين المسلمين والروم قصصا ، وإن اشتمل على كثير من مميزات القصص ، ولكنه غناء لأنه يشتمل على أخص مميزات الغناء .

ومن هنا يخطئ من يقارن بينه وبين شعر الإلياذة في غير تحفظ ولا احتياط . ومن هنا يخطئ كذلك من يزعم أن المتنبي قد أدخل في الشعر العربي فنا لم يكن فيه وهو الفن القصصى ، فالمتنبي لم يزد على أن أخذ فن الحماسة القديم فنماه وقواه حتى انتهى به إلى أرق أطواره .

وخصلة رابعة يمتاز بها شعر المتنبي في هذا الطور أيضا وهي أنه قد وثب بشعره حين اتصل بسيف الدولة وثبته الأخيرة التي رفعته إلى الأوج وضمنت له مكانه بين الفحول من شعراء العرب ، لأنه استحدث فنا جديدا ، فقليل من شعراء العرب من استحدث فنا جديدا . وقد كان ذلك في صدر الإسلام وفي أول أيام العباسيين ، ولا لأنه قد جدد من أوزان الشعر وقوافيه ما قدم وطال عليه العهد ، ولا لأنه قد أضاف إلى هذه الأوزان وزنا لم يكن معروفا من قبل ، فليس للمتنبي في شيء من هذا حظ ما ، بل لأنه

ملك ناصية الفن حقا ، وجعل يتصرف بألفاظه ومعانيه كما
كان يتصرف بها الفحول ، وأثبت شخصيته قوية واضحة
ممتازة من غيرها ، وأصبح مراة لنفسه لا لأبي تمام
ولا للبحتري ، وأصبحنا نستطيع أن نقرأ القصيدة من شعره ،
فنقول : إنها قصيدته هو لم يتأثر بها هذا الشاعر أو ذاك ،
على حين كنا قبل هذا الطور من أطواره نقرأ القصيدة من
شعره ، فنحس وراءها المثل الذي احتذاه ، والنموذج الذي
اتبعه ؛ فمرة نحس أبا تمام ، ومرة نحس البحتري ، وحينما
نلمح الخطيئة ، وحينما نلمح الأعشى ، وربما خيل إلينا أننا
نرى زهيراً . ولست أذهب في هذا الكلام مذهب القدماء
من خصوم المتنبي ، حين كانوا يزعمون أنه أخذ هذا المعنى
من هذا الشاعر أو أخذ هذا اللفظ من ذاك ، وإنما أذهب
مذهبا آخر ، وهو أن المتنبي كان أحيانا يجعل الشاعر القديم
أمامه ، أو يجعل قصيدة بعينها من قصائد شاعر بعينه أمامه
حين ينظم هذه القصيدة أو تلك ، فيظهر أثر هذا في شعره
سواء أراد ذلك أم لم يرد ، ويظهر هذا الأثر شائعا في
الوزن والقافية ، وفي اللفظ والمعنى ، وفي روح القصيدة إن

جاز لنا أن نستعمل هذا اللفظ بحيث تحس هذا الأثر ،
ولا تكاد تحصره أو تحدده أو تدل عليه . فأنت حين تقرأ
داليمته التي أولها :

أَقْلُ فِعَالِي بَلَهْ أَكْثَرُهُ مَجْدُ

لا تذكر الخطيئة أثناء قراءة الأبيات الأولى ، فما
أكثر الشعر العربي الذي يقوم على وزن كهذا الوزن ،
وقافية كهذه القافية ، ولكنك لا تكاد تمضي في قراءة
القصيدة حتى تفرض عليك دالية الخطيئة فرضا ، وكذلك
الأمر في لاميته التي أولها :

لَا تَحْسَبُوا رَبْعَكُمْ وَلَا طَلَلَهُ

متكافة الغزل على جمال فيه ، محتفظة بشخصية المتنبي في
أولها وفي وسطها وفي آخرها ، ولكن امض في قراءة القصيدة ،
فستراءى لك على كره منك لامية الأعشى ، وستقرأ قوله :

وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ

فلا تملك نفسك أن تذكر قول الأعشى في لاميته :

وَالشَّيْءُ حَيْثُ مَا جُعِلَا

فإذا بلغنا طور المتنبي عند سيف الدولة ، وأنفق الشاعر

في حجة هذا الأمير عاما أو عامين ، وشهد بلاء الأمير ،
وتأثر بالحياة معه مقيا وظاعنا ، فإن هذه الظاهرة تستخفي
من شعره استخفاء تاما . وإذن أنت تستطيع أن تقول : إنه
أخذ هذا المعنى أو هذا اللفظ من هذا الشاعر أو ذاك ،
ولكنك لا تستطيع أن تقول : إنه تأثر في هذه القصيدة ،
قصيدة هذا الشاعر أو ذاك .

لفظ المتنبي إذن في هذا الطور جزل لا يستطيع المتنبي أن
يبلغ به جزالة أجزل مما وصل إليه ، ومعناه فخم دقيق
مستقيم إلى أقصى ما يستطيع الشاعر أن يبلغ من الفخامة
والدقة والاستقامة .

وللمتنبي في هذا الطور عيوبه اللفظية والمعنوية التي
لا تأتيه من تقليد غيره ، أو لا تأتيه من تعمد التقليد إن
أردت دقة التعبير ، وإنما تأتيه من تكوين نفسه وذوقه
وطبعه ومزاجه الخاص . أدير عقله وشعوره وحسه على هذا
النحو ، فأدير تعبيره على هذا النحو نفسه أيضا .

ونحن بعد أن يترك المتنبي سيف الدولة نستطيع أن
نلاحظ في شعره هذا الشعور أو ذاك وهذا الحس أو ذاك ،

ولكننا لن نستطيع أن نلاحظ أن شعره قد ارتقى أو نما
أو تجاوز الطور الذي انتهى إليه في حلب . ولنلاحظ أن
الناحية الغنائية تقوى جدا في شعره بعد مفارقة سيف الدولة
لأنه سيفرغ لنفسه على نحو ما ، وسنلاحظ أيضا أنه قد
يقصر عما تعود أن يبلغ من الآماد ، وقد يضعف شعره ،
وقد يصبح تكلفا وتصنعا ، ولكنه لن يتجاوز الرق الذي
بلغه في هذا الطور .

وواضح أن رقى شعر المتنبى في هذا الطور من أطوار
حياته ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها . فالبينة نفسها كانت
تقتضى أحد أمرين . فإما أن يرقى المتنبى ويعلو حتى يمتاز
من خصومه ومنافسيه ، وإما أن يظل حيث كان حين اتصل
بسيف الدولة ، فلا يكون فرق بينه وبين غيره من الشعراء .

ولعلك لم تنس ما لاحظناه من أن رقى شعر المتنبى حين
لحق ببدر بن عمار ، كان نتيجة لأسباب من أهمها هذه البيئة
العراقية الناقدة التي لم يظفر بها المتنبى قبل ذلك . فالبيئة
التي كانت تحيط به عند سيف الدولة كانت أرقى جدا من
البيئة التي أحاطت به عند بدر بن عمار . كانت أرق وكانت

أشد تنوعا واختلافا ، ولست في حاجة إلى أن أصف لك
البيئة التي أحاطت سيف الدولة في حلب ، فقد كثر كلام
الناس في وصفها حتى أصبح الوقوف عندها إطالة وإملالا .
وإنما ألاحظ أن بيئة بدر بن عمار كانت بيئة ضئيلة ضيقة
تلائم سلطان هذا العامل اليسير ، وما كان يستطيع أن
يمنح من المال ، وتلائم في الوقت نفسه ضالة عمله وخضوعه
لسلطان أمير آخر هو ابن رائق الذي كان يتلقى سلطانه من
بغداد . فأما بيئة سيف الدولة فقد كانت تلائم ما كان
لهذا الأمير من سلطان مستقل بالفعل له كل مميزات القوة
والثروة والغنى . سلطان لا يتلقاه صاحبه من بغداد ، وإنما
يستمدّه من سيفه ومن بلائه في قتال الروم والثبات للاخشيديين
سلطان ينافس به صاحبه أصحاب السلطان في بغداد وفي
الفسطاط ، ويبيح للمتنبي كما سئرى أن يعرض بالخليفة حيناً ،
ويصرح بمهاجمته حيناً آخر . سلطان يشبه إذن سلطان بغداد
ويكاد يمتاز منه ، بل يمتاز منه بأنه سلطان عربي خالص
لا يتسلط عليه الأعجمي ولا يتأثر بالذوق الأجنبي . وما أظنك
في حاجة إلى أن ألفتك إلى أن حال السلطان في بغداد

كانت سيئة كل سوء في هذا العصر بالقياس إلى ما تحتاج إليه الحياة الأدبية من التقوية والتنمية والتشجيع . فقد كان الخليفة معسرا أشد الإعسار في أكثر الأوقات ، ويكفي أن تقرأ كتاب الأوراق للصولي لترى مع كثير من الألم والحزن كيف كان الراضى يعتذر بضيق ذات اليد عن ارضاء حاجة شعرائه وندمائه إلى العطاء .

وكان السلطان الفعلى وما يتبعه من الثراء الفعلى إلى جماعة من قادة الأتراك ، ثم إلى هذا الأمير الديلمى وحاشيته . وواضح جدا أن هؤلاء الأتراك والديلم مهما يكن حبهم للشهرة وحرصهم على المنافسة ، ورغبتهم فى تشجيع العلم والأدب ، فقد كان لهم من ذوقهم الأجنبى ومن تعصبهم على العرب ومن شعوبيتهم بوجه عام ما يحول بينهم وبين الفراغ للحياة الأدبية العربية الخالصة على نحو ما كانت الحال عليه فى بغداد قبل ضعف الخلفاء ، وفساد الأمر فى قصر الخلافة .

وربما كان استعداد السلطان لتشجيع الأدب وحمايته فى مصر خيرا من استعداده فى بغداد ، ولكن السلطان

على كل حال كان إلى جماعة من الأجانب ، من الأتراك والروم والسودان . فهم كانوا يحمون الأدب ويشجعونه لأن طبيعة الحياة كانت تقتضى ذلك ، ولأن المنافسة السياسية كانت تفرضه . فأما في حلب فقد كان الأمر مختلفا كل الاختلاف . الأمير عربي متعصب للعرب ، مبغض للشعبوية ، والبيئة من حوله عربية طامحة إلى المجد ، حائرة على الغاصبين في العراق ومصر . والذوق عربي قد ورث حب الأدب عامة ، وحب الشعر خاصة عن هذه البادية العربية التي ما تزال حوله تمدده وتغذوه . وليست الحاجة إلى المنافسة أقل منها في بغداد أو القسطنطينية وأهلها أكثر منها . ثم لم تكن هذه الدولة السورية فقيرة ولا معسرة ، وإنما كانت ضخمة الثروة ظاهرة الغنى ، وليس من شك في أنها كانت تكسب من حرب الروم أكثر مما ينفق فيها .

فلا غرابة في أن تزدهر الحياة العقلية والأدبية فجأة حول هذا الأمير العربي الفتى ، وفي أن يسرع إليه العلماء والأدباء والشعراء يلتمسون فضله وحمايته ، فيجدون عنده

ما يلبتمسون وفوق ما يلبتمسون . ولعله كان يدعوهم إليه
ويرغبهم في جواره ترغيبا .

وأنا أعلم أن هذه النهضة العقلية والأدبية لم تكن
طبيعية ولا متوطنة في سوريا الشمالية . وقد رأينا في صدر
هذا الحديث أن البيئة العربية في شمال سوريا كانت جاهلة
في شباب المتنبي ، وأن جهلها قد أثر في شعر المتنبي آثارا
ظاهرة نكاد نلمسها بأيدينا . إنما طرأت هذه النهضة على
سوريا الشمالية طروءا وظهرت فيها فجأة حين نهض فيها هذا
الفتى العربي ، فازدحم حوله الكتاب والشعراء والعلماء
والفلاسفة .

ولم يكن اتصال هذه الدولة الناشئة بالروم في غير انقطاع
ليضعف من هذه النهضة أو ليحد آفاقها ، وإنما كان خليفه
أن يزيد لها قوة بما يثير من نشاط في النفوس ، وبما يحدث
من اختلاط مستمر بين العرب والروم أثناء الحرب والسلم
لكثرة من كان يقع في إيسار المسلمين من الروم ومن كان
يقع في إيسار الروم من المسلمين .

ولست أزعم أن حلب كانت في ذلك الوقت أرقى من

بغداد ، أو أنها كانت تعدل بغداد في حظها من الحضارة والترف العقلي والمادى ، فهذا مخالف لطبيعة الأشياء . .
وليس من المعقول أن تشبه مدينة نهضت فجأة بمدينة هي مستقر النهضة الإسلامية منذ عهد بعيد ، فيها آثار الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل والمعتضد ، كانت عاصمة مادية ومعنوية لهذه الدولة الضخمة ، وهي الآن قد فقدت سلطانها المادى ، ولكن سلطانها المعنوى ما يزال قويا بعيد الصوت فى الآفاق . .
ولكن ليس من شك فى أن شاعرنا قد لقي فى حلب بيئة لم يلق مثلها من قبل ، فيها غذاء لعقله ، وإرهاق لحسه ، وتقوية لشعوره ، وفيها قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، ملاحظة متصلة ، ونقد مستمر ، وحسد وكيد ، وتنافس فى الظفر يرضى الأمير .

وإذن فمن الحق على المتنبي لنفسه أن يعنى بفنه أشد العناية وأدقها ، وأن ينتفع بكل ما حوله لتصبح هذه العناية خصبة منتجة حقا . وقد فعل المتنبي من غير شك ، فتأثر عقله وشعوره وذوقه بهذه البيئة الجديدة ، وظهرت آثار هذا كله فى شعره الذى قاله فى هذا الطور .

٢

وكانت ثقافة سيف الدولة نفسه واسعة عميقة فيما يظهر .
فقد كان على احتفاظه بكثير من خصال البداوة أبعد الناس
عن حياة البدوى الجاهل الذى لا يعرف الشجاعة والبأس
والكرم والجود ، وكانت بيئته الخاصة التى نشأ فيها تهيئه
لحياة مثقفة لها حظ لا بأس به من المشاركة فى العلم والأدب ،
والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التى كانت مسيطرة
فى بغداد .

فهو لم يخرج من البادية فجأة ، وإنما سبقت أسرته إلى
شئ غير قليل من المجد ، وشاركت فى الحياة السياسية ،
ونَهَضت ببعض المناصب العامة ، ثم انحازت إلى فكرة
القومية من جهة ، وتأثرت بالطمع وحب النفس من جهة
أخرى . ففكرت فى الاستقلال ، وسعت إليه ، وظفرت
به ، وأيسر النتائج لهذا أنها أخذت بأسباب الترف ، وعاشت
عيشة المتسلطين ولم ترسل أبناءها هملاً بغير تربية ولا تثقيف ،

وإنما اتخذت لهم الأساتذة والمؤدبين ، وعلمتهم ما لم يكن بد من تعلمه للنهوض بمثل ما كانت تنهض به من جلائل الأعمال . وثقافة سيف الدولة تظهر في أحاديثه ومحاوراته ، ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن ، وقدرته على التمييز الدقيق بين ما كان يقال في مجلسه من الصواب والخطأ ، ومن الجيد والردىء ، ورغبته في أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتاب والشعراء ، وفي أن تتفرع فيها الثقافات ؛ فتوجد الفلسفة إلى جانب العلم ، وتوجد علوم الدين إلى جانب علوم اللغة والأدب .

وما كان الرجل يصنع هذا عن جهل ، ولا عن غرور ولا عن رغبة في المنافسة للمنافسة من حيث هي ، بل عن بصيرة وحسن رأى ، وعلم بما يأتى وما يدع ، وتقدير صحيح لأثر الحياة العقلية المزدهرة في نشر الدعوة ، وإعلان ما كان يريد للملكة ودولته من أبهة وجلال .

وكانت مجالس سيف الدولة في أوقات السلم كمجالس أمثاله من الأمراء وأصحاب السلطان ، مدارس يتثقف فيها

الجاهل ، ويتهذب فيها ذو الطبع الغليظ ، وتشدد فيها عناية كل واحد من الذين يشتركون فيها ويختلفون إليها بأن يعظم حظه من الثقافة ، ويزداد علمه سعة وعمقا ، ويزداد طبعه رقة وتهذيبا ، ويزداد لسانه مرونة ولباقة . ولعل سيف الدولة نفسه كان أشد الناس انتفاعا بهذه المدرسة واستفادة مما يلقي فيها من العلم ويدار فيها من الحديث . فكانت ثقافته تزدد وعلمه ينمو من يوم إلى يوم . ولست أستبعد أن يكون سيف الدولة قد أضاف إلى مشاركته في الثقافة الشائعة لوقته ، مشاركة فيما هو أعمق من هذه الثقافة وأدنى إلى الجد . فما أظن في أنه حمى الفارابي ، ويسر له أسباب الحياة لمجرد الرغبة في الفخر والتكبر . وما أستبعد أن يكون سيف الدولة قد ألم شيئا باليونانية وثقافة اليونانيين لاتصاله اليومي أثناء حياته كلها باليونان ، وشؤون اليونان . فمن الحق على الشاعر الذي يريد أن ينقطع لأمير كهذا الأمير ، ويشارك في مجلس كمجلس سيف الدولة أن يهيب نفسه لذلك أحسن تهيئة ، ويعدها له أقوى إعداد .

والرواة يحدثوننا ، والديوان يحدثنا بأن المتنبي قد جد

في ذلك فأحسن الجد ، وأتيح له في ذلك أحسن التوفيق .
فلم يكن المتنبي كما عرفت صاحب مجون وهو ، ولم يكن محبا
للراحة والفراغ . فلا غرابة في أن تتحدث الأخبار بأنه كان
كثير القراءة ، يطيل مصاحبة الكتب ، حتى يمضي عليه
في ذلك أكثر الليل .

وإذن فلم يكن رقي شعر المتنبي في هذا الطور شيئا
مفاجئا ، ولا أثرا من آثار المصادفة ، وإنما كان شيئا
طبيعيا ، ونتيجة لازمة لهذه الحياة الجديدة التي انغمس
فيها ، ولما كان قد ركب في طبعه من ذكاء القلب ، ونفاذ
البصيرة ، وحدة الذهن وقوة العقل والشعور معا .

ركب طبعه على هذا النحو ، ووجد عند سيف الدولة
راحة من الجهد ، وفراغا للجد من الأمر ، وصادف بيئة
خصبة مثقفة ذكية ناقدة ، وأميرا ليس أقل من هذه البيئة
خصبا ، ولا ذكاء ولا ثقافة ، ولا ميلا إلى النقد . فلم يكن
له بد من أن يلائم بين نفسه وبين هذه البيئة ، ومن أن
يجعل نفسه خليقا بصحبة هذا الأمير . فإذا أضفت إلى ذلك

نشاط الأمير الذي لا يفتر ، وحسن بلائه في سبيل المجد ،
وحسن جهاده في حماية الإسلام والمسلمين ، وحسن سخائه
بالمال ، لم تنكر من هذه الوثبة التي وثبها المتنبي في هذا الطور
من حياته قليلا ولا كثيرا .

وكان شعر المتنبي كما رأيت متنوعا كحياة الأمير الذي انقطع له ، فوقف نفسه وجهده على مدحه والإشادة به ، والثناء عليه . وما أحتاج إلى أن أتكلف ما كنت أتكلفه من قبل في توقيت القصائد والمقطوعات وتاريخها ، فالديوان يكفيننا هذه المهمة ، فهو يوقت هذه القصائد ويؤرخها ، ولا يكاد يهمل إلا توقيت المقطوعات القصار وتاريخها ، لأنها فيما يظهر كانت متصلة منتشرة في الأعوام التي اصطحب فيها الشاعر والأمير ، فلم يكن في توقيتها وتاريخها كبير عناء ، وما أحتاج كذلك إلى تأريخ حياة سيف الدولة ، فإني لا أريد الحديث عن هذا الأمير ولا تصوير سيرته ، بل أنا لا أعرض له إلا من حيث الحاجة إليه في تصوير حياة المتنبي والحديث عن شعره ، ولم يقصر المورخون القدماء والحديثون في إنصاف هذا الأمير وتصوير ما كان يمتاز به من قوة ، أو ما كان يعيبه من ضعف وتقصير .

وما أحتاج كذلك إلى أن أتعمق في درس كل الشعر
الذي قاله المتنبي في سيف الدولة ، فإن هذا شيء يطول
ويوشك ألا ينقضى . وما أشد حاجتي إلى أن أفرغ من
هذا الحديث ، وأدع المتنبي وحياته إلى موضوع آخر من هذه
الموضوعات الكثيرة التي أنا مشغوف بقراءتها والكتابة فيها .
فحسبك وحسبي أن نقف وقفات قصارا عند نماذج
مختلفة من هذه الفنون التي طرقها المتنبي فيما قال من الشعر
لسيف الدولة ، على أن تكون هذه النماذج التي نلم بها مغنية
عما لا ندرسه ولا نقول فيه .

ولننظر قبل كل شيء إلى المدح الخالص الذي قاله
المتنبي في سيف الدولة ، والذي اشترك فيه سيف الدولة مع
غيره من الأمراء الممدوحين ، أو اشترك فيه المتنبي مع غيره
من المادحين .

ولنختار أول ما قاله المتنبي في مدح سيف الدولة من الشعر
حين اتصل به في أنطاكية سنة سبع وثلاثين . فنحن نلاحظ
أنه أكثر من قوله الشعر في سيف الدولة أثناء هذه السنة
الأولى . فقد مدحه في أنطاكية نفسها بقصائد ثلاث .

إحداها هذه الميمية التي سنطيل الوقوف عندها شيئا .
والآخران قالهما حين عزم سيف الدولة على الرحيل ، وحين
أخذ به ، ثم ماتت أم سيف الدولة فرثاها ، ثم أسر
ابن سيف الدولة واستنقذه الأمير ، وقال المتنبي في ذلك شعرا .
ثم تعرض أخو سيف الدولة لخطر من قبل البويهيين ، وهم
سيف الدولة بنصره ، فقال المتنبي في ذلك شعرا . ثم أراد
الأمير شاعره على أن يصحبه في هذه الحملة التي هم بها
فقال المتنبي في ذلك شعرا . ومن المحقق أن أسبابا عارضة
لم يحدثها المتنبي قد دعت به إلى الإكثار من قول الشعر في هذا
العام أو فيما بقي من هذا العام . ولكن من المحقق أيضا
أننا نحس في هذا الشعر كله ، ولا سيما في القسم الأول منه
أن المتنبي كان حريصا كل الحرص على أن يرضى أميره
ويظفر بمودته واصطناعه إياه ، وأنه قد ظفر من ذلك
بما كان يريد ، فأصبح شاعرا رسميا ، وأصبح الأمير
حريصا على صحبته يهتم بالسفر فيدعوه إلى مرافقته .

فلننظر إذن في بعض هذا الشعر ولنختار منه الآن
هذه القصائد الثلاث التي قالها المتنبي لأmirه بمجرد أن اتصل

به في أنطاكيه حين كان الأمل وحده هو الذى يدفعه إلى المدح والثناء . والنظرة السريعة في القصيدة الأولى تترك في نفسنا أثرا غريبا . فالفرق عظيم جدا بين لهجة الشاعر فيها ولهجته في القصيدة الأولى التي مدح بها بدر بن عمار . كان مدحه لبدر بن عمار كما رأيت مندفعاً شديداً الاندفاع لا يكاد يملك نفسه ، ولا يسيطر على ما يثور فيها من عواطف الفرح والابتهاج . وكان كما رأيت يلاطم بين شعوره وشعره فيصطنع البحر المتقارب الذى ينحدر به انحدارا ، ويصور إسراعه إلى الأمير واندفاعه إلى هذه الواحة الخضراء التي لاحت له في صحراء مجده .

أما ميميته الأولى في سيف الدولة ، فلا تصور اندفاع ولا إسراعا ، وإنما تصور أناة ومهلا وتعمدا لطول الروية والإمعان في التفكير . وأنا أقدر أن المتنبي كان في الخامسة والعشرين حين اتصل ببدر بن عمار ، وكان في الرابعة والثلاثين حين اتصل بسيف الدولة . وأنا أقدر أثر الشباب في ذلك الاندفاع ، وأثر الكهولة في هذه الأناة ، بل أنا أقدر أيضا أن المتنبي كان بأسا يأسا حين أتيح له

الاتصال ببدر ، وأنه كان راضيا مطمئنا حين اتصل بسيف الدولة . بل أنا أقدر بعد هذا وذاك أن المتنبي كان قليل الشهرة ، ضئيل الحظ من نباهة الذكر حين اتصل ببدر ابن عمار ، وكان بعيد الصوت ، مرتفع المسكاة حين اتصل بسيف الدولة .

وكل هذا كاف لتعليل اندفاعه في طبرية وأناته في أنطاكية . ولكني لا أستبعد مع هذا أن تكون تجربة المتنبي عند بدر قد علمته الاحتياط حين يتصل بالملوك والأمراء ، وألقت في روعه أن الخير أن يصطنع الأناة والروية ؛ فلا يلقى بين يدي ممدوحيه بنفسه كلها ، وأمله كله ، وإنما يعطيهم من ذلك بمقدار ، ويدخر لنفسه منه ما قد ينفعه حين يحتاج إليه . بل أنا أرجح أن تجربة المتنبي عند بدر وعند غيره من الناس قد علمته ألا يكشف عن نفسه كلها لأحد ، وأن يقسم حماسه قسمين ، يحتفظ لنفسه بأحدهما ، ويجعل الآخر مادة يأخذ منها ليعطي ممدوحيه . ومهما يكن من شيء فقد كان المتنبي حين أقبل على سيف الدولة في أنطاكية مظهران متناقضان ، فأما أحدهما

فمظهر الأناة والحذر ، وأما ثانيهما فمظهر الحرص على إرضاء
أميره العظيم .

وشىء ثالث لا بد من تقديره فيما أظن ، هو أن المتنبى
قد حقق في نفسه الفرق بين ممدوحه الجديد وممدوحيه
السابقين . وحقق في نفسه الفرق بين البيئة التي كانت تحيط
بسيف الدولة والبيئات التي كانت تحيط بممدوحيه الآخرين
فأقدم على مدح سيف الدولة والتحدث إلى بيئته ، لا في
شىء من الأناة والحذر فحسب ، بل في شىء من التهميب
والإشفاق أيضا .

وما أرى إلا أنه استعد لمقامه هذا بين يدي سيف الدولة
وأصحابه ، فأحسن الاستعداد وأطاله ، وتقدم إلى فنه أن
يمده بكل ما يملك من قوة وخصب وغناء . وحرص على
أن تكون قصيدته الأولى لهذا الأمير خليقة بمقامه الأول
بين يديه ، وعلى أن يقرأ أصحاب الأمير وندماؤه هذه
القصيدة أو يسمعوها ، فإذا هم مضطرون إلى أن يقدروها
ويحسبوا لصاحبها حسابا ، ويعترفوا بأن الشاعر وشعره
خليقان حقا بالعناية والتفكير .

من أجل هذا كله كظم المتنبي عواطفه ، وأخضع آماله
وأهواءه لنظام دقيق شديد حقا ، وادخر إرسال نفسه على
سجيتها ، لمواقف ومقامات أخرى حين تنزل الكلفة بينه
وبين الأمير ، وحين تؤمن له البيئة الجديدة بنباهة الذكر
وارتفاع الشأن والمهارة في الفن . وإذن فليصطنع المتنبي لهذا
المقام الخطير ما يلائمه من فخامة الوزن ، وضخامة القافية ،
وجزالة اللفظ ، ودقة المعنى وارتفاعه أيضا .

وأنت واجد هذه الخصال كلها في هذه القصيدة
الميمية ، ويكفي أن تقرأ مطلعها لتعرف أن الشاعر قد تعمد
تعمدا ، وقصد إليه مع سبق الإصرار كما يقول أصحاب
القانون ، لا لشيء إلا ليظهر ويسحر ويصدم السامعين ،
 ويفرض عليهم نفسه ، ويكرههم على الاعتراف بأن هذا
الشاعر الجديد ليس شاعرا ما . ليس أول مقبل كما يقول
الفرنسيون ، وإنما هو شاعر يعرف كيف يدير رأيه في
رأسه ، وكيف يدير لسانه في فمه ، وكيف يقول البيت من
الشعر ، فيكلف سامعيه وقارئيه كثيرا من الجهد والعناء
ليفهموه ثم ليذوقوه ، ولن يقنعني أحد بأن المتنبي قد أرسل

نفسه على سجيئتها في هذا البيت وقاله في غير تكلف وتعمد .
والمتنبى عندى أعقل وأذكى وأعلم بالشعر وأبرع فيه من أن
يندفع إلى هذا البيت اندفاع الذى لا يعلم ما يأتى وما يدع ،
إنما أراد المتنبى أن يعنى خصومه الذين عرفهم أو افترضهم ،
وأن يكلفهم التفكير في تفسير هذا اللغز الذى استفتح به
قصيدته ، أو هذه الألغاز التى مضى فيها أثناء القسم الأول
من هذه القصيدة :

وفاؤكما كالربيع أشجاء طاسمهُ

بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجهُ

من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن المتنبى أراد أن يعبر عما
في نفسه فلم يجد وسيلة إلى هذا التعبير إلا هذا البيت الذى
اشتد فيه الالتواء والتعقيد .

ولنلاحظ أن المعنى الذى قصد إليه متكلف فى نفسه
لم يصدر عن نفس سمجة مرسلّة مع طبعها ، وإنما صدر عن
شاعر يريد أن يأتى بشيء جديد لم يتعود الناس والمتقفون
منهم خاصة أن يسمعوهُ . يريد أن يفجأ سامعيه ويأتيهم
بشيء لا عهد لهم به . فمتى سمع الناس تشبيه وفاء الأصدقاء

بربع الأحباء ؟ وأي علاقة بين هذين الطرفين من أطراف التشبيه ؟ وإذن فهذا المعنى الغريب محتاج إلى تعبير غريب ، ولا بد للشاعر من أن يتأنق في لفظه كما تأنق في معناه ، ولا بد من أن تكون الغرابة مظهر هذا التأنق اللفظي ، كما كانت الغرابة مظهر ذلك التأنق المعنوي . وما دام قد شبه الوفاء بالربع ، فليفسر هذا التشبيه بما يزيده غرابة وطرافة وإمعانا في البعد عن المألوف . فكما أن الربع يكون أشجى للنفس وأبلغ في إثارة الحزن كلما أمعن في الدروس ، وأحساء الآثار والدنو من البلى ، فوفاء صاحبيه أشد إثارة للحزن كلما ضعف وقل ، وتضاءلت آثاره . والمتنبى يؤدي هذا المعنى الغريب في تعقيد قد قصد إليه وتكلفه . فهو كان يريد أن يقول وفاؤكما بمساعدتي كالربع أشجاء طاسمه . فأخر الجار والمجرور عمدا ، وأخبر عن المبتدأ قبل أن يتم وصفه بهذا الجار والمجرور . ثم لماذا اصطنع كلمة الطاسم وعدل عن الكلمة الشائعة المألوفة وهي الطامس . أترأه فعل ذلك لأن القافية أعميته وهو لم يأخذ بعد في القصيدة ؟ كلا . هو أقدر على اللفظ والقافية من ذلك ، ولكنه تعمد الإغراب وتعمد

أن يشير حاجة النحويين إلى الاستطلاع والبحث ، وأن
ينبئهم بأنهم إن كانوا ربحا فقد لاقوا أعصارا ، وأنهم
سيجدونه حين يذكرون الغريب ويخوضون في حل المشكلات
النحوية واللغوية .

ثم اقرأ البيت الثاني :

وما أنا إلا عاشق كل عاشق

أعق خليليه الصفيين لأمه

فالشاعر لم يقلع بعد عن التكلف والرغبة في الإغراب ،
يعمد إلى ذلك في معناه ، ثم يعمد إليه في لفظه أيضا . فانظر
أولا إلى هذا الفصل الذي تعمده ، وما أنا إلا عاشق . ثم يقطع
الحديث ليستأنف تصوير شأن العاشق على نحو طريف في
الشعر يألفه أصحاب المنطق أكثر مما يألفه الشعراء . كل عاشق
أعق خليليه الصفيين لأمه ، وهذا النحو الملتوى من الأخبار
عن هذا العاشق قد تعمده الشاعر ، ليشير استطلاع النحويين
وينبئهم بمكانه من القدرة على تصريف الكلام . وأى صعوبة
كان يجدها الشاعر لو أراد أن يؤدي هذا المعنى على نحو
مألوف . فقال كل عاشق يسوءه أصفى أخلائه ويعقه بلومه

والزراية عليه ، ثم يقول المتنبي :

وقد يَتَزَيَّا بِالْهُوَى غَيْرُ أَهْلِهِ

وَيَسْتَصْحِبُ الْإِنْسَانَ مَنْ لَا يَلَامُهُ

وكأنه قد رحم سامعيه وقارئيه وأراد أن يريحهم من هذا الإغراب ويرفه عليهم بعض الترفية ، فألقى عليهم هذا البيت مثلين سائرين يؤديهما في أعذب لفظ وأوجزه ، وأشدّه إمعانا في الاستقامة والاعتدال حتى يدهش سامعيه من أن يكون قائل هذا البيت السهل الجزل الصحيح المستقيم ، هو قائل ذينك البيتين المعنيتين في العسر والغرابة والالتواء .

انظر بعد ذلك إلى هذين البيتين اللذين يستأنف فيهما الحديث استئنافا كأنه قد قطعه مع أنه لم يقطعه . فهو ما زال يتحدث إلى صاحبيه ، وهو يزعم لهما أنه سيقف بالأطلال وسيطيل فيها الوقوف ، وسينظر إلى الآثار وسيمعن في النظر إليها رغم بخلهما عليه بالإسعاد وتعريضهما له باللوم . ولكن انظر كيف يؤدي هذا المعنى فيعدل عن الخبر إلى الإنشاء وعن النبأ إلى الدعاء . وانظر إلى قوله : بليت بلى الأطلال ولائم بينه وبين قوله لصاحبيه : وفاؤ كما كالربع ، ثم انظر إلى

الشرط الثاني من هذا البيت ، واستحضر ما سمعت وعلمت من
عناية القدماء به وإكثارهم القول فيه ، وقل لنفسك ما قلته لك
آنفا : إن الشاعر لم يقصد إلا أن يفجأ سامعيه ويبهزهم بالإغراب
في المعاني والألفاظ :

بَلَيْتُ بِلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا
وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهُ

وقد أَرْضَى الشاعر حاجته إلى الإغراب ومفاجأة السامعين
به ، وأحس أنه قد مَلَأَ نفوسهم إعجابا به وتهيمًا له ، فصور
ذلك تصويرًا جميلًا رائعًا لا يخلو من التحدى في هذا البيت
الجميل الرائع :

كَثِيبًا تَوَقَّانِي الْعَوَازِلُ فِي الْهَوَى
كَمَا يَتَوَقَّى رَيْضَ الْخَيْلِ حَازِمُهُ

فهو إذن عاشق ، عنيف في عشقه ، محب خشن في
حبه ، لا يحفل بتقصير صاحبيه عن إعانته ، ولا باللاحهما
في لومه . وهو شديد على عواذله حتى إنهن ليمتوقينه ويمتجنبن
عذله ، ولا يدنون منه إلا حذرات مشفقات مترفقات كما

يدنو الحازم من الفرس الجوح الشموس ليدير عليه الخزام .
أتراه يصور نفسه لسيف الدولة ، ويعطيه فكرة عن أخلاق
هذا الشاعر الذي يقف الآن بين يديه مادحا ويريد أن
يكون أثيرا عنده ومقصورا عليه ؟ أتراه ينذر أصحاب سيف
الدولة هؤلاء الشعراء والأدباء وينبئهم بأنه ليس من اليسر
والسهولة بحيث ينتظرون أو يرجون ، وإنما هو فرس جامح
عنيف ؟ كلا الأمرين ممكن ، ولكن هناك شيئا محققا
لا شك فيه ، وهو أن الشاعر برغم حرصه على الاتصال
بسيف الدولة لا يلقى نفسه عليه إلقاء ، ولا يظهر التهالك
على القرب منه ، وإنما هو كما قدمت يدنو حذرا محتاطا
مشتربا لنفسه . وهذا يفسر ما رواه القدماء من أنه لم
يتصل بسيف الدولة إلا بعد أن احتاط واشترط لنفسه ما لم
يتعود الشعراء أن يشترطوه على الأمراء .

ولست أدري أحصح ما روى الرواة من هذه الشروط
أم هو متكلف منتحل ؟ ولكن الذي ليس فيه شك عندي
هو أن المتنبي أقدم على مدح سيف الدولة في شيء من العزة
لم يألفه حين كان يمدح غيره من الأمراء والرؤساء .

ثم انظر إليه كيف ينحرف عن صديقيه المقصرين في
الوفاء له ، وعن عواذله المشفقات من القرب منه إلى صاحبه
التي تعذبه وتضنيه فيتحدث إليها في لهجة يريد بها على أن
تكون لهجة غناء وحنين فلا يكاد يبلغ ذلك ، لأن في
نفسه بقية من قوة ، وفضلا من عنف ، وحاجة إلى التكلف
والإغراب :

قِي فِي تَغَرَّمِ الْأُولَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْجَتِي

بِثَانِيَةٍ وَالْمُتَلَفُ الشَّيْءُ غَارْمُهُ

أتراه يريد أن يبهز الفقهاء من أصحاب سيف الدولة
كما بهز النحاة واللغويين ؟ وإلا فما هذه القضية الفقهية
التي صورها في هذا البيت ، فزعم أن صاحبه قد أضاعت
عليه مهجته بالنظرة الأولى ، فلا بد من أن تردّها عليه بالنظرة
الثانية ، لأن القضايا المسالمة عند الفقهاء أن المتلف الشيء
غارمه .

ولكنه لا يطيل في مداعبة الفقهاء كما أطال في مخاشنة
اللغويين والأدباء ، وإنما يندفع إلى الغناء الهين اليسير
فيبلغه في غير مشقة ولا جهد ، بل يبلغه في شيء من العذوبة

والظرف في هذا البيت على أقل تقدير :

سَقَاكَ وَحَيَّانَا بِكَ اللَّهُ إِنَّمَا

عَلَى الْعِيسَى نَوْرٌ وَالْخَدُورُ كَأَيْمُهُ

واقراً هذا البيت الآخر فليس أقل من سابقه ظرفاً ،
وإن كان معناه قريباً كل القرب مألوفاً كل الإلف ، وإن
كان الشطر الثاني منه لا يخلو من تأنيق في اللفظ ما أشك
في أنه يداعب به فريقاً من أصحاب سيف الدولة :

وما حاجة الأظعانِ حولك في الدجى

إلى قمرٍ ما واجِدٌ لَكَ عَادِمَةٌ

وما أرى إلا أنه قد قصد بهذا الطباق بين الوجود والعدم
إلى مداعبة المتكلمين كما قصد بالإتلاف والغرم إلى مداعبة
الفقهاء .^{١٧} فهذه الأبيات وحدها إن صح فهمي لها وتفسيرى
لما قصد إليه المتنبي بها تصور لنا الحاشية التي كانت تصحب
سيف الدولة ، وتحضر مجلسه حين أنشده المتنبي هذه الميمية
في أنطاكية .

على أن الشاعر لم يقف عند هؤلاء الناس وحدهم من

أصحاب سيف الدولة ، وإنما أراد أن يرضى فريقا آخرين ليسوا
من أصحاب النحو واللغة ، ولا من أهل الفقه والدين ولا من رجال
الفلسفة والكلام ، وإنما هم من أهل البادية وأصحاب الحرب
والمشغوفين بالجمال والبأس معا ، والمحفظين بالسنة البدوية القديمة
في سيرتهم العملية والعقلية جميعا . فانظر إليه كيف عاد إلى
المألوف من سنة امرئ القيس والفرزدق وابن أبي ربيعة في
وصف صاحبه ، وما يدل عليها من الطيب وما يقوم دونها من
البأس والسلاح :

حَبِيبٌ كَانَ الْحُسْنَ كَانَ يُحِبُّهُ

فَأَثَرُهُ أَوْجَرَ فِي الْحُسْنِ قَاسِمُهُ

تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ سِبَائِهِ

وَتُسَبَّى لَهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرَائِمُهُ

وَيُضْحِي غُبَارُ الْخَيْلِ أَدْنَى سُتُورِهِ

وَأَخْرَجَهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمَلَا زِمُهُ

ثم يعود الشاعر إلى نفسه بعد أن فرغ من الناس
فيستأنف ما ألف من الغناء الفلسفي الذي يصوره فيما يذكر

من شدة الدهر عليه وحسن احتماله لهذه الشدة وصبره على ما يلقي من المكروه . وفي إرسال الأمثال السائرة والحكم الشائعة التي تجدد النفس راحة فيها حين تقولها وحين تسمعها .

وقف وقفة خاصة عند هذا البيت ، فلست أدري لماذا أجد فيه حلاوة مرة لا آخر لها إن جاز مثل هذا القول . وهذا البيت عندي هو خير ما في القسم الأول من القصيدة .

فَلَا يَتَّهَمُنِي الْكَاشِحُونَ فَإِنِّي

رَعَيْتُ الرَّدَى حَتَّى حَلَّتْ لِي عَلاَقُهُ

وقد فرغ المتنبي من الناس وفرغ من الأشياء ومن الزمان ، وفرغ من نفسه إن كان يستطيع أن يفرغ من نفسه وانتهى إلى سيف الدولة . فماذا قال له ؟ لا شك أنه شهد استعداد المدينة لاستقبال الأمير قبل مقدمه بزمان بعيد ، ورأى هذه الفازة أو هذا السراشق الذي نصب ليستقبل الأمير فيه وفود المرحبين به والمهنتين له بما أحرز من فوز وظفر . ولا شك في أن هذه الفازة قد أعجبت به وراقته وراعه ما صور عليها من المناظر التي تمثل الحياة

والأحياء ، وتمثل الحرب والسلم أيضا . ولا شك في أن هذه الخيمة كانت بعض الغنائم التي أخذت من الروم . فليصفها المتنبي ، وليجعل وصفها أول سبيل يسلكه إلى مدح سيف الدولة .

والخطأ كل الخطأ أن يظن قارئو هذا الوصف لما كان على الخيمة من تصاوير أن المتنبي قد ارتجل هذا الوصف ارتجالا . فليس في هذه القصيدة شيء مرتجل ، وإنما هي قصيدة مصنوعة قد هيئت للأمير قبل مقدمه . ولا شك في أن المتنبي قد اختلف إلى هذه الخيمة التي نصبت قبل مقدم الأمير ، فرأى ما كان عليها من الصور وتفكر فيه . ثم قال فيه ما قال .

والخطأ كل الخطأ أيضا أن يظن ظان أن المتنبي قد ابتكر هذا الوصف وجاء به من عند نفسه ؛ فالشعراء قد سبقوا إلى وصف الصور منذ عهد بعيد . والناس كلهم يذكرون وصف أبي نواس للكؤوس العسجدية التي صور كسرى في قرارتها وصورت في جنباتها ما تديرها القس الفوارس ، ثم ملئت بالخر المزوجة بالماء :

فَالْخَمْرِ مَارَزَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا
وَلَمَّا مَادَّارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ
وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ يَذْكُرُونَ أَيْضًا وَصْفَ الْبَحْتَرِيِّ لَمَّا كَانَ عَلَى
الْإِيوَانِ مِنْ تَصَاوِيرِ قَدْرِ بَرَعِ الْفَنِّ فِي تَصْوِيرِهَا وَإِشَاعَةِ الْحَيَاةِ
وَالنَّشَاطِ فِيهَا حَتَّى :

تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا
لَهُمْ يَنْهَمُ إِشَارَةَ خُرْسٍ
يَغْتَلِي فِيهِمْ ارْتِيَابِي حَتَّى
تَنْقَرُ رَأْسَهُمْ يَدَايَ بِلَمْسٍ

وَقَدْ أَلَمَ الْمُتَنَبِّي نَفْسَهُ فِي شَبَابِهِ بِوَصْفِ الصُّورِ الَّتِي صَوَّرَتْ
عَلَى الْخِيَامِ ، وَلَكِنَّهُ أَلَمَ بِهَذَا الْوَصْفِ إِمَامًا سَرِيعًا جِدًّا حِينَ
قَالَ فِي نُونِيَّتِهِ الَّتِي يَمْدَحُ بِهَا بَدْرَ بْنِ عِمَارٍ وَيَعْتَذِرُ فِيهَا إِلَيْهِ :

سَلَكْتُ تَمَائِيلَ الْقِبَابِ الْجَنُّ مِنْ
شَوْقٍ بِهَا فَأَدْرَنْتُ فَيْكَ الْأَعْيُنَا
وَلَسْتُ أَرْتَابُ فِي أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ اسْتَحْضَرَ وَصْفَ الْقَدَمَاءِ
لِلصُّورِ وَالتَّمَائِيلِ حِينَ وَصَفَ هَذِهِ الْخِيَمَةَ الَّتِي ضَرَبَتْ لِسَيْفِ

الدولة وانتفع بهذا الوصف في كثير من المعاني التي ألم بها ،
ولكن ذلك لم يضعف من شخصيته ولم يغض من فنه لأنه
احتفظ في هذا الوصف بروحه القوى ولفظه الجزل واستغل
عظمة سيف الدولة والخصومة القائمة بينه وبين الروم .

ومذهب المتنبي في هذا الوصف يسير لا جهد فيه ولا
عناء أو قل لا يظهر فيه الجهد ولا العناء ، وهو مذهب مأخوذ
عن القدماء أيضا ، قد سلك فيه الشاعر طريق الشعراء من
قبله ، يرى صور الرياض فيقول إنها رياض لم ينشئها السحاب ،
ويرى صور عقود الدر فيقول : إنه در لم ينشئه ثاقب ولم ينظمه
ناظم ، وهو مذهب القدماء حين كانوا يقولون إن عيون
الحسان سهام لم يرشها رأس ، وإنها مرضى ولكنها صحاح :

صَوَّبْنَ حِينَ أَرَدْنَ أَنْ يَرْمِيَنِي

تَبْلًا بَلَا رِيشٍ وَلَا بِقِدَاحٍ

وَرَمَيْنَ مِنْ خَلَالِ السُّتُورِ بِأَعْيُنٍ

مَرْضَى مُخَالِطُهَا السَّقَامُ صَحَاحٍ

فإظهار الاختلاف بين الحقائق المحكية والصور الخاكية

وإظهار التشابه الدقيق بين هذه الحقائق وهذه الصور . هذا التشابه الذى ينشأ من دقة الصنعة وبراعة الفنان هما سبيل المتنبي ومذهبه إلى إجادته الفنية فى هذا الوصف ، وظاهر أنه مذهب يسير قد كان يبهز القدماء ويخلبهم ، ولكنه إن أرضانا فهو يثير على ثغورنا ابتساما فيه كثير من الحب لهذه السذاجة والعطف على أصحابها . ثم للمتنبي مذهب آخر مأخوذ من القدماء أخذوا هو إشاعة الحياة فى صور الأحياء فهذه الوحوش التى تتحارب حينما وتتسالم حينما آخر حين تعبث الريح بالخيمة تذكر جدا بالجيوش التى كان يزجها كسرى تحت الدرفس فى شعر البحتري ، لولا أن صور البحتري كانت تستمد حياتها ونشاطها من قوة الفنان لا من تحريك الريح لجدران الإيوان كما كانت تحرك خيمة سيف الدولة ، لأن جدران الإيوان كانت أثبت من أن تهزها الريح ولأن صور الإيوان كانت أنشط من أن تحتاج إلى معونة خارجية لتخيل إليك أن الحياة شائعة فيها ، فشخصية المتنبي فى هذا الوصف لا تأتى من معناه وإنما تأتى من هذا اللفظ الضخم الذى تشيع فيه القوة والجزالة ، ثم من تصوير سيف الدولة عظيما مهيبا يذل أمامه ملك

الروم ، وتضطر الملوك إلى أن تقبل البساط بين يديه لأن أعناقها تتقاصر عن تقبيل كفه أو لثم يديه . فإذا فرغ المتنبي من وصف هذه الخيمة وتصوير عظمة الأمير وهيئته وهو يستقبل فيها الوفود ، خلاص للأمير نفسه ، فوصفه مطلقا لا تحصره خيمة ولا يحتويه مكان .

فانظر إلى هذا البيت :

لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٌ وَطَيْرٌ إِذَا رَمَى
بِهَا عَسْكَرًا لَمْ تَبْقَ إِلَّا جَاحِجُهُ

فالمرعى الذى ألم به الشاعر قديم بعيد العهد بالقدم لم يبتكره الشاعر من عند نفسه ، وإنما سبق إليه النابغة^(١)

(١) قال النابغة :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ
عَصَائِبَ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
يَصَاحِبُهُمْ حَتَّى يَغْرَنَ مَغَارِمُ
مِنَ الضَّارِيَاتِ بِالدَّمَاءِ الضَّوَارِبِ
تَرَاهُنْ خَلْفَ الْقَوْمِ خَزْرَا عِيُونُهَا
جُلُوسَ الشُّيُوخِ فِي ثِيَابِ الْمَرَانِبِ
جَوَانِحُ قَدْ أُيْقِنَ أَنَّ قَبِيلَهُ
إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ
(انظر قصيدته المشهورة : كليني لهم يا أميمة ناصب)

في مدح الغسانيين ، وسبق إليه أبو نواس ^(١) في مدح
بعض الأمراء العباسيين . ولكن شخصية المتنبي مع ذلك
ممتازة من شخصيتي هذين الشعارين وغيرهما من الذين أُلوا
بهذا المعنى مجملين أو وقفوا عنده مفصلين . ذلك أن القدماء
كانوا يزعمون أن سباع الطير قد عرفت حسن بلاء الممدوحين
في الحرب ، فهي تتبعهم لتأكل ممن يقتلون . وهذا المعنى
نفسه لم يبتكره الشعراء ، وإنما سبقت إليه البلاغة الشعبية
حين كان العرب في جاهليتهم يزعمون أن الضباع تتباصر
بالحرب لما ستنجلي عنه من جيف القتلى . وذلك قول
الشنفرى :

لَا تَدْفِنُونِي إِنْ دَفَنِي مُحَرَّمٌ

عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ

فمن تباصر الضباع بالحرب تبشرت طير الشعراء بها
أيضا . ثم عرفت الأبطال الذين يحسنون البلاء فيها فتبعهم

(١) قال أبو نواس :

تتأني الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره
(انظر قصيدته : أيها المنتاب من غفره)

ثقة بأنها ستجد من صرعاهم ما يكفل لها الغذاء .
أما المتنبي فإنه قد انتفع بهذا كله ولكنه لم يجعل طير سيف
الدولة طفيلية تتبعه لتعيش ، وإنما جعلها بعض جنوده ، فهي
تتبعه محاربة لامتطفلة . وليس هذا هو المهم ، على أنه في نفسه قيم
بل المهم أن المتنبي قد جعل للأمير جيشين جيشا في الأرض
تحمله الخيل ، وجيشا في السماء يحمله الجو . ومن قبل
سيف الدولة لم يتأمر الخلفاء والملوك والأمراء على جيوش تطير
في الجو . فالفكرة نفسها جديدة ، والصورة التي تثيرها هذه
الفكرة طريفة ، والعظمة التي يخرج بها الممدوح منهما رائعة ،
وشخصية المتنبي لا تضعف ولا تتضاءل أمام الفحول الذين
سبقوه ، ولكنه تثبت لهم وتقوى عليهم . وكذلك الأمر في
البيت الذي يأتي بعد هذا بقليل :

سَحَابٌ مِنْ الْعِيقَانِ يَرْحَفُ تَحْتَهَا
سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَّتْهَا صَوَارِمُهُ

فالعنى في هذا البيت هو نفس المعنى في البيت الذي
سبقه ، ولكن التصوير فيه يبلغ بالمتنبي أرفع ما يستطيع أن
يسمو إليه من الروعة والجمال الفني الخفيف . أترى إلى

هذه السحاب من العقبان تسعى تحتها سحاب من الجيش .
أترى إلى العدو وقد رأى هذه السحب التي يركب بعضها
بعضاً ويدفع بعضها بعضاً ، وتزدحم بها الأرض والجو معا .
ثم لا تقف براعة المتنبي عند هذا ، ولكنه يقلب الأوضاع
المألوفة في عرف الناس . فإذا السحب العليا تستسقي ما دونها
من السحب ، وقد ألف الناس أن يستسقي الأسفل الأعلى ،
فإذا الأعلى هنا يستسقي الأسفل . والصوارم هي التي
تستسقي السحب العليا بما ترقيق لها من الدماء . قل إن
المتنبي لم يبتكر أصل المعنى فلن ينازعك في ذلك أحد .
ولكن لا تنازع أنت في أنه قد ألم بهذا المعنى القديم
اليسير فاستثمره أحسن استثمار . وارتفع به إلى جوهر الشعر
واستطاع أن يروع سامعيه وقارئيه بالتعبير والتصوير جميعا .
ودع هذين البيتين واقراً معي هذين البيتين الآخرين
فسترى فيهما جمالا يأتيهما أكثره من اللفظ وأقله من
المعنى ، وسترى فيهما جزالة حلوة يذوقها الذين يحبون النحو
ويألفون ما فيه من العلل والتأويل :

فقد مَلَّ ضوءُ الصُّبحِ مِمَّا تُغَيِّرُهُ
ومَلَّ سَـوَادُ اللَّيْلِ مِمَّا تَزَاحِمُهُ
ومَلَّ القَنَا مِمَّا تَدُقُّ صُدُورُهُ
ومَلَّ حَـدِيدُ الهِنْدِ مِمَّا تُلَاطِمُهُ

فهذا الفعل الذي يتكرر أربع مرات ويضيف الملل إلى
الصباح ، وإلى الليل ، وإلى الرماح ، وإلى السيوف ، يروع
السامع ويكرهه على أن يتبع الشاعر في شيء من الدهش
والنشاط . فما تعود الناس أن يجدوا من الصباح والليل والرماح
والسيوف مللا أو سأمًا .

وأنت في غير حاجة إلى أن أنبهك إلى جزالة اللفظ
وضخامته . ولكن انظر إلى قوله :

مل ضوء الصبح مما تغيره

يريد مما تغير فيه . وإلى قوله :

مل حديد الهند مما تلاطمه

يريد مما تلاطم به . فالغاء حرف الجر ووصل الضمير بالفعل
مباشرة ، وبغير وساطة كما يقولون مذهب من مذاهب

الفصحاء من الأعراب له جمال حلو يذوقه الذين يحسنون
علل النحو ويحيدون تخريج الكلام ، وإذا لم تكذبني الذاكرة
في هذا المكان الأجني ، البعيد عن المراجع والكتب ، فقد
استحسن المبرد قول الشاعر القديم :^(١)

تَحْنُ فِتْبَدِي مَا بَهَا مِنْ صَبَابَةٍ

وَأُخْفِي الَّذِي لَوْلَا الْأَسَى لَقَضَانِي

يريد لقضى على ، فألغى الحرف ووصل الضمير .

انظر بعد ذلك إلى هذين البيتين اللذين يطغى فيهما
المتنبى على شعراء سيف الدولة الذين كانوا يمدحونه قبل أن
يعرف المتنبى طغيانا عظيما :

غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ

بَلَا وَاصِفٍ وَالشَّعْرُ تَهْذِي طَاطِمُهُ

وَكُنْتُ إِذَا يَمَمْتُ أَرْضًا بَعِيدَةً

سَرَيْتُ فَكُنْتُ السَّرَّ وَاللَّيْلُ كَاتِمُهُ

أُتْرَى إِلَيْهِ وَقَدْ أَحْسَنَ أَنَّ الشُّعْرَاءَ سَيَمْكُرُونَ بِهِ ،

(١) الكامل للمبرد ص ٢١ (طبع ليبزج)

ويكيدون له حين يضيقون بمقدمه على الأمير ، ومكانه
عنده ، فآثر أن يبدأ بالهجوم ، وبالهجوم الصريح الذى
لا كيد فيه ولا التواء ؟ فهو قد سمع بسيف الدولة وصفاته
الغر حين كان بعيدا عنه شديد البعد . ومعنى هذا أن شهرة
سيف الدولة قد طبقت الآفاق . ونظر المتنبى فلم يجد لهذه
الصفات واصفا يلائم ما هى أهل له من العظمة والجلال ،
وإنما سمع شعرا سخيفا يهذى به المتشاعرون الذين لا يحسنون
العربية ، ولا يجيدون التصرف بفصيح الكلام . فغضب
لهذه الصفات الغر التى لا تجد واصفا ، ولهذا الأمير الماجد
الذى لا يجد شاعرا يلائم مجده . فأقبل من مكان بعيد
جدا ، ولكنه أقبل مستخفيا لا يحسه أحد ، ولا يشعر به
أحد ، كأنه السر قد طوى الليل عليه ضميره طيا . ثم ظهر
فجأة بين يدي الأمير فأنشده فأرضاه وبهر من حوله ، وأحجم
الذين تعودوا أن ينطقوا بين يديه .

هو الشمس التى تخفى الكواكب ، وهو النسر الذى
يلتهم صغار الطير . والمعنى كما ترى قديم قد أكثر فيه
الفرزدق وجريرو والأخطل . ولكن الصورة التى صاغه فيها

المتنبى ساحرة باهرة من جهة ، ومحنة مثيرة للسخط من
جهة أخرى .

فهذا السر الذى يكتمه الليل جميل ، وهذا الاعتداد
بالنفس والازدراء لغيره من الشعراء خليق أن يحفظ الصدور
ويملاها ضغينة وحقدا ، وقد فعل . ولكن المتنبى أثر أن
يكون مهاجما على أن يكون مدافعا . وقد جرب موقف
الدفاع عند بدر بن عمار فلم يغن عنه شيئا ، فليجرب عند
سيف الدولة خطة الهجوم ، وقد أغنت عنه فاستطاع أن
ينعم بالحياة فى ظله تسعة أعوام .

لم يمض المتنبى فى مدح الأمير ويسلك إلى هذا المدح
مذهبا يظهر لنا يسيرا كل اليسر ، ولكنه فيما أظن كان
طريفا فى عصره كل الطرافة . فالأمير يلقب سيف الدولة ،
فما يمنع المتنبى أن يجعله سيفاً ، ويضيف إليه ما يضاف إلى
السيف حيناً ، ويرفعه عن المؤلف من صفات السيف حيناً
آخر . فالجد هو الذى سل سيف الدولة ، والخليفة هو الذى
تقلد هذا السيف ، والله هو الذى أخذ بقاءه وجعل يضرب
به الأعداء . والسيوف تقطع حيناً وتنمو حيناً آخر ، ولكن

سيف الدولة قاطع دائماً ، والسيوف تقطع الأجسام وتضرب
الهام . ولكن سيف الدولة أكبر من الهام والأجسام ،
فهو يقطع شدائد الدهر ولزبات الزمان .

واقراً هذين البيتين وانظر إلى الجمال الذي يأتي فيهما
من حسن الملاءمة والمتابعة بين الطباق والمبالغة :

تُحَارِبُهُ الأَعْدَاءُ وَهِيَ عَمِيدُهُ

وَتَدَّخِرُ الأَمْوَالَ وَهِيَ غَنَائِمُهُ

وَيَسْتَكْبِرُونَ الدَّهْرَ والدَّهْرُ دُونَهُ

وَيَسْتَغْظِمُونَ المَوْتَ والمَوْتُ خَادِمُهُ

وما أرى إلا أن المتنبي قد بهر وراع وملاً القلوب
والأسماع بهذه القصيدة الفذة . ولكن هذا شيء والوصول
إلى قلب سيف الدولة شيء آخر .

فليس سيف الدولة يكفيه أن يمدح برائع الشعر وبارع
القصيدة ، ولكنه ملك يحتاج إلى أن يشعر بأن أتباعه
وصنائعه خدم له لا يكبرون أنفسهم ولا يسرفون في المغالاة
بها كما يفعل المتنبي أو كما فعل في هذه القصيدة .

وإذا كان المتنبي قد بهر سيف الدولة فهو محتاج إلى
أن يبلغ حبه ورضاه ، وقد بلغ من ذلك ما كان يريد
فيما أرجح بالقصيدتين اللتين مدحه بهما حين هم بالرحيل
وحين أخذ فيه .

فالمتنبي في هاتين القصيدتين مخالف كل المخالفة المتنبي
الذي رأيناه في هذه الميمية . هو خادم من خدم الأمير ،
ورجل من رجال القصر قوام حياته الذلة والملق . ولست
أريد أن أطيل بتحليل هاتين القصيدتين فهما أيسر وأهون
وأوضح من أن تحتاجا إلى تحليل . ولكن اقرأ هذا الشعر
واقربه إلى ما قرأت في الميمية ، فسترى براعة المتنبي في
الكبرياء حين يريد الكبرياء ، وفي الذلة حين يحتاج إلى
أن يكون ذليلا .

لَيْتَ أَنَا إِذَا ارْتَحَلْتَ لَكَ الْخِيَةَ

لُ وَأَنَا إِذَا نَزَلْتَ الْخِيَامُ

وما رأيك في هذا الشاعر العظيم الذي يفاخر الشعراء
ويستعلي عليهم ، ويسرف في الكبرياء والخيلاء . ثم يتنى
أن يكون فرسا يحمل الأمير إذا سار أو خيمة يظل الأمير

إذا أقام . ولكن لا ينبغي أن ننسى أن المتنبي منافس
ومنافس في رضى الأمير ، وأن الذلة والملق أقرب الطرق
وأيسرها إلى بلوغ هذا الرضى .

فأنت ترى في آخر الأمر أن المدح الخالص الذى
أقبل به المتنبي على سيف الدولة ليس شيئا فذا مبتكرا معجزا
إن قسته إلى ما كان الفحول يمدحون به الخلفاء والأمراء .
ولكنه ليس مدحا ساقطا ذريا متهاكما ككثير من المدح
الذى كان يقوله المتنبي نفسه لغير سيف الدولة من الناس .
ولعله خليق أن يكون كغيره من مدح الفحول في القرن
الأول والثانى ، وهو من غير شك أرفع وأبرع وأرق مما
تعود الشعراء المعاصرون أن يعرضوه على الأمراء والرؤساء
وعلى سيف الدولة نفسه . فلا غرابة في أن يحس الأمير
أنه يسمع مدحا جديدا لم يتعود سماعه من قبل . وكانت
شهرة المتنبي قد سبقته إلى الأمير ، وهذا المتنبي نفسه قد
أقبل مادحا مجيدا للمدح ، متملقا بارعا في التملق .

فليصطنعه الأمير لنفسه وليتخذ شاعرا يستعلى به على
الملوك والأمراء .

٤

وقد أملت بسيف الدولة أحداث امتحن بها في نفر من
أقربائه وخاصته ، ولم يكن بد للمتنبى من أن يقول في ذلك
شعرا ، نهوضا بما يجب أن ينهض به شاعر القصر من العزاء
والرثاء ، ووفاء بما يجب أن يفي به الصديق للصديق من
حقوق المودة والحب والإخاء ؛ فقد ماتت أم سيف الدولة
في نفس السنة التي اتصل به المتنبى فيها ، فرثاها الشاعر
باللامية التي مطلعها :

نَعِدُ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي

وَتَقْتُلُنَا الْمُنُونُ بَلَا قِتَالِ

وفي أوائل سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة . وفي شهر صفر
بالضبط مات لسيف الدولة طفل ، هو أبو الهيجاء عبد الله بن
سيف الدولة ، فرثاه المتنبى باللامية التي مطلعها :

بِنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَا بَكَ فِي الرَّمْلِ

وَهَذَا الَّذِي يُضْنِي كَذَاكَ الَّذِي يُبْلِي

وفي هذه السنة نفسها مات ابن عم لسيف الدولة كان
عاملا له على حمص ، وهو أبو دائل تغلب بن داوود بن
حمدان ، وسنعود إلى ذكره بعد حين . فرثاه المتنبي بالدالية
التي يقول في أولها :

مَا سَدِ كَتْ عِلَّةٌ بِمَوْلُودٍ

أَكْرَمَ مِنْ تَغْلِبَ بْنِ دَاوُدَ

وفي رمضان من سنة أربعين وثلثمائة فقد سيف الدولة
خادمه وقائده التركي يمالك ، فعزاه المتنبي بالبائية التي أولها :

لَا يُحْزِنُ اللَّهَ الْأَمِيرَ فَإِنِّي

لَأُخْذُ مِنْ حَالَاتِهِ بِنَصِيبٍ

وفي رمضان من سنة أربع وأربعين وثلثمائة ماتت
أخت سيف الدولة الصغرى ، فعزاه عنها المتنبي باللامية التي
يقول فيها :

إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرِّزْيَةِ فَضْلًا

فَكُنْ الْأَفْضَلُ الْأَعَزُّ الْأَجَلَّ

ثم فارق الشاعر أميره ، واختلفت بينهما الخطوب ،

ومضت على ذلك أعوام حتى كانت سنة اثنتين وخمسين
وثلاثمائة ، فماتت أخت سيف الدولة الكبرى خولة التي
كانت تعرف بست الناس . والمتنبى حينئذ في الكوفة ،
فأنفذ إلى الأمير مريثته البائية التي أولها :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ

كِنايةً بهما عن أشرف النسب

X فقد قال المتنبى إذن لسيف الدولة مرثى ستا ، رثى فيها
أمه وابنه وأختيه وابن عمه وخادمه التركي :

وهذه القصائد أكثر ما قال المتنبى في هذا الفن من
فنون الشعر ، فقد رأينا قبل ذلك يرثى جدته ، ويرثى
بعض التنوخيين على لسان قومه . وسنراه بعد ذلك يقول
رثاء آخر ولكنه قليل ، ولكن هذه القصائد إن كانت
لا تخلو من جيد الشعر ورائعه ، فليست هي خير ما قال
المتنبى في الرثاء . ومصدر ذلك فيما يظهر أن المتنبى قال
أكثرها أداء للواجب ونهوضا بالحق ، لا استجابة للعاطفة ،
ولا إعراضا عن الضمير ، فهو قد لجأ فيها إلى فنه وعقله
أكثر مما صدر فيها عن قلبه وشعوره . ومن هنا نحس

فيها كثيرا من البرد ، فإن لم يكن برد فنحن نحس فيها
الفتور ، لا نكاد نستثنى منها إلا القصيدة التي رثى فيها خولة
ست الناس بعد أن طال فراقه للأمير ، واشتد حنينه إليه ،
وألمت به وبالأمر خطوب جعلت كل واحد منهما في حاجة
إلى صاحبه . ولعل التجارب التي امتحن بها المتنبي بعد
فراقه لسيف الدولة ، ولعل تقدم سنّه وطول تفكيره في
الحياة والأحياء . لعل هذا كله قد أثر في هذه القصيدة
الأخيرة ، فأشاع فيها حزنا أيسر ما يوصف به أنه كان
عميقا حقا .

ونحن في حاجة إلى أن نقف عند بعض هذا الشعر
وقفات قصيرة لا لشيء إلا لنتبين المذهب الفني الذي اصطنعه
المتنبي في هذا الرثاء . ولنلاحظ قبل كل شيء ظاهرتين
نجدهما في هذا الرثاء :

إحداها تفيض عليه شيئا من قوة وتشيع فيه حضا
من حرارة ، وتجعله خليقا أن يبعث الحزن ويدعو إلى الروية
والتفكير ، وهي اعتماد المتنبي في هذا الرثاء على عقله وعلى
عقله الفلسفي خاصة ، والتجاء المتنبي إلى كثير من الحكمة

الشائعة في الأمم على اختلاف البيئات والعصور ، ومهارته
في صوغ هذه الحكم صوغا قوامه الدقة والإيجاز معا . ثم
إرسالها أمثالا سائرة تصلح لتعزية الناس وأخذهم بالصبر
والإذعان في كل زمان ومكان .

والظاهرة الثانية كانت تنفع المتنبي في حياته الواقعة ،
وكانت ترضى الأمير حين كان يستمع لهذا الرثاء ، ولكنها
في حقيقة الأمر تفسد الرثاء على الشاعر إفسادا ، وتصور
قصور الشاعر وعجزه ونضوب قريحته ، وهي مدحه المستمر
للأمير ، واتخاذ الرثاء وسيلة إلى هذا المدح . فهذه الظاهرة
تلقى في روعك أن الشاعر لم يصدر في رثائه عن حزن
ولا عن ألم ، ولم يصطنع في رثائه لهجة صادقة ، وإنما أدى
واجبا لم يكن له بد من أدائه ، وكان يضيق بأداء هذا
الواجب أحيانا ، فيستعين عليه بهذا المدح الذي يتماق الأمير
ويلهيه عما يكون في رثائه من القصور أو التقصير . ونحن
ننظر قبل كل شيء في رثاء المتنبي لأم الأمير سنة سبع
وثلاثين وثلثمائة ، وما أظن إلا أنك ستوافقني على أن الشاعر
اعتمد على فنه أكثر مما اعتمد على أي شيء آخر ، وتأنق

في هذه القصيدة تأتقا خاصا ؛ لأنه كان حديث العهد بالأمير
حريصا على أن يرضيه ، ويتمكن من نفسه ، ويقهر حساده
ومنافسيه .

وأول هذه القصيدة فلسفة عامة يعتمد فيها الشاعر على
هذا اليأس الشائع الذي ألفه الناس ، حين يفكرون في قسوة
الموت وشموله ، وأنه لا محيد عنه ولا وقاء منه . وليس في
هذا الكلام شيء جديد إلا صيغته ، وهذا الروح الحزين
الشاحب الذي يترقرق فيه وذلك حيث يقول :

نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي
وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلَا قِتَالِ
وَنَزَرَتْ بَطْ السَّوَابِقَ مُقَرَّبَاتِ
وَمَا يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي
وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمَا
وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى وَصَالِ
نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبِ
نَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ

فإذا فرغ المتنبي من هذا الكلام العام الذي لاحظ له
من شخصية ولا من ابتكار تغنى نفسه ، وما ألم به من الحن
وما تتابع عليه من الخطوب ، وما تلقى به هذه الحن
والخطوب من حسن الصبر ، والاحتمال في هذين البيتين
الذين شاعا ، وامتلات بهما النفوس ، وانطلقت بهما الألسنة
حتى خرجا أو كادا يخرججان عن ملك المتنبي ، وأصبحا ملكا
أو ترجمانا عن كل من ألحت عليه الأحداث ، وتتابع
عليه الأرزاء والخطوب . وهما قوله :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى

فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ

تَكْسَرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

ومع ذلك فأصل المعنى الذي قصد إليه الشاعر شائع
مألوف لا طرافة فيه ولا ابتكار ، فكل الناس يحس إذا
كثرت الأحداث عليه أنه قد استفاد من ذلك تجربة
وصبرا ، ومن على احتمال الآلام والأرزاء ، وإنما الطرافة في
هذه الصورة التي عرض المتنبي فيها هذا المعنى حين جعل

الأرزاء التي ألحت عليه نبالا قد ثبتت في قلبه ودارت حوله حتى أصبحت له غشاء ووقاء ، وحتى أصبح قلبه بئامن من أن تبلغه النبال الطارئة إذا رمى بها ، لأنه في درع من النبال الأولى . فالأرزاء تقل الأرزاء ، والنصال تتكسر على النصال .

ولست أدري لماذا لا يبلغ هذا التصوير من نفسى شيئا ، ولا أرى فيه إلا براعة شاعر ، ومهارة فنان قد واثقه طبيعته ، واستجابت له ألفاظه . فجاء بصورة ربما تروق ، ولكنها لا تبلغ القلب ولا تؤثر في النفس ، وربما كانت هذه الألفاظ التي تذكر بالحرب وتصورها قد أشاعت في هذين البيتين من القوة والفتوة والجلد ، ما حببهما إلى الناس حين تلح عليهم النوائب وتأخذهم الأرزاء من كل مكان ، وحين يحتاجون إلى الشجاعة والتحدى ، وتكلف الرجولة ، والثبات للخطوب . على أن المتنبي لم يكد يحاول إتمام هذا المعنى حتى قصر به لفظه ، فتورط في شيء من الاضطراب يتقل احتماله ويشغل التمثل به أيضا ، وذلك قوله :

وَهَانَ فَمَا أُبَالِي بِالرَّزَايَا

لِأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِي

وقد كان نفس المتنبي في هذه الغناء قصيرا فلم يستطع
أن يتعمق النفوس ولا أن يثير أشجانها .

ثم انظر إليه حين وصل إلى الفقيده التي أراد أن يرثيها
كيف ضعف وتهالك وأدركه الخور والفتور ، فلم يصنع شيئا
ولم يأت بجديد ، وذلك قوله :

وهذا أَوَّلُ النَّاعِينَ طُرًّا

لِأَوَّلِ مَيِّتَةٍ فِي ذَا الْجَلَالِ

كَأَنَّ الْمَوْتَ لَمْ يَفْجَعْ بِنَفْسٍ

وَلَمْ يَخْطُرْ لِمَخْلُوقٍ بِيَالٍ

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقِنَا حُنُوطٌ

عَلَى الْوَجْهِ الْمُسْكَنِ بِالْجَمَالِ

فالبیت الأول من هذه الأبيات على يسر معناه وسهولته ،
وقرب مأخذه ، وابتداله بين الناس جميعا ، غامض لا يخلو
من سخف ، والبيت الثاني منها محتمل على ابتداله . فأما

البيت الثالث فقد أحس القدماء سماجته ، وما أظن المحدثين
أقل لهذه السماجة إحساسا ، وهي سماجة تأتي من اللفظ ، وتأتي
من المعنى جميعا ، ولعلها كذلك تأتي من العجز عن إقامة
الوزن والاضطرار إلى لفظ خالقنا وصفا لله لا لينزهه عما
لا يليق به ، ولا ليبسط سلطانه على ما قد يشك الناس في
أن سلطانه شامل له مبسوط عليه ، بل ليقيم وزن البيت
ليس غير . ثم انظر إلى قوله :

فَإِنَّ لَهُ بَيْطَنَ الْأَرْضِ شَخْصًا

جَدِيدًا ذِكْرُنَاهُ وَهُوَ بِالِي

فأنت واجد فيه سماجة لفظية في قوله ذكرناه . فهذا
الكلام إن أقره النحو لا يقبله الشعر . وأنت واجد كذلك
سماجة معنوية في هذا الطباق بين الجديد والبالى . فما كان
ينبغي لشاعر يعزى الأمير عن أمه أن يتعجل ذكر البلى ،
ولا أن يلم به ، وحسبه من فقد الأمير أمه داعيا إلى الحزن
اللاذع والألم الممض ، والشاعر يعزى ، فما يحسن به أن يذكر
البلى والانحلال ، وما إلى ذلك من الأعراض التي تلم بأجسام
الموتى ، والتي لا يجب الأحياء أن يتمثلوها .

ولست أطيل التعليق على ما في هذه القصيدة من الرثاء .
فكله فاطر أو قريب من الفتور ، ولكن انظر إلى هذا
البيت :

وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مَنْ وَجَدْنَا

قُبَيْلَ الْفَقْدِ مَفْقُودَ الْمِثَالِ

فما رأيك في هذه الغافاة ، وفي هذه القفوفة ، وفي هذه
الدأداة . ثم ما رأيك في هذا الجهد العنيف الذي يتكلفه
الشاعر ويفرض علينا أن نتكلفه ، ليؤدي هو ونفهم نحن معنى
مبتذلا لا خطر له ولا غناء فيه .

فالشاعر لا يزيد على أن يقول إن أم الأمير لم يكن
لها نظير في حياتها ، ففقدتها من أجل ذلك أجمع الفقد
وأشدّه أذى . والمعنى أيسر كما ترى من أن يتكلف لفهمه
وأدائه هذا العناء .

على أن المتنبي يثب من هذا البيت السخيف إلى
هذين البيتين اللذين يروع معناهما وإن أدرك لفظهما شيء
من التقصير . وهما قوله :

يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَيَمْشِي
أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي
وَكَمْ عَيْنٍ مُقَبَّلَةٍ النَّوَاحِي
كَحِيلٍ بِالْجَنَادِلِ وَالرِّمَالِ

وما أراني في حاجة إلى أن أنبهك إلى أن هذين البيتين
قد أثرا في التشاؤم العلائقي وما نشأ عنه من فلسفة تأثيرا
بعيدا عميقا . ولكن أي فرق في الأداء ، فاقراً هذين
البيتين ، ثم اقرأ دالية أبي العلاء . وانظر كيف استطاع
شاعر المعرفة أن يستغل هذا المعنى ويصوره في أروع الشعر :

صاح هَذِي قُبُورُنَا تَمَلُّ الرَّحَى
بَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
خَفَّفِ الْوُطْأَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْـ
أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ
وَقَبِيحُ بِنَا وَإِنْ قَدُمَ الْعَهْدُ
دُ هَوَانُ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ

وهل أنا في حاجة إلى أن أقف بك عند هذين البيتين

الذين طارت شهرتهما في الآفاق . وهما قوله في آخر القصيدة :

رَأَيْتُكَ فِي الَّذِينَ أَرَى مُلُوكًا

كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالٍ

فَإِنَّ تَفَقُّ الْأَنَامِ وَأَنْتَ مِنْهُمْ

فَإِنَّ الْمُسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

وفي البيت الأول عندي تعريض بأصحاب الملك في
الفسطاط وبغداد . والبيت الثاني ليس جديدا ، وإنما سبق
المتنبي نفسه إليه قبل أن يتصل بسيف الدولة ، فلما اتصل
به نزل له عنه ونقله إليه ، وذلك قوله :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ

وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

والمتنبي على كل حال حر في أن يسرق نفسه ويكرر

معناه .

وليس رثاء المتنبي لابن سيف الدولة خيرا من رثائه

لأمه ، وإنما هو كلام متكاف يظهر فيه الجهد ، وتبدو فيه
السماجة بين حين وحين ، وتحس وأنت تقرؤه أن الشاعر عيال

على الذين سبقوه من الشعراء ، وعلى أبي تمام خاصة . ولن
أقف بك من هذا الرثاء لذلك الطفل إلا على أربعة أبيات
في اثنين منها عاد المتنبي إلى ذوقه المريض ، فذكر الأب
بما سيجيب ابنه من البلى والانهلال ، وذلك قوله :

بِنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَا بَكَ فِي الرَّمْلِ

وهذا الذي يُضْني كذاك الذي يُبلي

وقوله ملحا في هذا المعنى :

أَيْفَطِمُهُ التَّوْرَابُ قَبْلَ فِطَامِهِ

وَيَأْكُلُهُ قَبْلَ الْبُلُوغِ إِلَى الْأَكْلِ

وأما البيتان الآخران ، فقد وثب فيهما إلى معنى فلسفي
رائع فتح به لأبي العلاء بابا من الشعر ، أتى فيه بالأعاجيب .
وأكبر الظن أن المتنبي قد ظفر بهذا المعنى في بعض قراءته
الفلسفية . وذلك حيث يقول :

إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ

تَيَقَّنْتَ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرَبٌ مِنَ الْقَتْلِ

وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤَمَّلَ عِنْدَهُ

حَيَاةً وَأَنْ يُشْتَقَ فِيهِ إِلَى النِّسْلِ

ونمر مسرعين برثاء المتنبي لخادم سيف الدولة وقائده
التركي ، فليس فيه ما يحتاج إلى الوقوف عنده ، لولا أن
المتنبي يتركنا نشعر بأنه يرثي هذا التركي على كره منه .
فهو مضطر إلى إرضاء الأمير ، ولو خلى بينه وبين حريته
لأعرض عن هذا الرثاء .

فانظر إليه كيف يقول :

لَأَبْقَى يَمَاكُ فِي حَشَايَ صَبَابَةً

إِلَى كُلِّ تُرْكِيٍّ النِّجَارِ جَلِيبِ

وَمَا كُلُّ وَجْهِ أَبْيَضٍ بِمُبَارَكٍ

وَلَا كُلُّ جَفْنٍ ضَيِّقٍ بِنَجِيبِ

فهذا الخادم التركي فذ بين الترك . ومع ذلك خليق
ألا يجزع الأمير عليه لأنه سيجد عوضا منه في العرب
النزارية .

وإِنَّ الَّذِي أُمَسَّتْ نَزَارُ عَمِيدَهُ

غَنِيٌّ عَنِ اسْتِعْبَادِهِ لَغَرِيبِ

ومع ذلك فما أريد أن أدع هذه القصيدة دون أن

أثبت هذين البيتين اللذين فتح بهما المتنبي أيضا بابا من
أبواب الفلسفة المحزونة المتشائمة لشعر أبي العلاء :

سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا

مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جَيْئَةٍ وَذُهُوبِ

تَمَلَّكَهَا الْآتِي تَمَلَّكَ سَالِبِ

وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلِيبِ

ولما رثى المتنبي أخت سيف الدولة الصغرى ، عزاه

ببقاء أخته الكبرى فقال :

قَاسَمْتُكَ الْمَنُونُ شَخَصِينَ جَوْرًا

جَعَلَ الْقِسْمُ نَفْسَهُ فِيهِ عَدْلًا

فَإِذَا قِيسَتَ مَا أَخَذْنَ بِمَا أَعْزَمُ

لَدَرْنَ سَرَّيَ عَنِ الْفُؤَادِ وَسَلَّى

وَتَبَيَّنَتْ أَنَّ حَظَّكَ أَوْفَى

وَتَبَيَّنَتْ أَنَّ جَدَّكَ أَعْلَى

وسرى أنه ذكر هذا المعنى واستدرك رأيه فيه حين

رثى أخته الكبرى سنة اثنتين وخمسين ، ولكن لاندع

هذه القصيدة دون أن نلاحظ أنها من أجزل ما قال المتنبي
لسيف الدولة من الرثاء ، ودون أن نرى هذه الأبيات التي
تصور أحسن تصوير علم المتنبي بطبائع الناس ، وحرصهم
على الحياة ، وتفتح لأبي العلاء بابا من أبواب الفلسفة
والتفكير . وذلك قوله :

وَلَدَيْدُ الْحَيَاةِ أَنْفَسُ فِي الْمَفْ

الْعَيْشِ

سِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأَحْلَى

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفٍّ فَمَا مَلَّ

لَ حَيَاةً وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلًّا

آلَةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ

فَإِذَا وَلَّىا عَنِ الْمَرْءِ وَلَّى

أَبْدًا تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُّ الدُّنْ

يَا فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُحْلًا

فَكَفَتْ كَوْنُ فَرْحَةٍ تُورِثُ الْغَمَّ

مَ وَخِلٍ يُغَادِرُ الْوَجْدَ خِلًا

وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ لَا تَحْ

فَظُ عَهْدًا وَلَا تُتَمِّمُ وَصْلًا

كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا
وَبَفَكَ الْيَدَيْنِ عَنْهَا تُخَلَّى
شِيمُ الْغَانِيَاتِ فِيهَا فَمَا أَدَّ

رَى لَذَا أَنْتَ اسْمَهَا النَّاسُ أَمْ لَا
وليس من شك في أن أجمل ما قال المتنبي من الرثاء
لسيف الدولة ، إنما هي القصيدة الأخيرة التي رثى بها أخته
خولة . ومصدر ذلك كما قدمنا ما تصوره هذه القصيدة من
الحب الذي امتحنه الدهر فثبت للامتحان ، ومن هذا
الحنين المتصل بين الصديقين . وما أرى أن هذه القصيدة
تدل على صلة قريبة أو بعيدة ، أو على شبه صلة قريبة
أو بعيدة بين المتنبي وهذه الفقيدة . وكل ما يمكن أن يفهم
منها أن الشاعر يتحدث بأن هذه الفقيدة برته وأحسنه إليه
عن بعد ، كما كانت تحسن إلى غيره من القصاد وأهل الأدب ،
وقد يكون هذا حقا ، وقد يكون كلام شاعر . والفرق عظيم
على كل حال بينه وبين رأى من رأى أن قد كان بين
الشاعر وبينها حب أو ما يشبه الحب^(١)

(١) انظر : المتفني : لمحمود افندي شاكر (المقتطف ج ١ مجلد ٨٨

وأول هذه القصيدة شعر مألوف تألق فيه الشاعر ،
وقصد به إلى المدح أكثر مما قصد به إلى الرثاء . وذلك
قوله :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ
كِذَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ
أَجَلٌ قَدَرَكِ أَنْ تُسَمِّيَ مُوَبَّنَةً

وَمَنْ يَصِفُكَ فَقَدْ سَمَّاكَ لِلْعَرَبِ

وبيتان آخران قد أحسن الشاعر فيهما الملاءمة بين
مدح الأحياء ورثاء الموتي كل الإحسان . وهما قوله :

غَدَرْتُ يَا مَوْتَ كَمْ أَفْنَيْتَ مِنْ عَدَدٍ
بِمَنْ أَصَبْتَ وَكَمْ أَسَكَّتَ مِنْ لَجَبٍ
وَكَمْ صَحَبْتَ أَخَاهَا فِي مُنْـأَزَلَةٍ

وَكَمْ سَأَلْتَ فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ تَخْبِ

فرائع حقا لوم الموت على هذا الغدر القبيح الذي
تورط فيه حين خان الصديق وعق الحسن إليه . فكم حب
الموت سيف الدولة في الحروب ؟ وكم جاد سيف الدولة

على الموت بما كان يريد من نفوس ، فكان الحق عليه
ألا يخون صديقه هذا الجواد الوفي الذي لم يبخل عليه بنفس
ولم يخيب له أملا .

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين أودعهما الشاعر كل
ما كان قلبه يستطيع أن يحتمل من حزن ودهش وجزع ،
فامتلا روعة وجمالا ، حتى سارا مسير الأمثال في حياة المتنبي
نفسه إن صح ما يقول الرواة :

طوى الجزيرةَ حتّى جاءني خبرٌ

فزعتُ فيه بآمالى إلى الكذب

حتّى إذا لم يدع لي صدقهُ أملاً

شرقتُ بالدمع حتّى كادَ يشرقُ بي

ونحن نفهم أن يشرق المتنبي بالدمع ، ونعجز عن أن
نفهم كيف يشرق الدمع بالمتنبي ولكنها نقطة المصـدور ،
وصيحة الحزون تنطقه بغير الصواب أحيانا .

وهل ترى أروع في تصوير العطف على الصديق
والرفق به والحنين إليه من قوله :

أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيَتْ
فَكَيْفَ لَيْلُ فَتَى الْفَتِيَانِ فِي حَلَبِ

ثم انظر كيف يدفع عن نفسه سوء الظن به ، ويؤكد
اشتراكه في الحزن واللوعة ، وسفك الدمع بأرق لفظ وأعذب
وأبرعه في تصوير الألم والوفاء :

يَظُنُّ أَنَّ فَوَادِي غَيْرُ مُلْتَهَبٍ
وَأَنَّ دَمْعَ جُفُونِي غَيْرُ مُنْسَكَبِ
بَلَى وَحُرْمَةٍ مَنِ كَانَتْ مُرَاعِيَةً
لِحُرْمَةِ الْمَجْدِ وَالْقَصَادِ وَالْأَدَبِ
وَمَنْ مَضَتْ غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلَاثَتُهَا
وَإِنْ مَضَتْ يَدُهَا مَوْرُوثَةُ النَّشَبِ

ويعجبني من وصفه للفقيد قوله :

وَإِنْ تَكُنْ خُلِقْتَ أَنْتَى لَقَدْ خُلِقْتَ
كَرِيمَةً غَيْرَ أَنْتَى الْعَقْلِ وَالْحَسَبِ

وهو عندي خير من قوله في أم سيف الدولة :

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا
لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وَمَا التَّأْنِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ
وَلَا التَّذْكِيرُ فَضْلٌ لِلْهَلَالِ

ففي هذين البيتين تكاف وتأنق يخرجان التفكير عن
طوره في وقت ينبغي أن تسترسل فيه النفس مع الحزن ،
وإلا تشغل عنه بوضع الدعاوى وإقامة الأدلة عليها .

وقد يعجب الناس إعجابا شديدا بهذين البيتين ، ولكني
أراهما كلاما من كلام الشعراء ، ولعل مصدر الإعجاب بهما
جمال اللفظ ليس غير . وهما قوله :

فَلَيْتَ طَالِعَةَ الشَّمْسِينَ غَائِبَةً

وَلَيْتَ غَائِبَةَ الشَّمْسِينَ لَمْ تَغِبْ

وَلَيْتَ عَيْنَ الَّتِي آبَ النَّهَارُ بِهَا

فِدَاءَ عَيْنِ الَّتِي زَالَتْ وَلَمْ تَوْبْ

ثم ذكر المتنبي عزاءه لسيف الدولة عن أخته الصغرى
ببقاء أخته الكبرى منذ ثمان سنين ، فاستدرك رأيه في
هذه التعزية ، فقال :

قد كان قاسمك الشخصين دهرهما
 فعاش دُرُّها المَفْدِي بالذهب
 وعاد في طلب المَترُوك تاركه
 إنا لنَغفلُ والأيامُ في الطلبِ
 ما كان أقصرَ وقتا كان بينهما
 كأنه الوقتُ بينَ الورْدِ والقربِ

ثم ينتهي المتنبي بهذه القصيدة إلى فلسفة مظلمة حزينة
 أقل ما يقال فيها أنها تصور شكه في خلود النفس وانحرافه
 بهذا الشك عن طريق المسلمين ، وإحساسه التعب من هذا
 الشك والارتياب ، وتفتح بابا فلسفيا آخر لشعر أبي العلاء .
 وأحب أن تلاحظ أن المتنبي يصطنع في هذه الأبيات
 لغة النظار وأصحاب الكلام أكثر مما يصطنع لغة الشعراء .
 وسبق له أبو العلاء في هذا النحو من التعبير ، كما يذهب
 مذهبه في هذا النحو من التفكير .

وأحب أن ألاحظ آخر الأمر أن البيت الذي يحتم
 المتنبي به قصيدته صورة رائعة مظلمة لليأس الفلسفي المهلك

الذي يؤذن بالشيخوخة وما يتبعها من العجز والإعياء ، وهذا كله حيث يقول :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ

إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفِ فِي الشَّجَبِ

فَقِيلَ تَخَلَّصْ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً

وَقِيلَ تَشْرِكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعُطْبِ

وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهِجَّتِهِ

أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالتَّعَبِ

فأنت ترى من درس هذا الرثاء كله أن المتنبي لم يبتكر

في هذا الفن شيئاً عند سيف الدولة ، ولعله انتهى بين حين

وحين إلى معنى غريب أو فكرة قيمة ، ولكن رثاءه على

كل حال عادي دون المتوسط ، وخير ما فيه هذه الإلمامات

القصيرة ببعض الآراء الفلسفية ، التي كانت بذورا صالحة

لفلسفة أبي العلاء .

وقال المتنبي لسيف الدولة قصائد خمسا ، يصف فيها
ما كان من اضطراب البادية عليه ، وما كان من رده
هذه البادية إلى الهدوء والنظام بالقوة حتى تدعن له ، ثم
بالغفو والحلم حتى تأمن له القلوب وتخلص في حبه النفوس .
وقد عرضنا لواحدة من هذه القصائد الخمس فيما مضى
من هذا الحديث ، وهي الميمية التي مدحه بها حين كانا
شابين في الثامنة عشرة من عمرها ولم ينشده إياها ، وذلك
حين أوقع سيف الدولة بعمر بن حابس وبني ضبة .
وأولها .

ذِكْرُ الصِّبَا وَمَرَاتِعِ الْأَرَامِ

جَلَبْتُ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي

ولسنا في حاجة إلى أن نعيد القول في هذه القصيدة ،
ولم يكذب متصل المتنبي بسيف الدولة حتى خرجت جماعة من
القرامطة في السماوة ، فأغاروا على حمص ، وأخذوا عامل

سيف الدولة عليها ، وهو ابن عمه أبو وائل تغلب بن داود
ابن حمدان ، وأبوا أن يردوه إلا أن يأخذوا من أخيه فداء
عظيما ، فأطعموا في الفداء كسبا للوقت ، ونهض إليهم
سيف الدولة فأوقع بهم ، واستنقذ منهم ابن عمه الأسير ،
ولكنه استنقذه جريحا ، فلم يلبث أن مات ، ورثاه المتنبي
كما علمت .

وقد قال المتنبي في هذه الواقعة لاميته التي أولها :

إِلَامَ طَمَاعِيَّةُ الْعَاذِلِ

وَلَا رَأَى فِي الْحُبِّ لِلْعَاقِلِ

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة أحدث بنو كلاب
حدثا وارتحلوا ، فلحقهم سيف الدولة وردهم إلى الطاعة ،
ثم شملهم بعفوه . فقال المتنبي في ذلك بأئيته التي أولها :

بَغَيْرِكَ رَاعِيَا عَيْتَ الذَّنَابِ

وَبَغَيْرِكَ صَارِمًا ثَلَمَ الضَّرَابِ

وفي سنة أربع وأربعين وثلثمائة في أغلب الظن تجمعت
قبائل من قيس وثارت على ملك سيف الدولة ، فنهض لها
الأمير ، وتتبعها حتى لحقها عند تدمر ، فصنع بها صنيعه

بكلام ؛ ولم يشهد المتنبي هذه الواقعة ، ولكنه قال فيها قصيدتين . أولاهما القافية التي أولها :

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقِ

مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجَرَّى السَّوَابِقِ

وكان هذه القصيدة لم تشف نفس سيف الدولة فوصف
القصة لشاعره ، وتقدم إليه أن يستأنف القول فيها فقال
الرائية التي أولها :

طَوَالَ قَنَا تَطَاعِنَهَا قِصَارُ

وَقَطْرُكَ فِي نَدَى وَوَعَى بِحَارُ

X وأيسر ما يستخلص من هذه القصائد الأربع أن الحياة
الداخلية في ملك سيف الدولة لم تكن كلها أمنا ولا هدوءا
وإنما كانت تضطرب وتفسد من حين إلى حين . وليس
من شك في أن أهل البادية قد أحدثوا أحداثا أخرى لم
يصفها المتنبي ؛ لأنها لم تكن ذات خطر ، ولأن سيف الدولة
لم ينهض بنفسه لقمعها . ومعنى هذا كله أن ما كان سيف
الدولة يلقاه من المشقة ويحتمله من الجهد ، ويظهره من حسن
البلاء في جهاد الروم لم يكن ليرد عنه كيد الذين كانوا

يكيّدون له من وراء ظهره في الحاضرة والبادية جميعا ،
والذين يدرسون تاريخ هذا العصر درسا مفصلا دقيقا يعلمون
أن أثره الملوك والأمراء وتنافسهم في السيادة والقوة ، قد
تجاوزا في ذلك الوقت كل حد معقول حتى تغلبا أو كادا
يتغلبان على الشعور الإسلامي الخالص ، فضلا عن اجتماع
الرأى على مذهب بعينه من المذهب الإسلامية .

فقد كان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يعين الروم
على خصمه سرا أو جهرا برغم أنه كخصمه مسلم ، وأن الروم
عدو له ولهذا الخصم ، وكان من هؤلاء الملوك من لا يكره
أن يعين القرامطة على خصمه سرا أو جهرا برغم أنه متفق
مع خصمه في بعض النظام القرمطي والفساد القرمطي في
السياسة والدين جميعا .

ومن هذا كله نفهم المذهب الفنى الذى قصد إليه المتنبى
في هذه القصائد الأربع ، فهو من جهة يعيب الثائرين على
الأمير ، ويظهر ألمه لتمردهم عليه ، ومحاولتهم بهذا الترد أن
يصرفوه عن جهاد الروم . وهو من جهة أخرى يمدح الأمير
بالبأس والحزم اللذين يصطنعهما في تأديب هؤلاء الثائرين ،

وردهم إلى الطاعة وتوقير السلطان والنظام . ثم يمدحه بالحلم
والعفو اللذين يصطنعهما لتألف القلوب والاحتفاظ بهؤلاء
العرب الذين هم قوته على عدوه المنافسين له من المسلمين
ومادته في حرب عدوه المخاضمين له من الروم .
ونحن نقف وقفة قصيرة عند لاميته التي قالها في ثورة
القرامطة بعامل الأمير في حمص لنرى كيف تحول المتنبي عن
مذهبه الذي كان يراه في الشباب ، وأخذ يذم الآن ما كان
يحمده أمس ، ويحرض الأمير على قوم لم يزيدوا على أن
ساروا سيرته التي دفعته إلى السجن ، ولم يكذ يتجاوز العشرين
من عمره . وأنت إذا قرأت هذه القصيدة معجب بما وفق
إليه المتنبي فيها من البراعة الأدبية والسياسية معا . فهو
في القسم الأول من هذه القصيدة ناسب متكاف على
عهد في النسيب ، ولكنه تكلف خفي جدا نكاد نحسه
في المعنى ، ولا نحسه في اللفظ بحال من الأحوال . وغزله في
هذا القسم حلوا حقا يصلح للغناء ، بل هو غناء خالص ليس
فيه شك . فإذا فرغ من هذا الغزل الرقيق الجميل خلص
إلى أبي وائل أسير القرامطة من أهل بادية السماوة ، وتغيرت
(م ٧ — ج ٢)

لهجته ؛ فإذا هو شاعر بدوى خالص تجدد في شعره جزالة
اللفظ البدوى دون أن تلقى غلظة أو خشونة أو شططا .
وأنت لا تجد هذه الجزالة في اللفظ وحده ، ولكنك تجدها
في المعنى أيضا . فالشاعر يصف الخيل ومسيرها في طلب
العدو وما قطعت إليه من طريق ، ثم يصف إيقاعها بالعدو
وظهورها عليه ، وانهزام العدو أمامها ، ثم يهزأ بهذا العدو
في لباقة ورشاقة تجمعان خفة الحاضرة إلى رصانة البادية .
وقد اصطنع الشاعر هذا الوزن السريع المتحدر ، وزن
المقارب الذى يلائم اندفاع الخيل وإسراعها في طلب العدو ،
وما يكون بينها وبينه من كرفر ، ومن إقدام وإحجام .
ويلائم كذلك إسراع الأمير إلى نجدة ابن عمه واستنقاذه
من يد العدو .

وكم كنت أحب أن أقف عند ما فى هذه القصيدة
من جمال الغناء فى أولها ، ومن جمال الوصف فى سائرها ،
ولكن هذا يطول . فلنقف عند بعض أبياتها لنرى ما أشرت
إليه من انحراف المتنبي فى سهولة عن رأيه القديم واستهزائه
بالذين يرون ما كان يرى ويفعلون ما هم أن يفعل ، ثم

رجوعه بعد هذا كله إلى شيء من الحسرة والحزن لما يصيب
أصحاب الهم البعيد من إخفاق قبل أن يبلغوا ما هموا به .
فانظر إلى قوله :

فَلَقَيْنِ كُلَّ رُدَيْنِيَّةٍ

وَمَصْـبُوحَةٍ لَبَنَ الشَّائِلِ

وَجَيْشٍ إِمَامٍ عَلَى نَاقَةٍ

صَحِيحِ الْإِمَامَةِ فِي الْبَاطِلِ

وانظر إلى قوله :

خُذُوا مَا آتَاكُمْ بِهِ وَاعْذِرُوا

فَإِنَّ الْغَنِيمَةَ فِي الْعَاجِلِ

وَإِنْ كَانَ أَعْجَبَكُمْ عَامُكُمْ

فَعُودُوا إِلَى حِمَصٍ فِي قَابِلِ

فَإِنَّ الْحُسَامَ الْخَضِيبَ الَّذِي

قَتَلْتُمْ بِهِ فِي يَدِ الْقَاتِلِ

ثم يعود إلى الاستهزاء بزعيم هؤلاء القرامطة فيقول :

وَإِنِّي لَا عَجَبُ مِنْ أَمَلٍ

قِتَالًا بِكُمْ عَلَى بَازِلٍ

أَقَالَ لَهُ اللَّهُ لَا تَلْقَهُمْ

بِمَاضٍ عَلَى فَرَسٍ حَائِلٍ

إِذَا مَا ضَرَبْتَ بِهِ هَامَةً

بَرَاهَا وَغَمَّاكَ فِي الْكَاهِلِ

وانظر إلى هذين البيتين الآتين ، فما أشك في أن

المتنبى يذكر فيهما نفسه وأشباهه من المغامرين .

وَلَيْسَ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ

دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ

يَشْمَرُ لِلْجِّ عَنْ سَاقِهِ

وَيَغْمُرُهُ الْمَوْجُ فِي السَّاحِلِ

وانظر إلى هذا البيت فإنه عندي تعريض ، بل تصریح

باتهام بغداد بالإعانة على سيف الدولة ، وما أستبعد أن

تكون السياسة البغدادية هي التي أغرت هؤلاء القرامطة

بالشام ليفسدوا فيها الأمر على الحمدانيين والإخشيديين معا ،

كما ستفعل بعد ذلك لتفسد الأمر على الفاطميين . ولكن
المتنبى حريص حذر في هذا التعريض أو التصريح ، وما أرى
إلا أنه يستمد حرصه وحذره من سيف الدولة نفسه .

وانظر إليه كيف يعزى الأمير في آخر القصيدة عن
خيانة الخائنين ، وغدر الغادرين ، وكيد الكائدين له من
أهل العراق :

فَهَنَّاكَ النَّصْرَ مُعْطِيكَهُ

وَأَرْضَاهُ سَعِيكَ فِي الْأَجَلِ

فَذِي الدَّارِ أَخَوْنُ مِنْ مُومِسٍ

وَأَخْدَعُ مِنْ كِفَّةِ الْحَابِلِ

تَفَانِي الرَّجَالُ عَلَى حُبِّهَا

وَمَا يَحْضُلُونَ عَلَى طَائِلِ

وفي هذين البيتين الأخيرين بذرة من بذور الفلسفة
العلائية . وهذه القصيدة عندي من أجود شعر المتنبى وهي
من القصائد النادرة التي تحلو فيها روح الشاعر ، ويخف
ظله على القارئین والسامعين . وما أرتاب في إنها ضمنت له

حب سيف الدولة لأنه وجد فيها جمال الفن ، وقوة الوصف
وذكاء القلب ، واللباقة السياسية التي تمكنه من أن يغيظ
الخصوم دون أن يضطر إلى الحرج .

وليست البائية التي قالها المتنبي لسيف الدولة حين أدب
الكلابيين بأقل جودة وروعة ورشاقة ولباقة من هذه اللامية ،
فقد وفق فيها المتنبي أحسن التوفيق إلى الملاءمة بين جزالة
اللفظ وسهولته ، وبين دقة المعنى وبراعته ، وأحسن اختيار الوزن
فعمد الى الوافر وهو كما تعلم يسير سهل سريع لا يكاد يتأتى
فيه الوقوف ، وليس أقل من المتقارب ملائمة للسير السريع
اليسير في الفضاء الواسع السهل الذي لا تقوم فيه الجبال
ولا تنبت فيه العقبات ، ولا يريد من المغير إلا أن يجد في
الطلب ويخلي الأعنة للخيل ، فإذا انتهى إلى المطلوبين أخذهم
بهجوم لا عسر فيه من طبيعة الأرض ، ولا مشقة فيه تحتاج
إلى أناة أو مهل ، وإنما هو الانقضاض على العدو كما تنقض
الصاعقة ، والاندفاع إليه كما يندفع السيل ، ثم الظفر به
كأن لم تكن حرب ولا قتال .

وقد أعرض المتنبي في هذه القصيدة عن الغزل والغناء ،

لأن نشاط الحرب في هذه الموقعة البدوية الخالصة كان قد ملأ قلبه من جهة ، ولأن هذه القصيدة الحماسية غناء كلها من جهة أخرى . فالشاعر يصف بأس الأمير وسطوته وإسراعه إلى قمع الثورة وتأديب الجناة ، ويصف إمعان التأثيرين في الهرب وإمعان السلطان في الطلب ، وهو في هذا كله يصطنع لغة الحماسة والفخر ، كما تعود القدماء من شعراء البادية أن يصطنعوها ، لولا أن في هذه اللغة روحا عذبا سهلا يدينها من الحضارة ولا ينأى بها مع ذلك من البداوة ، فإذا ظفر الأمير بهؤلاء الثائرين فأسر الرجال وسبى النساء وأتاحت له القدرة أن يبطش بالأسرى والسبايا عاد بالعفو على هؤلاء البائسين فرد إليهم الحرية والحياة ، وعاد بالرحمة والكرامة على هؤلاء البائسات فردهن إلى أوليائهن لم يمسهن أذى ، ولم يلحق بهن السباء مكروها ، فهن يعدن إلى أوليائهن حرائر قد ظفرن من كرم الأمير بالزينة والنعيم والطيب ، وأى عار في أن يقعن في أيدي الأمير ، وهن إنما يخرجن من يد ولي كريم ليقعن في يد ولي كريم ، لهن الأمن والحصانة عند هذا كما كان لهن الأمن والحصانة عند أولئك .

والمتمني يؤدى هذه المعانى كلها فى لفظ رشيق ليس فيه
التصريح المؤدى ولا التعريض المريب ، وإنما هو الحديث
يملؤه الصفو والطهر والبراءة من كل ما يؤذى النفوس ، ثم
يصل المتمني إلى الاستعطاف ، فيذكر الأمير بمكان هؤلاء الناس
منه فى النسب ، ونفعهم له حين تشتد الخطوب ، وهو لبق حقا
يلج فى الاستعطاف ، حتى يظهر كلابا أدلة خاضعين لسلطان
هذا الأمير العظيم ، ثم يعود عليهم بالفخر فيظهرهم أعزة
قاهرين لغيره من الأمراء لو قصد إليهم ، فهو يرضى حاجة
كلاب إلى العفو ، كما يرضى حاجتها إلى الكرامة ، وهو يرضى
حاجة سيف الدولة إلى الحلم كما يرضى حاجته إلى تصوير بأسه
وشدته ، وهو فى أثناء هذا كله لا يقصر فى التعريض الرفيق
جدا بالذين شبوا هذه الثورة وأضلوا هؤلاء الثائرين . وقرأ
هذه الأبيات :

لند دعوى كرمويه

تَرْفَقَ أَيُّهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمُ

فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابُ

وَإِنَّهُمْ عَبِيدُكَ حَيْثُ كَانُوا

إِذَا تَدَعَوْ إِحَادَثَهُ أَجَابُوا

وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَلِيسُوا
بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ
وَهَجَرُوا حَيَاتِهِمْ لَهُمْ عِقَابُ

ثم اقرأ هذه الأبيات :

وَلَوْ غَيْرُ الْأَمِيرِ غَزَا كِلَابًا
ثَنَاهُ عَنْ شُمُوسِهِمْ ضَبَابُ
وَلَاقَى دُونَ ثَأْنِهِمْ طِعَانًا
يُلَاقِي عِنْدَهُ الذِّئْبَ الْغُرَابُ
وَحَيْلًا تَغْتَذِي رِيحَ الْمَوَاسِي
وَيَكْفِيهَا مِنَ الْمَاءِ السَّرَابُ

واقرا بين هذه الأبيات وتلك تعريضه بالكائدين في هذا
البيت :

وَجُرْمٌ جَرَّهُ سُفْهَاءُ قَوْمٍ
وَحَلٌّ بَغِيرِ جَارِمِهِ الْعَذَابُ
وَأَنْتَ تَذَكَّرُ أَنْ قَدْ كَانَ لِمَتْنِي عَهْدٌ بِالْكَلاِبِيِّينَ

في صباحه ؛ فقد نزل بهم ومدح سيدها من ساداتهم بمنهج
حين أقبل من العراق وشهد مجالس لهوهم أيضا . فلست
أستبعد أن يكون المتنبي قد وفي لهؤلاء الناس ، وعرف
إحسانهم إليه ، وبرهم به ، فجزى خيرا بخير ، وإحسانا
بإحسان .

ولست أقف من القافية التي قالها في ثورة المتألمين من
قيس إلا عند القسم الأول منها ، لأن فيه حنينا ، لا أقول
إلى وطنه الذي ولد فيه ، ولكن إلى البادية العراقية التي
ذهب إليها في صباحه ، فأقام فيها حيناً ، ثم عاد إلى الكوفة .
ولهذا الحنين عندى خطره ، لأنه يرجح ما أفترضه من أن
البيئة البدوية التي ارتحل إليها في ذلك العهد وأقام فيها
كانت بيئة قرمطية . فاقراً هذه الأبيات :

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعَذِيبِ وَبَارِقِ

مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجَرَّى السَّوَابِقِ

وَصُحْبَةِ قَوْمٍ يَذْبَحُونَ قَنِيصَهُمْ

بِفَضْلَاتٍ مَا قَدْ كَسَّرُوا فِي الْمَفَارِقِ

وليلاً تَوَسَّـدْنَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ
كَأَنَّ شَرَاهَا عَنَبٌ فِي المَرَافِقِ

واقراً هذه الأبيات التي يحدث فيها الطباق والتقسيم
ظرفاً خفيف الدعابة ، محبباً إلى الذوق والسمع جميعاً :
سَقَتْنِي بِهَا القُطْرُبُلَى مَلِيحَةٌ

على كاذبٍ مِنْ وَعْدِهَا ضَوْءٌ صَادِقٌ
سَهَادٌ لِأَجْفَانٍ وَشَمْسٌ لِنَاظِرٍ
وَسَقَمٌ لِأَبْدَانٍ وَمِسْكٌ لِنَاشِقٍ
وَأَغْيَدُ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ

عَفِيفٍ وَيَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقٍ

ولهذا البيت الأخير خاصة قيمته ، لأنه يصور طرفاً من
رأى المتنبي في لون من ألوان الإثم كان الشعراء يتهالكون
عليه ، ويسرفون فيه ، ويتنافسون في وصفه منذ فتح لهم
بابه أبو نواس ومعاصروه ، وهو اللهو بالغلман .

فلم يكن المتنبي يكره — فيما يظهر — من هذا البيت
أن يجد الأُنس عند الشباب من الغلمان إذا اجتمع لهم

الجمال والأدب ، ولكنه كان يرتفع عما دون ذلك من
الإثم . ولعل هذا يعلل إعراض المتنبي عما يسمونه الغزل
المذكور في شعره .

وقف كذلك عند هذين البيتين اللذين يصوران أسف
الشاعر لاشتغال الأمير بثورة البادية عن حرب الروم :

فما حَرَمُوا بالرَّكْضِ خَيْلَكَ رَاحَةً
ولَـكِنْ كَفَّاهَا البرُّ قَطْعَ الشَّوَاهِقِ
ولا شَغَلُوا صُمَّ القَنَا بقلوبهم

عَنِ الرَّكْزِ لَكِنْ عَنْ قُلُوبِ الدَّماسِقِ

ولا تدع القصيدة دون أن تقرأ هذه الأبيات التي
يروعك الشاعر فيها بتصوير الخضوع والطاعة وتأثيرها في
نفس سيف الدولة حين تقدمت بهما غير مؤثرة لهما على
الثورة والخروج .

لَوْ قَدْ نُمِّيْرُ كَانَ أَرْشَدَ مِنْهُمْ
وقد طَرَدُوا الْأَظْعَانَ طَرْدَ الْوَسَائِقِ

أَعَدُّوا رِمَاحًا مِنْ خُضُوعٍ فَطَاعَنُوا
بِهَا الْجَيْشَ حَتَّى رَدَّ غَرْبَ الْفَيْالِقِ
فَلَمْ أَرْ أَرْمَى مِنْهُ غَيْرَ مُخَاتِلٍ
وَأَسْرَى إِلَى الْأَعْدَاءِ غَيْرَ مُسَارِقٍ
تُصِيبُ الْمَجَانِيقُ الْعِظَامُ بِكَفِّهِ
دَقَائِقُ قَدْ أُعْيَتْ قِسِيَّ الْبَنَادِقِ

والرائية التي قالها المتنبي في هذه الثورة نفسها رائعة
خليقة بالتحليل ، مستوجبة للإعجاب كالبائية ، ولكني
لا أقف عندها تجنباً للإطالة وكراهة للإعادة ، وإنما أحب
أن تقرأ هذين البيتين لترى إلحاح المتنبي في الأسف لتحول
الأمير مضطراً عن قتال عدوه من الروم إلى قتال أوليائه
من العرب :

وَكُنْتَ السَّيْفَ قَائِمُهُ إِلَيْهِمْ
وَفِي الْأَعْدَاءِ حَدُّكَ وَالْغَرَارُ
فَأَمْسَتْ بِالْبَدِيَّةِ شَفَرَتَاهُ
وَأَمْسَى خَلْفَ قَائِمِهِ الْحِيَارُ

وأحب أن تقرأ أيضا هذين البيتين اللذين يرفق الشاعر
فيها أجمل الرفق حين يريد أن يهون على المهزمين ما أدركهم
من الهزيمة أمام الأمير :

بَنُو كَعْبٍ وما أَثَرَتْ فِيهِمْ
يَدٌ لَمْ يُدْمِهَا إِلَّا السِّوَارُ
بِهَا مِنْ قَطْعِهِ أَلَمٌ وَنَقْصٌ
وَفِيهَا مِنْ جَلَالَتِهِ افْتِخَارُ

٣

ولما اتصل المتنبي بسيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة لم يعرض لما كان بينه وبين الروم من حرب إلا لما لأنه لم يكن قد شهد مواعده مع الروم من جهة ، ولأن هذه المواقع لم تكن ملهمة للفخر والحماسة من جهة أخرى ، فقد انهزم المسلمون للروم في تلك السنة ، وغلب هؤلاء على حصن الحدث فدمروه .

فقنع المتنبي إذن في مدحه الأمير بالتعريض والإلمام اليسير حتى إذا كانت سنة تسع وثلاثين وثلثمائة شهد المتنبي مع سيف الدولة غزوة للروم ، وكانت هذه الموقعة خطيرة X حقا ، فقد انتصر فيها سيف الدولة انتصارا مؤزرا أول الأمر فاقتم الحدود ، وأمعن في بلاد الروم حتى أبعد وملاً يديه من الغنيمة . ثم استحالت إلى هزيمة ، فقد صعب القبول على الغزاة ، أثقلتهم الغنائم والأسرى ، ولصق بهم العدو ، وأخذ عليه الطرق ، وأبلى سيف الدولة في الدفاع عن

المسلمين بلاء حسنا ، ولكنه لم يبلغ من التوفيق ما كان
به خليقا ، فتفرق عنه أصحابه ، ولم ينج هو إلا بعد جهد .
وقال المتنبي في هذه الموقعة قصيدتين ، أولاهما الميمية التي قالها
حين عرض الأمير جيشه قبل الهجوم . وأولها :

لهذا اليوم بعد غدٍ أريجُ
ونارٌ في العدو لها أجيحُ
والثانية العينية التي قالها بعد الهزيمة يسلى بها الأمير ،
ويفندر بها الروم وأولها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدعُ
وان قاتلوا جبنوا أو حدّثوا شجعوا
وفي سنة أربعين وثلاثمائة نهض سيف الدولة للقاء
الروم ، وكانت نيته أن يغسل عن المسلمين وعن نفسه
ضرر الهزيمة التي أصابتهم في العام الماضي ، فتهيا للزحف
من نفس المكان الذي عرض فيه الجيش سنة تسع وثلاثين
ولكن المسلمين علموا أن جيش العدو ضخم كثير العدد
فهابوه . وتقدم الأمير إلى الشاعر أن يثبت قلوبهم ويحرضهم
على القتال فقال نونيته التي أولها :

نَزُورُ دِيَارًا مَا نَحِبُّ لَهَا مَغْنًى

وَنَسْأَلُ فِيهَا غَيْرَ سُكَّانِهَا الْإِذْنَ

× وأنشدها المتنبي لا بين يدي الأمير وحده ، بل أمام جماعة المسلمين ، فرد إلى قلوبهم الثقة وأثار فيها الحماسة ، ثم اندفع بهم سيف الدولة كأنه السيل ، فاكتمسح العدو أمامه اكتمساحا وأمعن في الغزو ، وكان يريد أن يصل إلى خرشنة ، ولكن الشتاء أقبل ، وسقط الثلج فلم يستطع الأمير أن يتقدم فعاد بجيشه مظفرا هذه المرة ، ولم يستطع الروم أن يضايقوه ، ولا أن يأخذوا عليه الطريق ، فقال المتنبي في ذلك داليتة التي أولها :

عَوَازِلُ ذَاتِ الْخَالِ فِي حَوَاسِدُ

وَإِنْ ضَجَّعَ الْخَوْدِ مِنِّي لِمَاجِدُ

وفي أوائل سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة زحف سيف الدولة على مرعش فأزال عنها الروم ، وأقام حصنها وعاد مظفرا ، فقال المتنبي في ذلك بائيتة التي أولها :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا

فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا

وقد كثر الأسرى من الروم عند سيف الدولة وكثر
أسرى المسلمين عند الروم ، وأقبل رسول ملك الروم في
آخر هذه السنة يسفر في الفداء فاستقبله سيف الدولة في
حفل فخم يريد أن يلقي به الرعب في نفسه ، وجاء غلمان
الأمير بلبؤة مقتولة فآلقوها في طريق السفراء ومن حولها
أشباهها أحياء . وأقبل المتنبي لينشد قصيدته التي أعدها
للحفل ، فلما رأى اللبؤة وأشباهها ارتجل هذه الأبيات الثلاثة :

لَقِيتَ الْعُفَاةَ بِأَمَالِهَا

وَزُرْتَ الْعُدَاةَ بِأَجَالِهَا

وَأَقْبَلْتَ الرُّومَ تَمْشِي إِلَيَّ

كَبَيْنِ اللَّيُوثِ وَأَشْبَاهِهَا

إِذَا رَأَتْ الْأُسْدَ مَسْبِيَّةً

فَأَيْنَ تَفَرُّ بِأَطْفَالِهَا

ثم قام بين يدي الأمير ، فأنشد القافية التي هيأها لهذا
المقام ومطلعها :

لِعَيْنَيْكَ مَا يَلْقَى الْفَوَادُ وَمَا لَقِيَ

وَالْحُبُّ مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي وَمَا بَقِيَ

وفي سنة اثنتين وأربعين عبر سيف الدولة الفرات ،
وزحف من عنتاب على بلاد الروم فاجتاز الحدود ، وأمعن
حتى أغار على ملطية ، ثم عاد مظفرا غانما بعد خطوب
أحسن فيها البلاء . فلما انتهى إلى آمد بلغه أن الروم قد
أغاروا على أنطاكية ، فحف إليهم وأغذ في السير حتى لحقهم
قافلين عند مرعش ، فأوقع بهم وغنم منهم ، وأسرقسطنطين
X ابن قائدهم برداس فوكاس وعاد موفورا . فقال المتنبي في
ذلك لاميته التي أولها :

لِيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ

X طَوَالٌ وَلَيْلُ العَاشِقِينَ طَوِيلُ

وفي سنة ثلاث وأربعين أقبل سفراء الروم وأدخلوا
على سيف الدولة في حفل فخم ، فأنشد المتنبي فيه رائيته التي
يقول فيها :

ظُمَ لِدَا اليَوْمِ وَصَفٌ قَبْلَ رُؤْيَتِهِ

لَا يَصْدُقُ الوَصْفُ حَتَّى يَصْدُقَ النِّظَرُ

وكانه لم يعلم بما كان السفراء يحملون في هذه

السفارة ؛ فلما انتهى الحفل عرف أنهم كانوا يسعون في
هذنة . فقال لاميته التي مطلعها :

دُرُوعُ مَلِكِ الرُّومِ هَذِي الرِّسَائِلُ

يَرُدُّ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيُشَاغِلُ

وفي هذه السنة نفسها نهض سيف الدولة بعد فراغه
من ثورة الكلابيين إلى حصن الحدث ، وكان المسلمون قد
انهزموا عنه للروم سنة سبع وثلاثين وثمانئة كما قدمنا .
فأراد سيف الدولة في هذه السنة أن يسترده وقيمه ، وعلم
الروم بمسيره إليه ، فأسرعوا في جيش ضخم اشتركت فيه
أمم مختلفة ليردوه عنه ، ولكن سيف الدولة سبقهم إليه
على أنه لم يكذب يستقر حتى ظهرت جيوش الروم ، فلقاهم
المسلمون ، وكانت الصدمة الأولى عنيفة عليهم ، فتضععوا
شيئا وكادوا ينهزمون ، لولا أن الأمير أقدم لا يلوى على
شيء ، ومضى يشق الصفوف حتى انتهى إلى مكان القائد
العام برداس فوكاس ، فانهزم الروم هزيمة منكرة ، وأقام
سيف الدولة الحصن وعاد مظفرا . فقال المتنبي ميميته
التي أولها :

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ

وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَسْكَرُمُ

وفي المحرم من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة أقبل سفراء
ملك الروم على سيف الدولة يطلبون الهدنة فأدخلوا عليه ،
وأنشده المتنبي بحضرتهم ميميته التي أولها :

أَرَاكَ كَذَا كُلَّ الْأَنَامِ هُمَامُ

وَسَحَّ لَهُ رُسُلَ الْمُلُوكِ غَمَامُ

ومن إلحاح المتنبي على الأمير في هذه القصيدة أن يمنح
السفراء ما يطلبون من المودعة أستخلص أن الأمير نفسه
كان راغبا في هذه الهدنة ليقمع ثورة القبائل القيسية التي
رجحت فيما مضى أنها كانت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة .

وفي هذه السنة نفسها نقض الروم الهدنة فيما يظهر ،
وأغاروا على حصن الحدث يريدون أن يستردوه ، ولكن
سيف الدولة نهض لهم ، فلما علموا بمقدمه جلوا عن الحصن
وعادوا أدراجهم . فقال المتنبي لاميته التي أولها :

ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلُوَنَّ مَنْ تَعَالَى

هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا

٢٢٦
الروم من أطلعه
يقول

وفي المحرم من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة علم
سيف الدولة أن الروم قد هموا بالغارة على آمد ، فنهض إليهم
فلما علموا بمقدمه عادوا أدراجهم ، ولكنه تبعهم وأمعن حتى
هزمهم على تل البطريق ، ودمر حصونا وقلاعا وعاد .
ولكنه وجد الدروب قد أخذت عليه ، فكانت بينه وبين
الروم موقعة عظيمة كتب له فيها النصر وانهزم الروم ،
وقد تركوا ألوفاً من القتلى وعددا ضخماً من الأسرى . وعاد
سيف الدولة ظافراً إلى آمد . فأنشده المتنبي نونيته التي
يقول فيها .

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ

هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ الثَّانِي

وفي هذه السنة نفسها أعيد حديث الواقعة الماضية في
مجلس سيف الدولة ، وما كان الروم قد قدروا من أخذ
الطريق عليه والايقاع به ، ثم ما كان من إخلاف ظنهم
فأنشد المتنبي ميميته التي أولها :

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَعَى نَدَمٌ

ماذا يزيدُكَ في إقدامِكَ الْقَسَمُ

وهي كما يقول الديوان آخر ما أنشد المتنبي من الشعر
بين يدي سيف الدولة في حلب . وتاريخ هذه القصائد
كلها مفصل أحسن تفصيل في كتاب الأستاذ بلاشير ،
وفي أبحاث الأستاذ جبريلي عن حياة المتنبي ، وفي كتاب
الأستاذ كنار عن سيف الدولة .

وعلى هذه الكتب مع الديوان كان اعتمادنا فيما قدمنا
من التاريخ ، وكنا خليقين ألا نعيد في هذا الإيجاز ما فصلوه
فأحسنوا تفصيله ، لولا أنهم كتبوا في الفرنسية والإيطالية
وأن كتبهم ليست في أيدي قراء العربية .

وكل هذا الشعر كما قلنا في أول الحديث عن صلة
المتنبي بسيف الدولة رائع بارع ، خليق بالدرس والتحليل ،
ولكننا سنصنع به ما صنعناه بغيره من شعر المتنبي في
سيف الدولة فنكتفي بالوقوف عند نماذج منه تغني عن الوقوف
عند سائر .

٧

ولندع الجيمية التي قالها المتنبي في أوائل الحرب سنة
تسع وثلاثين وثلثمائة فإنها لا تزيد على أن تكون تحريضا
للحسين ، وتثبيتا للمسلمين وحثا لهم على الهجوم ، وثناء على الأمير
بما هو أهله ، ثم انذار للنصارى بما سيصيب عليهم من نار
الحرب . وكان المتنبي في هذه الجيمية القصيرة عظيم الأمل ،
بل واثقا كل الثقة بالفوز ، ثم كانت سيرة المسلمين بعد
هذه القصيدة محققة كل التحقيق لذلك الأمل ، مصدقة
كل التصديق لهذه الثقة . فقد انتصر المسلمون في غزوهم
هذا الطويل ، وهزموا عدوهم أشنع الهزيمة في كل موطن
لقوهم فيه حتى انتهوا إلى خرشنة كما قدمنا . وكان الأمير
يريد أن يمضى في الغزو ، ولكن بعض أتباعه سئمو الحرب
وأشفقوا من الإبعاد في الغزو ، فطلبوا الرجوع إلى أوطانهم
وألحوا في ذلك واستمع لهم الأمير . فلما رجعوا مثقلين بالغنائم
والأسرى ، تبعهم العدو منغصا عليهم قفولهم ، آخذا عليهم

الطرق حتى كانت الهزيمة التي لم تأخذ من نفس سيف الدولة
برغم تعرضه فيها لأشد الأخطار .
وقصيدة المتنبي التي وصف بها هذه الحرب وما كان
فيها من نصر مؤزر ، ثم من هزيمة منكرة تصور الحوادث
أجمل تصوير وأروع وأصدقه معا . ثم هي تصور فوق
الحوادث نفس المتنبي ، وما ثار فيها من العواطف المختلفة
والأهواء المتباينة ، ثم هي بعد هذا كله تصور نفس الأمير
وقد عاد محزوننا كئيبا نادما خائب الأمل ، ولكنه مع ذلك
يتحرق شوقا إلى الانتقام ، ولا يكاد يطمئن ولا يستقر حتى
يبلغ منه ما يريد .

وهذه القصيدة تنقسم أربعة أقسام ، وقد رتبت هذه
الأقسام فيما بينها أحسن ترتيب وأدقه . كأن القصيدة رسالة
ذات أربعة فصول ، ولكنها قصة تبدأ من آخرها إن صح
هذا التعبير . تبدأ من آخرها ، ثم تستأنف من أولها بعد ذلك .
فأما الفصل الأول فيصور لنا المتنبي نفسه ، بعد أن عاد
المسلمون إلى حلب ، وقد خلا إلى نفسه وأمعن في التدبر
لما شهد وما سمع وما وجد أثناء هذه الحوادث الطويلة .

العنيفة . وإذا هو محزون كئيب ، كاسف البال ، يأس من الناس ، ساخط على هذه الحياة التي صورتهم شجعانا في القول ، جبنا في العمل ، كراما إذا وعدوا ، بخلاء حين يطلب إليهم الوفاء ، أوفياء إذا تحدثوا ، خونة غادرين إذا امتحنوا . ثم هو لا يكتفى بهذا اليأس والسخط ، بل هو لا يريد أن يستسلم لهذا اليأس والسخط ، وإنما هو يجد في نفسه بقية خفية من أمل . فليست طبيعة الناس شرا كلها ، وليس من المستحيل أن يخرجوا على هذه الطبيعة فيلائموا بين القول والعمل ، وبين الوعد والإنجاز . وإذن فهو يحثهم دون أن يصارحهم على أن يأخذوا بالثأر ، ويفسوا عنهم هذا العار . على أنه لا يتحدث إليهم في ذلك مباشرة ، وإنما يقيم نفسه مقامهم ؛ فيتحدث إليها حتى إذا فرغ من ذلك ، فصور الحزن واليأس ، ثم صور الأمل والرجاء ، انتقل إلى الفصل الثاني ، الذي هو في حقيقة الأمر نتيجة طبيعية منطقية للفصل الأول .

كان يريد من الناس أن يغسلوا عن أنفسهم العار ، فأى حافز لهم أبرع من هذا الوصف الذي صور به انتصارهم

في أول الحرب ، واستعلاءهم على الروم ، واستحواذهم على الأرض وما فيها ومن فيها ، ودفعهم للمحاربين أمامهم يمشون هاربين لا يلوون على شيء ، وانتهاءهم بعد ذلك كله إلى أرباض خرسنة ، وهو في أثناء هذا الوصف يصطنع أروع ألفاظ الحرب ، وأقدر صورها على إثارة الحفيظة ، وإشعار النفس العربية بالبأس والقوة ، وبالكرامة والعزة ، وبالشمم والإباء . فإذا انتهى إلى خرسنة فقد أتم الفصل الثاني من قصته ولا بد له من أن يأخذ في الفصل الثالث .

وهذا الفصل الثالث دقيق جدا ، ففيه تصوير الهزيمة ، وقد كانت الهزيمة منكرة حقا . فكيف السبيل إلى ذلك دون أن يفت الشاعر في أعضاء المسلمين ويشمت بهم العدو ، ويزيد في شماتة الروم .

ليس الأمر عسيرا كل العسر ، فقد تعود الشعراء القدماء منذ العصر الجاهلي أن يذكروا الهزيمة ويعتذروا منها ، ولكن المتنبي يستغنى عن وصف الهزيمة ، بل يهمله إهمالا ويكتفي بالاعتراف بها في شيء من الإجمال والغموض ، ثم يتحول إلى المنتصرين من الروم ؛ فينذرهم ويوعدهم ،

ويذكرهم بما أصابهم من الهزائم ، ويتنبأ لهم بما سيصيبهم منها ، وهو لا يرى الهزيمة إلا امتحانا للمسلمين ، وتمحيصا لهم ، وتنقية لجيشهم من الضعفاء والجبنا ، وهو يعترف بأن الروم قد أسروا جماعة من المسلمين ، ولكنهم لم يأسروا أحدا ذا بأس أو حفاظ ، وإنما أسروا جماعة من الموتى أو أشباه الموتى ، من موتى النفوس على كل حال . فالروم ضبايع ، والضبايع لا تظفر بالأحياء ، ولا تنعم إلا بالموتى .

فإذا أتم حديثه إلى الروم منذرا موعدا لم يبق له إلا الفصل الرابع والأخير من فصول القصة ، وهو تعزية الأمير نفسه من نفسه ، وتهوين الأمر عليه ، ثم إعلان رأى الأمير فيما كان ، وأمل الأمير فيما سيكون .

وقد صور المتنبي هذا الفصل تصويرا مؤثرا حقا . فهو قد رفع الأمير عن اللوم ونزعه عن العار ، بل هو قد رفع الأمير فوق الشمس ، بحيث لا يستطيع أحد أن يرفعه ولا أن يضعه ، وبحيث لا يستطيع العار أن يسمو إليه . إنما العار كل العار على الذين خذلوه وأسلموه وتفرقوا عنه ، والمجد كل المجد لهذا الأمير الوحيد الذي انهزم عنه الجيش ، فثبت للعدو ،

ولم يحجم منه نفسه وحدها ، وإنما حمى منه الجيش المنهزم
أيضا . والأيام دول والزمان يخطئ ويصيب . فقد أخطأ في
ذات الأمير هذه المرة وهو مصلح خطاه من قابل . وهل
أرض الروم إلا مصطفى الأمير حين يقبل الصيف ، ومتربع
الأمير حين يقبل الربيع . فالسيف معتذر إلى الأمير ، والدهر
ممتنظر أمر الأمير ، وويل للروم بعد ذلك .

وكذلك تنتهي هذه القصيدة الرائعة من قصائد المتنبي
وقد وفق الشاعر فيها كل التوفيق من ناحيتين :

من الناحية العلمية ، فهو قد وضح المنهزمين أشد التوبيخ ،
وعنفهم أقصى التعنيف ، ولكنه لم يصغرهم في أنفسهم ، ولم
يدفعهم إلى اليأس من الظفر والانتقام ، وهو قد عرف للروم
انتصارهم ولكنه لم يسرف في تعظيم هذا الانتصار والتنويه
به ، لأنه لا يريد أن يفل من حد المسلمين ، ولا أن يكسر
قلوبهم . ومن الناحية السياسية ، فهو قد ضمن للأمير حسن
السمعة ، وذاد عنه أسنة سوء ، ورد عنه شماتة الشامتين
به من هؤلاء الملوك المسلمين الذين يتربصون به الدوائر ،
وينتظرون له المكروه ، وهو في الوقت نفسه قد حفظ له

وفاء الرعية ، وأشعرها بأنها قد خذلتها وقصرت في ذاته ،
وأن له عليها حقاً يجب أن تؤديه إليه فتنصره وتغنى في نصره
إذا استأنف الحرب في العام المقبل .

ولم يكن توفيق المتنبي سياسياً وعملياً فحسب ، بل كان
توفيقاً فنياً قبل كل شيء ، فلهجة الشاعر في القصيدة
صادقة كل الصدق ، حارة كل الحرارة ، وألفاظه ومعانيه
ملائمة أشد الملائمة لهذا الصدق الحار ، لأن المتنبي قد شهد
الموقعة ورأى أطوارها كلها ، واستيقن أن الهزيمة لم تأت
عن ضعف في المسلمين ولا عن تقصير ، وإنما الحرب
سجال يوم لك ويوم عليك ، ولولا أن طبيعة الموقف
تقتضى أن يلوم المنهزمين شيئاً ليربط على قلوبهم وليحفزهم
إلى الجهاد لما فكر المتنبي في لومهم قليلاً ولا كثيراً .

وأنا أحب الآن أن تقرأ أطرافاً من هذه القصيدة ،
لتحس من جمالها وروعيتها بعض ما أحس . فانظر إلى غنائمه
الحزين في أولها :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ
إِنْ قَاتَلُوا جَبُّوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُّوا

أَهْلُ الْحَفِيزَةِ إِلَّا أَنْ تُجَرَّبَهُمْ
وَفِي التَّجَارِبِ بَعْدَ الْغَيِّ مَا يَزَعُ
وَمَا الْحَيَاةُ وَنَفْسِي بَعْدَ مَا عَلِمْتُ
أَنَّ الْحَيَاةَ كَمَا لَا تَشْتَهِي طَبْعُ
لَيْسَ الْجَمَالُ لَوَجْهِ صَحَّ مَارْنُهُ
أَنْفُ الْعَزِيزِ بِقَطْعِ الْعِزِّ يُجْتَدَعُ
ثُمَّ انْظُرْ إِلَيْهِ بَعْدَ هَذَا الْيَأْسِ كَيْفَ يَعُودُ إِلَى اسْتَفْزَازِ
الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَهْضَامِهِمْ لِلانْتِقَامِ . فَيَقُولُ :

أَطْرَحُ الْمَجْدَ عَنْ كَتْفِي وَأُطْلِبُهُ
وَأَتْرُكُ الْغَيْثَ فِي غِمْدِي وَأَنْتَجِعُ
وَانْظُرْ إِلَيْهِ كَيْفَ خَلَصَ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الْبَيْتِ
الَّذِي يَجْمَعُ الظُّرْفَ وَالْقُوَّةَ مَعًا . فَقَالَ :

بِالْجَيْشِ يَمْتَنِعُ السَّادَاتُ كُلُّهُمْ
وَالْجَيْشُ بِابْنِ أَبِي الْهَيْجَاءِ يَمْتَنِعُ
ثُمَّ انْظُرْ إِلَيْهِ كَيْفَ يَصِفُ غَارَةَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ حِينَ
انْقَضَ عَلَى الرُّومِ كَالصَّاعِقَةِ فَلَمْ يَثْبُتُوا لَهُ . وَانْظُرْ إِلَيْهِ كَيْفَ .

يلائم في السرعة بين الوصف والموصوف فيصل إلى خرشنة
كما وصل إليها الأمير في غير مهل ولا أناة ، ثم يقيم عليها
بعد ذلك كما أقام الأمير عزيزا منتصرا مباهيا بالعزة والانتصار .

قَادَ الْمُقَانِبَ أَقْصَى شُرْبِهَا نَهْلُ

عَلَى الشَّكِيمِ وَأَذْنَى سَيْرِهَا سَرَع

لَا يَعْتَقِي بَلَدٌ مَسْرَاهُ عَنْ بَلَدٍ

كَالْمَوْتِ لَيْسَ لَهُ رِيٌّ وَلَا شَبَعُ

حَتَّى أَقَامَ عَلَى أَرْبَاضِ خَرْشَنَةِ

تَشَقَّى بِهِ الرُّومُ وَالصُّلْبَانُ وَالْبَيْعُ

لِلسَّبِي مَا نَكَحُوا وَالْقَتْلُ مَا وَلَدُوا

وَالنَّهْبُ مَا جَمَعُوا وَالنَّارُ مَا زَرَعُوا

نُحِّلَ لَهُ الْمَرْجُ مَنْصُوبًا بِصَارِخَةٍ

لَهُ الْعَنَابُ مَشْهُودًا بِهَا الْجَمْعُ

ثم يمضي المتنبي في وصف ما كان للمسلمين من قوة وبأس ،

وما كان يملأ قلوب الروم من فزع وجزع ، وما أحدث

المسلمون في الروم من قتل ، وما تركوا في نفوسهم من

حزن . يصف هذا كله مستأنيا في وصفه ، مستلذا هذا الوصف
مصطنعا فيه الإطالة والتفصيل ، كأنه قد أشرف على الروم من
أكمة مرتفعة عند خرشنة ، فهو يلقي عليهم في ذلك خطبة
بشعة قوامها الحديد والنار والضررم والدماء .

ثم انظر إليه كيف يتحدث إلى الروم بعد ذلك عن
هذه الهزيمة العارضة بعد أن سجل النصر تسجيلا :

قُلْ لِلدُّمُسْتُقِ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَكُمْ
خَانُوا الْأَمِيرَ فَجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا
وَجَدْتُمُوهُمْ نِيَامًا فِي دِمَائِكُمْ
كَأَنَّ قَتْلَكُمْ إِيَّاهُمْ فَجَعُوا
ضَعْفَى تَعَفَّى الْأَعَادَى عَنْ مِثْلِهِمْ
مَنْ الْأَعَادَى وَإِنْ هَمُّوا بِهِمْ نَزَعُوا
لَا تَحْسَبُوا مِنْ أَسْرَتُمْ كَانَ ذَا رَمَقٍ
فَلَيْسَ يَأْكُلُ إِلَّا الْمَيْتَةَ الضَّيْعُ
هَلَّا عَلَى عَقَبِ الْوَادِي وَقَدْ صَعِدَتْ
أُسْدُ تَمَرُّ فُرَادَى لَيْسَ تَجْتَمِعُ
(م ٩ — ج ٢)

تَشَقُّكُمْ بِقَنَاهَا كُلُّ سَلَهَبَةٍ
وَالضَرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدَعُ
وَإِنَّمَا عَرَّضَ اللَّهُ الْجُنُودَ بِكُمْ
لِكَيْ يَكُونُوا بِلَا فِشْلٍ إِذَا رَجَعُوا
فَكُلُّ غَزْوٍ إِلَيْكُمْ بَعْدَ ذَا فَلَهُ
وَكُلُّ غَازٍ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ التَّبَعُ

وانظر إليه كيف يتحدث إلى سيف الدولة في هذين
البيتين :

وَهَلْ يَشِينُكَ وَقْتُ كُنْتَ فَارِسَهُ
وَكَانَ غَيْرَكَ فِيهِ الْعَاجِزُ الضَّرْعُ
مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ
فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ

وانظر آخر الأمر إلى هذا البيت ، وهو من أروع
ما قال المتنبي في سيف الدولة ؛ بل وفي غيره من
الممدوحين أيضا :

X
الدهرُ مُعْتَذِرٌ والسيفُ مُنْتَظَرُ

وَأَرْضُهُمْ لَكَ مُصْطَافٌ وَمُرْتَبَعُ

وقد صدق الأمير وعد شاعره ، واعتذر الدهر من خطيئته ، وظفر السيف بما كان ينتظر ؛ فلم يحل الحول حتى نهض سيف الدولة لقتال الروم وظفر بهم ، وكاد يبلغ خرشنة لولا الثلج . وقد قال المتنبي في هذه الموقعة قصيدتين أيضا ؛ يحرض الجيش في أولها ، ويسجل الفوز في ثانيتهما .

ولكني لا أقف عند هذا الشعر ، فاقراء إن شئت ، فأنت واجد فيه من الجمال والروعة ما يرضيك .

ولن أقف كذلك عند قافيته التي قالها حين أدخل السفراء على سيف الدولة ، سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، وإن كانت خليقة بالإعجاب . إنما أصل مسرعا إلى هذه اللامية التي هي عندى آية المتنبي في سيف الدولة ، لأنها جمعت خصالا ما أراها اجتمعت في غيرها من القصائد التي وصف فيها جهاد الأمير للروم . صاغ الشاعر هذه القصيدة على مثال لامية السموءل التي أولها :

إذا المرء لم يَدْنَسْ من اللُّؤْمِ عَرَضُهُ

فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ

فاصطنع نفس الوزن ونفس القافية ، ونفس اللغة أيضا ،
بل هو استعار من هذه القصيدة طائفة من الألفاظ والمعاني
والأساليب ، ولكنه لم يصنع ذلك تقليدا ولا احتذاء ،
وإنما أعجبه هذا المذهب الشعري ؛ فعارض السموءل ولم
يتخذها إماما . وهو حين ذهب هذا المذهب الفني أجرى في
القصيدة زوحا عذبا غريبا ليس من اليسير وصفه ولا تصويره ،
ولكنك تحسه احساسا قويا ، بل أنت تقرأ القصيدة ؛ فإذا
هذا الروح يسبق ألفاظها ومعانيها إلى قلبك ، ويشيع في
نفسك خفة وطربا ، لا تجدهما حين تقرأ أى قصيدة أخرى
من قصائد المتنبي .

والغريب أن هذا الروح العذب الخفيف يحتفظ بعذوبته
وخفته في القصيدة كلها ، ولكنه مع ذلك يتخذ أشكالا ،
وإن شئت فقل يتخذ ألوانا مختلفة ، تتباين بتباين المعاني
والموضوعات التي يطرقها الشاعر في هذه القصيدة . فهو على
عذوبته وخفته حزين شاحب كئيب ، يثير في نفسك الحنان

والرحمة والألم الهادئ حين يتغنى الشاعر في هذا الغزل الذي
بدأ به القصيدة . فإذا انتهى الشاعر إلى المدح ووصف الموقعة
خلع عن هذا الروح العذب الخفيف دائماً حزنه وشحوبه وكآبته
واتخذ ثوبا زاهى الألوان إلى أبعد حد ، يمسه ضوء الشمس ،
فتمضطرب ألوانه وتتموج تموجا ساحرا ، وإذا هو يغلبك على
نفسك ، وإذا نفسك تتموج معه كما يتموج . والشاعر يصف
الحرب وصفا دقيقا ، وكانت الحركة النشيطة السريعة أخص
ما تمتاز به هذه الحرب ، بل كانت هذه الحرب تمتاز بخصلتين
أخرين لعلهما نتيجة لهذه الحركة . وهى الجرأة التى لا تسمح
بمهل ولا أناة ولا تبيح روية ولا تفكيرا ، وإنما هى اندفاع
متصل إلى أمام ، يزداد عنفه من وقت إلى وقت ، لا يحفل
بالمصاعب ولا يقف عند العقاب ، وإنما يقتحم كل ما يعترضه
ويكتسح كل ما يلقاه . يصعد حين تعترضه الجبال وينحدر
حين ينتهى من القمة إلى السفح ، ويعدو حين ينتهى إلى
السهل . حركة وجرأة هما أشبه شىء بنشوة النشوان الذى
يأتى ما يأتى عن فرح ونشاط ، لا سعة فيهما لتعقل أو تدبر .
وكذلك فعل سيف الدولة فى هذه الحرب ، فقد خطرت

له فجأة فاندفع إليها من حران لا يلوى على شيء حتى أمعن
في بلاد الروم واقتحم ملطية . فلما أراد العودة من درب
أرمينية وجد الدرب قد أخذ عليه ، وكان خليقا أن يتدبر
وأن يقدر أنه قد أخذ من ورائه أيضا ، وأن يحتمل في اقتحام
الدرب ، ولكنه أبى أن يضيع الوقت ، ففكر راجعا في
سرعة الطير ، واقتحم ملطية مرة أخرى غير مبال بما كان
العدو قد أعد له من أمامه ، وبما كان خليقا أن يلحقه
من وراء . ثم انتهى في هذه السرعة الجريئة الغريبة إلى
مخرج من بلاد الروم فسلكه ، وظن الروم أنه قد انصرف
عنهم ، ولكنه لم يلبث أن عاد إليهم مرة أخرى ؛ فدمر
وخرب وسلب الغنائم والنفوس ، ومضى حتى أدرك الفرات
فاقتحمه اقتحاما على ظهور الخيل . ولم يكد ينتهي إلى آمد
ويعلم بعثت الروم حول أنطاكية ؛ حتى خف وأغذ وأخذ
الروم عند مرعش وهم قافلون فمزقهم تمزيقا ، وأضاف إلى
ما كان عنده من الغنائم والأسرى ، وأخذ ابن القائد نفسه
وعاد مظفرا .

كان سيف الدولة نشوان قد أسكرته الحرب ، فمضى

فيها لا يقف ولا يتدبر . وأتيح له النصر فإذا هذا النصر
نفسه يسكر شاعره المتنبى ، وإذا هو ينشئ هذه القصيدة
صورة دقيقة مطابقة كل المطابقة للأصل الذي أراد وصفه
وتصويره . فأنت ستحس حين تقرأ هذا الوصف نفس
الحركة والنشاط اللذين أحسهما المتنبى حين تبع سيف الدولة
في غارته الجريئة السريعة تلك ، لا يكاد يطمئن ولا يستقر
ولا يستريح .

وستمضى أنت في قراءة القصيدة كما مضى المتنبى في
اتباع سيف الدولة ، مندفعاً من بيت إلى بيت ، متنقلاً من
مقام إلى مقام ، صاعداً مع الجيش حين يصعد ، ومنحدراً
مع الجيش حين ينحدر ، ودائراً مع الجيش حين يدور
حول العدو ، ثم هاجماً مع الجيش حين يهجم على العدو .
ثم إن هذا الروح العذب الخفيف على احتفاظه بعذوبته
وخفته ، يخلع هذا الثوب ذا الألوان المشرقة المتألقة إذا
فرغ من هذا الوصف ؛ ليمتخذ ثوباً آخر ليس شديد التألق
والإشراق ، ولكنه حالك بعض الشيء ، أو قل قائم يكاد
يعن في القوم لولا أن شيئاً من البهجة يترقق فيه بين

حين وحين ، وذلك حين يلتفت الشاعر إلى ما وراء سيف
الدولة من بلاد المسلمين وإلى من حول سيف الدولة من
ملوك المسلمين ، فلا يرى إلا ذلا وضعة ، وإلا خمولا وخمودا
وإلا إقبالا على اللهو ، وعكوبا عني اللذات ، ونجيجا وعجيجا ^{على}
لا غناء فيهما ولا طائل منهما في هذا الوقت الذي يجد فيه الجد
بين سيف الدولة وعدوه من الروم . فإذا الظفر الذي ينتهي
إلى البطولة حيناً ، وإذا الهزيمة التي تنتهي إلى البطولة حيناً آخر ،
وإذا الثقة بالنفس والنهوض بالواجب والاطمئنان إلى الله على
كل حال . فإذا فرغ الشاعر من هذا التعريض الحزين
الفرح ، خلع عن روحه العذب الخفيف ثوبه هذا ، وأفاض
عليه ثوبا آخر هو ثوب الفخر بالنفس والاعتزاز بالكفاية
الشخصية ، والبراعة الفنية ، وكأنه رضى عن قصيدته وعن
فنه بعد أن سمع قصائد الشعراء الآخرين ، ورأى فنونهم ،
وهو ساخط على هؤلاء الشعراء الذين يعجزون عن مجاراته ،
ويقصرون عن بلوغ غايته ، فلا يسعهم إلا أن يسعوا به
ويكيدوا له ، ويتألبوا عليه ، وهو قد أشرف عليهم وأخذ
يرمقهم مزدريا لهم ، محقرا لما يقولون ويفعلون .

فالمُتَنبِي يبدأ القصيدة بنفسه حزينا مفتخرا ، ويختم
القصيدة بنفسه مبتهجا متصرا ، ويمنح أكثر القصيدة ،
وخير ما فيها لا لسيف الدولة وحده ، بل له ولجماعة
المجاهدين معه في سبيل الله ، الذائدين عن حوزة الإسلام
وحسب العرب ، ولجماعات أخرى من المسلمين لاهية عن
الجد ، ساهية عن الجحد ، منصرفة إلى الخمازي والآثام . فالشاعر
مغن ، والشاعر مادمح ، والشاعر قاص ، والشاعر هاج ،
والشاعر مفاخر متحمس ، والشاعر يجمع أكثر فنون الشعر
في هذه القصيدة التي لم تسرف في الطول .

قلت لك إن هذه القصيدة عندي أروع ما قال المتنبى
لسيف الدولة من الشعر . وقرأ معي بعض أبياتها فسترى أنني
لست مسرفا فيما أقول :

لِيَالِيْ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ

طَوَالَ وَلِيلُ الْعَاشِقِينَ طَوِيلُ

يُنِّيَنَّ لِيَ الْبَدْرَ الَّذِي لَا أُرِيدُهُ

وَيُخَفِّينَ بَدْرًا مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

وما عشتُ من بعد الأحبّة سلوةً

ولكنني للنائباتِ حُمُولُ

لماذا بدأ المتنبي قصيدته بهذا الغناء الحزين؟ وقد عرفناه
إذا امتلأت نفسه إعجاباً ورضاً يعرض عن النسيب وينصرف
عن الغناء ويهجم على موضوعه هجومًا لا يبتغي إليه الوسائل ،
ولا يبسط بين يديه المقدمات . ستقول لأنه شاعر يريد أن
يتأنق في فنه ، وأن يبهر سامعيه ، وأن يهيئهم لاستماع
ما سيقص عليهم من أنباء الحرب وما سيعرض عليهم من
أوصافها . وقد يكون هذا حقاً وما أكثر ما يفعل الشعراء
هذا . وما أكثر ما يكون أحدهم ممتلئاً بموضوعه ، شاعراً
بأن الناس من حوله ممتلئون بهذا الموضوع ، ولكنه مع
ذلك لا يسرع إليه ولا يبالغه حتى يدور إليه في أنحاء من
الغناء . نعم ، ولكنني أرى في نفس المتنبي شيئاً آخر غير هذا
التأنق الفنى والترفق الذى يعمد إليه الشعراء ، فيها حزن دفين ،
يصدر أحياناً عن نفس الشاعر التى لم تدرك من آمالها شيئاً
أو لم تؤكد تدرك منها شيئاً ، ويصدر أحياناً أخرى عن حال
هذه الأمة الإسلامية التى تبلى فتحسن البلاء ، وتجاهد فتحسن

الجهاد ، ولكنها حيث هي لا تتقدم خطوة ولعلها تتأخر خطوات . هذه الحرب التي أبلى فيها سيف الدولة كأحسن ما يبلى الأمراء المجاهدون ، ماذا أفاد منها المسلمون ؟ وماذا أفاد منها سيف الدولة ؟ وماذا أفاد منها المتنبي إذا تعمقت الأمر ونفذت إلى حقائق الأشياء ؟ المسلمون حيث هم لم يمدوا حدودهم ولم يؤمنوها من غارة الروم ، والمسلمون حيث هم لم تصلح أحوالهم الخاصة ، ولم تبرأ سياستهم الداخلية من الإغراق في الفساد ، وسيف الدولة حيث هو يظفر اليوم ليستأنف الحرب غدا ، وقد ينتصر غدا ، وقد تدور عليه الدائرة ؛ لم يأمن بأس الروم ولم يأمن مكر المنافسين ؛ والمتنبي نفسه حيث هو يمدح الأمير اليوم مهنئاً كما مدحه أمس معزياً ، وقد يهنته غدا ، وقد يعزيه ، ولكنه سيظل شاعراً مادحاً على كل حال . وهو مع ذلك محسد يكاد له ويؤتمر به ويدبر له السوء . حياته متشابهة حياة المسلمين ، وكحياة الأمير ، وإذن فهذه الليالي المتشابهة في الطول ، المتشابهة في أنها تبدى له البدر الذي لا يريده ، وتختفي عليه البدر الآخر الذي يهواه كل الهوى ، ويطمح إليه كل الطموح ،

ولا يجد إليه مع ذلك سبيلاً . هذه الليالى المتشابهة التى
أمضته وثقلت عليه لتشابهها ، لم لا تكون رمزاً لهذه الحياة
المتشابهة التى تمض وتثقل بتشابهها ؟ لماذا ننظر إلى الشعراء
دائماً كما ننظر إلى الأطفال وهم يلعبون ؟ لماذا نبخل عليهم
بأن نزن بهم الرجولة والبطولة أحياناً ؟ وأى صفات الناس
أدنى إلى الرجولة والبطولة ، وأقرب إلى حال الفن الرفيع
من هذا السأم وهذا الضيق بالتشابه حين يتصل ويطول ؟
أحق أن هذا البدر الذى تخفيه الليالى على المتنبي هو صاحبه
هذه التى يزعم أنها ظعننت عنه ، وأن الأسباب قد تقطعت
به من دونها ؟

لم لا يكون هذا البدر شيئاً آخر غير هذه الفتاة الأعرابية
التي تحمىها الأسنة والرماح ؟ لم لا يكون البدر رمزاً لهذه
الآمال النائية وهذه الهموم البعيدة التى تآقت إليها نفس
الشاعر منذ أحس الحياة وقدر على النشاط ، والتي أنفق
ما أنفق من حياته دون أن يبلغها أو يدنو منها ؟
لو أنك سألت المتنبي نفسه عن هذه الليالى المتشابهة
فى الطول والعقم ، وعن هذا البدر الخفى العزيز لما أجابك

بغير ما يقول الناس ، فهو شاعر يتغنى وهو إنما يجيد الغناء
ويبرع فيه ، لأنه يتغنى بما لا يحققه ولا يحيط به علما .

فجائز بل مرجح أن يكون المتنبي بعيدا كل البعد عن
أن يفكر في هذه المعاني التي أشرت إليها وأفضت فيها ،
ولكنه مع ذلك يتغنى هذه المعاني نفسها ، لأنه شاعر
وأبرع الشعراء من عرض لما يفوته من مطالب الفن ، فتعلق
بأذيله وطار في أثره دون أن يبلغه أو ينتهى إليه .

ما أشد سأم المتنبي وضيقه بهذه الليالى المتشابهة الطوال ،
ولكنه مع ذلك حى يغدو ويروح ويستمتع بلذات الحياة .
أتراه سلا عن أحبته أو زهد فيهم ؟ كلا ، ولكنه صبور ، صبور
جلد ، قد تعلم الثبات للحوادث واحتمال الملمات . أفتره يبكى حقا
في إثر هذه الفتاة الأعرابية ؟ أم هو يبكى في إثر هذه الآمال
التي لا يدنو منها إلا نأت عنه ، ولا يطلبها إلا فاتته وعزت
عليه ، أو لسنا جميعا نأمل ثم يدركنا اليأس ، ونرجو ثم
يصيبنا القنوط ونحيا مع ذلك يائسين قانطين ، كما كنا نحيا
آملين راجين ؛ بل قل إن هذا اليأس الذى يدركنا لا يكاد
يستقر فى نفوسنا ، وإنما هو يؤذينا ويصيبنا حتى يدفعنا إلى

الشكاة ، ويشير في نفوسنا الحزن ، ويطلق ألسنتنا بالغناء ، ثم يتجاوزنا ، وإذا الأمل يستقر مكانه ، وإذا نحن جاهدون في السعى ، مستأنفون للنشاط ، مجدون للأمل ، نسعى في إثر ما فاتنا ونلح في تحقيق ما أملنا ، وإذا نحن نتمنى الفرح والمرح ، والفوز والظفر ، ثم يبلغنا العجز ، ثم يعاودنا اليأس ، ثم نستأنف غناء الحزن والأسى ، وما نزال كذلك حتى نفرغ من الأمل والحياة ، أو يفرغ منا الأمل والحياة .

كل هذا أفهمه من هذه الأبيات الثلاثة الحزينة التي بدأ المتنبي بها قصيدته ، وما يعنيني أن يكون المتنبي قد أراد هذا أو لم يردده ، فأنا لا أطلب من الشاعر أن يفهمني ما أراد حقا ، وأنا لا أقيس براعة الشاعر بقدرته على أن يفهمني ما أراد حقا ، وإنما أريد من الشاعر البارع كما أريد من الموسيقى الماهر أن يفتح لي أبوابا من الحس والشعور ومن التفكير والخيال . وما أشك في أن المتنبي قد وفق إلى هذا التوفيق كله في هذه الأبيات :

وامض في قراءة الأبيات التي تأتي بعد هذا ، فسترى أن الشاعر ماض في تغني يأسه الممض وحزنه اللاذع وضيقه بهذا التشابه الممل .

أست ترى أن كل هذا الألم الذى يصوره ويشكو
منه لم ينشأ إلا عن هذا الفراق الذى نشأ عن رحيل واحد
فى الحياة ، فراق من الممكن أن يعقبه لقاء ، ورحيل من
الجائز أن يعقبه اجتماع الشمل . فكيف إذا أقبل الرحيل
الذى لا عودة منه ، والفراق الذى لا لقاء بعده ، كيف إذا
أقبل الموت فأتم اليأس إتماما وقطع الأمل قطعاً .

ثم انظر إلى هذا الشاعر ، وقد أحس أن أمه قد فاته ،
وأن غايته قد بعدت منه ، وأن الأسباب قد تقطعت به
دون غايته . فهو يتعلق بأرثها وأوهاها ؛ هو يتمنى أن يلقى
فى كل يوم روضة تهب عليها ريح الشمال ، لأن هذه
الروضة وهذه الريح ، هما اللتان تدنيانه من حبيبته وتقربانه
إليها بما تثيران فى نفسه من الذكرى ، هو يتعلق بالأسباب
الواهية فى فرحه كما يتعلق بالأسباب الواهية فى حزنه أيضا .
يتهيج بالروضة وريح الشمال كأنهما تحملان إليه روحا من
حبيبته ، ويشرق بالماء لأنه يذكره ماء آخر قد نزلت
عنده حبيبته ، وهو لا يستطيع إليه وصولاً . كذلك هو
يتهيج بالنصر لأنه يدنيه من أمه ، أو يخيل إليه أنه يدنو

من أمله ، وكذلك هو يبتئس بالنصر لأنه يثير في نفسه
صورة ذلك النصر الحق الذي يريد أن يبلغه فلا يستطيع .

وَإِنَّ رَحِيلاً وَاحِداً حَالَ بَيْنَنَا
وفي الموتِ مَنْ بَعْدَ الرَّحِيلِ رَحِيلُ
إِذَا كَانَ شَمُّ الرُّوحِ أَذْنَى إِلَيْكُمْ
فَلَا بَرَحَتْنِي رَوْضَةٌ وَقَبُولُ
وما شَرَقِي بالماءِ إِلَّا تَذَكُّرًا
لماءٍ بهِ أَهْلُ الْحَبِيبِ نُزُولُ
يُحَرِّمُهُ لَمَعُ الْأَسِنَّةِ فَوْقَهُ
فَلَيْسَ لِظَمَانٍ إِلَيْهِ وَضُولُ

وانظر إليه كيف يتحدث عن الليل والنجوم ، وعن
الصبح والحبيب في الأبيات التالية ، فسترى أن شكاة
الشاعر مستمرة ملحة ، وأن حزنه عميق بعيد ، وأن نفسه
ساعية جادة في هذه الطريق التي تظلم فتغمرها باليأس وتضيء ،
فتشير فيها الرجاء :

أما في النجوم السائرات وغيرها
 لعيني على ضوء الصبح دليل
 ألم ير هذا الليل عينيك رؤيتي
 فتظهر فيه رقة ونحول
 لقيت بدرب القلة الفجر لقيت
 شفت كمدى والليل فيه قتل
 ويومًا كأن الحسن فيه علامة
 بعثت بها والشمس منك رسول

وليس كل الناس شاعرا كالمتنبي ، وليس كل الناس
 يحس ما يحسه الشعراء من الحزن ويحب ما يحبه الشعراء من
 الغناء . وما أرى إلا أن المتنبي لو كان حرا يستطيع إرسال
 نفسه على سجيته لأطال غناؤه هذا الجميل ، ولاستخرج من
 اختلاف اليأس والأمل على قلوب الناس نفحات حلوة وألحانا
 مشجية ، ولكنه شاعر الأمير وترجمان هؤلاء الجند ، والأمير
 مترقب المدح ، والجند مترقبون للفخر والحماسة ، فليقطع
 الشاعر على قلبه الحزين غناؤه وليرض الأمير والجيش كما
 (م ١٠ — ج ٢)

أرضى نفسه ، وهو يخلص إلى المدح والوصف خلوصاً
جميلاً فيقول :

وَمَا قَبْلَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ أَتَارَ عَاشِقُ
وَلَا طُلِبَتْ عِنْدَ الظَّلَامِ دُخُولُ
وَلَكِنَّهُ يَأْتِي بِكُلِّ غَرِيبَةٍ
تَرُوقُ عَلَى اسْتِغْرَابِهَا وَتَهْوُلُ

رَمَى الدَّرْبَ بِالْجُرْدِ الْجِيَادِ إِلَى الْعَدَى
وَمَا عَلِمُوا أَنَّ السَّهَامَ خِيُولُ
شَوَائِلَ تَشْوَالِ الْعَقَارِبِ بِالْقَنَا
لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلُ

وما أظنك إلا راضياً عن تشبيه الخيل بالسهم مرة ،
ومعجباً بتشبيهها مرة أخرى ، وقد أديرت أسنة القنا نحو
أعجازها ، بالعقارب وقد شالت بأذنانها . وما أراك إلا محسباً
ما أحسه المتنبي من نشاط الخيل في هذه ، وإعلانها هذا
النشاط بالمرح والصهيل . ولكن امض في القراءة :

وَمَا هِيَ إِلَّا خَطَرَةٌ عَرَضَتْ لَهُ
بِحَرَافٍ لَبَّتْهَا قَنَا وَنُصُولُ

فقد خطرت الغارة إذن لسيف الدولة فجأة في حران ،
فلم يكده يدعو إليها حتى استجاب له الجيش واندفع في
الهجوم . فانظر إليه كيف يصور هذا الهجوم :

فَلَمَّا تَجَلَّى مِنْ دُلُوكِ وَصَنْجَةٍ
عَلَتْ كُلُّ طَوْدٍ رَايَةً وَرَعِيلُ
عَلَى طَرْقٍ فِيهَا عَلَى الطَّرْقِ رَفْعَةٌ
وَفِي ذِكْرهَا عِنْدَ الْأَنْبَسِ خُمُولُ

فأنت ترى الخيل وقد انتهت إلى آخر السهل المنبسط
عند دلوک وصنجة وإذا هي تصعد مرتقية في الجبال ، وإذا
هي تبلغ قمم الأطواد فتزحمها بنفسها وحركاتها كما تملأ الجو
بالرايات والأعلام . والعدو من هذا كله ساء لاه لا يعرف
مادبر له ولا يقدر ما سيق إليه .

ولكن اقرأ :

فَمَا شَعَرُوا حَتَّى رَأَوْهَا مُغِيرَةً
قَبَاحًا وَأَمَّا خَلَقُهَا فَجَمِيلُ
سَحَابُ يَمْطُرُنَ الْحَدِيدَ عَلَيْهِمْ
فَكُلُّ مَكَانٍ بِالسُّيُوفِ غَسِيلُ

فهم إذن قد أخذوا على غرة ، وصب عليهم الموت
من هذا العارض الذي أمطرهم حديدا ، وغسل أرضهم بما
صب عليها من السيوف .

وَأَمْسَى السَّبَايَا يَنْتَحِبْنَ بِعِرْقَةٍ
كَأَنَّ جُيُوبَ الثَّالِثَاتِ ذُيُولُ

وقد ملأ سيف الدولة يديه من الغنيمة والسبي ، وعاد
فخيل إلى العدو أن العاصمة قد أقلعت ، وأن العارض قد
انجلى ، وأن سيف الدولة قد انصرف عنهم ، وقد كان
سيف الدولة يريد أن ينصرف ، ولكنه وجد الطريق قد
أخذت عليه ، وهذا ما لم يقله المتنبي ولم يجزع سيف الدولة
ولم يضع وقته ، وإنما عاد أدراجه فأمطر العدو بأسا جديدا .
فانظر كيف يصور المتنبي هذا أجمل تصوير :

وَعَادَتْ فَظَنُّوْهَا بِمَوْزَارٍ قَفْلًا
وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الدُّخُولَ قَفْلًا
فَخَاضَتْ نَجِيعَ الْقَوْمِ خَوْضًا كَأَنَّهُ
بِكُلِّ نَجِيعٍ لَمْ تَخْضُهُ كَفِيلُ

تُسَايِرُهَا النِّيرَانُ فِي كُلِّ مَنَزِلٍ
بِهِ الْقَوْمُ صَرَعَى وَالْدِيَارُ طُلُوعُ
وَانْظُرْ كَيْفَ يَصُورُ الْمُتَنَبِّيَ كِرُورَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ عَلَيْهِمْ ،
وَاقْتِحَامَهُ مَلَطِيَّةَ مَرَّةٍ أُخْرَى :

وَكُرَّتْ فَمَرَّتْ فِي دِمَاءِ مَلَطِيَّةٍ
مَلَطِيَّةُ أُمِّ لِلْبَنِينَ تَكُولُ
وَأَضْعَفْنَ مَا كَلَّفَنَّهُ مِنْ قُبَابٍ
فَأَضْحَى كَأَنَّ الْمَاءَ فِيهِ عَلِيلُ
وَقَدْ انْتَهَى سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِجَيْشِهِ غَانِمًا مَظْفَرًا إِلَى الْفَرَاتِ .
فَانْظُرْ كَيْفَ يَصُورُ الْمُتَنَبِّيَ اقْتِحَامَ النَّهْرِ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ :
وَرُعْنَ بِنَا قَلْبَ الْفَرَاتِ كَأَنَّمَا

تَخْرُ عَلَيْهِ بِالرَّجَالِ سَيْوُلُ
يُطَارِدُ فِيهِ مَوْجَهُ كُلِّ سَابِحٍ
سَوَاءً عَلَيْهِ غَمْرَةٌ وَمَسِيلُ
تَرَاهُ كَأَنَّ الْمَاءَ مَرَّ بِجِسْمِهِ
وَأَقْبَلَ رَأْسَهُ وَحْدَهُ وَتَلِيلُ

على أن عبور الفرات لم يكن آخر الخطوب التي سيلقاها
الجيش قبل أن يبلغ مأمنه بما حوى من غنيمة وسبي .
فما زالت أمامه قلاع وحصون للروم يجب أن يفتحها
وقد فعل :

وَفِي بَطْنِ هَنْزِيْطٍ وَسُْمْنِيْنَ لِلظُّبَا
وَصُمِّ الْقَنَا مِمَّنْ أَبَدَنَ بَدِيْلُ
طَلَعْنَ عَلَيْهِمْ طَلْعَةً يَعْرِفُونَهَا
لَهَا غُرَرٌ مَا تَنْقُضِي وَحُجُولُ
تَمَلُّ الْحُصُونُ الشَّمُّ طُوْلَ نِزَالِنَا
فَتَلْقِي إِلَيْنَا أَهْلَهَا وَتَزُولُ

وانتهى سيف الدولة إلى حصن الران فيما يقول المتنبي
وإلى آمد فيما يقول المؤرخون . والمتنبي عندنا أصدق ، وقد
أراد سيف الدولة أن يريح خيله لا أن يستريح هو ، فقد
تعبت الخيل والجيش وهو جذع البصيرة ، قارح الاقدام
كما يقول قطري ، على أن الظروف أثبت له أن يستريح
أو يريح . فقد انتهت إليه الأنباء بأن الروم يصنعون في

بلاد المسلمين صنيعة في بلادهم ، فيغيرون على ما حول
أنطاكية . فلا بد إذن لسيف الدولة من أن يلحقهم أو يقطع
عليهم الطريق ، وقد نهض لذلك ووفق إليه . فانظر كيف
يصور المتنبي نهوضه وتوقيفه . وهو يبدأ بوصف الطريق
البعيدة الشاسعة ثم بإدراك العدو والإيقاع به :

وَبِتَّنَ بِحِصْنِ الرَّانِ رَزَحَى مِنَ الْوَجَى
وَكُلُّ عَزِيزٍ لِلْأَمِيرِ ذَلِيلُ
وَفِي كُلِّ نَفْسٍ مَا خَلَاهُ مَلَامَةٌ
وَفِي كُلِّ سَيْفٍ مَا خَلَاهُ فُلُولُ
وَدُونُ سُمَيْسَاطِ الْمَظَامِيرِ وَالْمَلَا
وَأَوْدِيَةِ مَجْهُولَةٍ وَهَجُولُ
لَبَسْنَ الدُّجَى فِيهَا إِلَى أَرْضِ مَرَعَشٍ
وَالرُّومِ خَطْبُ فِي الْبِلَادِ جَلِيلُ
وعند مرعش أدرك سيف الدولة جيش الروم ، وكان
في طليعة خيله :

فَلَمَّا رَأَوْهُ وَحَدَهُ قَبْلَ جَيْشِهِ
دَرَوْا أَنَّ كُلَّ الْعَالَمِينَ فُضُولُ

وَأَنْ رِمَاحَ الْخَطِّ عَنْهُ قَصِيرَةٌ
وَأَنَّ حَدِيدَ الْهَنْدِ عَنْهُ كَلِيلُ
فَأَوْرَدَهُمْ صَدْرَ الْحِصَانِ وَسَيْفَهُ
فَقَتَّى بِأَسْهُهُ مِثْلُ الْعَطَاءِ جَزِيلُ
جَوَادٌ عَلَى الْعِلَاتِ بِالْمَالِ كُلُّهُ
وَلَكِنَّهُ بِالْدَارِعِينَ بَخِيلُ
فَوَدَّعَ قَتْلَهُمْ وَشَمِعَ فَلَهُمْ
بَضْرِبٍ حُزُونُ الْبَيْضِ فِيهِ سُهُولُ
عَلَى قَلْبِ قُسْطَنْطِينٍ مِنْهُ تَعَجُّبُ
وَإِنْ كَانَ فِي سَاقِيهِ مِنْهُ كُبُولُ

فقد انتهت الموقعة وختمت القصة كما رأيت بهذا الانتصار
الذي انهزم له الروم وفر له قائدهم ، وقد ترك ابنه قسطنطين
أسيرا . ولكن الشاعر لم ينته بعد فلا بد له من أن ينذر
ويوعد ، ومن أن يسخر ويستهزئ ، ومن أن يتحدث
بالنذير والوعيد وبالسخرية والاستهزاء إلى هذا القائد المنهزم
وقد آثر نفسه وحياته على ابنه هذا الأسير :

لَعَلَّكَ يَوْمًا يَا دُمْسْتُقُ عَائِدٌ
فَكَمْ هَارِبٍ مِمَّا إِلَيْهِ يُؤُولُ
نَجَوْتَ بِإِحْدَى مُهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً
وَخَلَقْتَ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ
أَتَسْلِمُ لِلْخَطِيئَةِ ابْنَكَ هَارِبًا
وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ
بِوَجْهِكَ مَا أُنْسَاكَهُ مِنْ مُرِشَّةٍ
نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَّةٌ وَعَوِيلُ
أَغْرَاكُمْ طَوْلُ الْجِيُوشِ وَعَرْضُهَا
عَلَى شَرُوبٍ لِلْجِيُوشِ أَكُولُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْيَيْتِ إِلَّا فَرِيْسَةٌ
غِذَاهُ فَلَمْ يَنْفَعَكَ أَنَّكَ فِيلُ
إِذَا الطَّعْنُ لَمْ تَدْخِلْكَ فِيهِ شَجَاعَةٌ
هِيَ الطَّعْنُ لَمْ يُدْخِلْكَ فِيهِ عَذُولُ
وَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ أَبْصَرْنَ صَوْلَةً
فَقَدْ عَلِمَ الْأَيَّامُ كَيْفَ تَصُولُ

وقد فرغ المتنبي من حديث الروم بهذا البيت والتفت
إلى أعداء سيف الدولة من ملوك المسلمين ، ثم إلى أعدائه
هو من الشعراء المنافسين ، ولكننا ندع ذلك الآن لنعود
إليه بعد حين .

وكم كنت أريد أن أقف عند قصائد أخرى من هذا
الشعر ربما كانت أقل من هذه القصيدة روعة وجمالا ،
ولكن لها مكانها الرفيع من التفوق والامتياز ، لا بين
شعر المتنبي وحده ، بل بين الشعر العربي كله .

ولكني قد أطلت في الحديث عن هذا الشعر الذي
هو خليق أن يفرد لدرسه كتاب خاص .

وأنا أحب على كل حال أن تقرأ في مثل هذا التدبر
والتحليل من هذا الشعر القصائد التي أولها :

✓ عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ

وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

✓ أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الْأَنَامِ هُمُ
وَسَحَّ لَهُ رُسُلَ الْمُلُوكِ غَمَامُ

✓ ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلُوْنَ مَنْ تَعَالَى
هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا

✓ الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ
هُوَ أَوَّلُ وَهِيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي

٨

وللمتنبي في سيف الدولة شعر لم يعن به الذين درسوا
الشاعر وديوانه حق العناية إلى الآن ، مع أنه فيما أعتقد
خليق بالعناية كلها ، لأن له أثرا عظيما جدا فيما سيستقبل
المتنبي من الحياة في مصر والعراق .

والشراح والنقاد معذورون في إهمالهم لهذا الشعر ، لأنه
لم يستقل بقصيدة من القصائد ، ولا بمقطوعة من المقطوعات
وإنما جاء عرضا في قصائد المدح والوصف لما كان من
جهاد سيف الدولة لعدوه من الروم ، أو للتأثرين عليه من
العرب . وهو الشعر الذي عرض فيه المتنبي بأصحاب السلطان
في مصر والعراق تعريضا خفيا مرة ، وواضحا يكاد يبلغ
التصریح مرة أخرى . وخطر هذا الشعر يأتي من أنه يعيننا
على أن نفهم ما لقيمه المتنبي في مصر من الإعراض ،
وما انتهى إليه من الإخفاق ، وما اضطر إليه آخر الأمر
من الهرب ، كما يعيننا على أن نفهم ما لقي المتنبي من الفتور

في العراق ، ثم من العداوة الصارخة في بغداد خاصة .
ولست أزعم أنني أستطيع أن أوضح أمر هذا الشعر كما
أحب وكما ينبغي أن يتضح ، ولكنني أكتفي بالإشارة إليه
والدلالة على بعضه . وأرجو أن يسمح الوقت لي أو لغيري
باستئناف الحديث فيه ، والرجوع به إلى أصوله القريية
والبعيدة من مصادر التاريخ .

وقد رأيت في حديثنا عما قال المتنبي من الشعر
لسيف الدولة ، حين ثار به الثائرون من القرامطة ، ثم من
رعيته البدو ، أنه لم يكن يمتنع عن التعريض بالذين كانوا
يؤلمون هؤلاء الثائرين أو يغرونهم من بعيد . وهؤلاء
المؤلمون كما يمكن أن يكونوا من عمال سيف الدولة نفسه
يمكن أن يكونوا من أهل العراق أو من عمال المصريين في
جنوب الشام . على أن تعريض المتنبي بهؤلاء السكاكين في
ذلك الشعر لم يكن واضحاً كله . ومن شعر المتنبي ما هو
أوضح منه وأظهر وأدنى إلى التصريح الذي لا يحتمل شكاً
ولا لبساً .

ويخيل إليّ أن المتنبي قد دفع إلى هذا بدافعين : أحدهما

أنه حين كان يمدح سيف الدولة ويعجب بمضائه وحسن
بلائه لم يكن يملك نفسه أن يعيب أولئك الملوك الآخرين
الذين ينعمون بالحياة واللين ، وسعة الملك ، وضخامة الثروة ،
في غير مشقة ولا جهد . والآخرون سيف الدولة نفسه
كان يظهر على بعض ما يدبر له من الكيد في العراق
أو في مصر ، وكان الأمر يفسد أو يدنو من الفساد بينه
وبين بغداد أو القسطنطينية ، فيغري شاعره بأن يمس هذه
الناحية من نواحي السياسة الإسلامية ، لينذر أو يعذر
أو يغيظ .

وقد نستطيع أن نعد من هذا الشعر قصيدتين قالهما
المتنبي يمدح بهما سيف الدولة حين فسد الأمر بين أخيه
ناصر الدولة في الموصل وبين معز الدولة البويهى في بغداد .
ولكن الشاعر في هاتين القصيدتين لم يكن واضح
التعريض ، وإنما أثر التعميم واكتفى بالمدح الذى يظهر
البأس والقوة ، ولا يخرج مادحا ولا ممدوحا ، كما أن
سيف الدولة نفسه أظهر الاستعداد لنصر أخيه دون أن
يزحف بجيشه نحو الموصل .

فكان الأمر لم يزد في هذه المرة على أن يكون وعيدا
من بعيد ، ولكن هناك مواقف أخرى لا يحتمل الأمر
فيها شكاً ولا مرأى .

فلننظر قبل كل شيء إلى أول ما عمد إليه المتنبي من
التعريض حين فسد الأمر بين ناصر الدولة وبين معز الدولة
البغدادى .

فاقرأ هذه الأبيات فسترى المتنبي يصور فيها اضطراب
الأمر في الموصل ، وما أدى إليه ذلك من وحشة في حلب
ومن فساد العلاقة بينها وبين بغداد ، ثم ينتقل من هذا
التصوير إلى التهديد والوعيد :

عَلَى الْفُرَاتِ أَعَاصِيرٌ وَفِي حَلَبٍ
تَوْحُشٌ لِمُلَقَى النَّصْرِ مُقْتَبِلِ
تَتَلَوُ أَسِنَّةُ الْكُتُبِ الَّتِي نَفَذَتْ
وَيَجْعَلُ الْخَيْلَ أَبْدَالاً مِنَ الرُّسُلِ
يَلْقَى الْمُلُوكَ فَلَا يَلْقَى سِوَى جَزَرٍ
وَمَا أَعَدُّوا فَلَا يَلْقَى سِوَى نَقَلٍ

وسيف الدولة مصانع للخليفة ، مكبر لسلطانه مع ذلك
لا يريد أن يؤذيه ولا أن يظهر خروجاً عليه ، فيقول المتنبي
في تصوير ذلك هذا البيت :

صانَ الخَلِيفَةُ بالأبطالِ مُهْجَتَهُ

صِيَانَةَ الذِّكْرِ الهِنْدِيِّ بِالْخِلَلِ

وانظر إلى هذه الأبيات الثلاثة التي يعود فيها المتنبي
إلى الوعيد ، ويعلن أن الأمير عالم بما يكاد وما يراد في عاصمة
الخلافة :

يَنَالُ أَبْعَدَ مِنْهَا وَهِيَ نَازِرَةٌ

فَمَا تُقَابِلُهُ إِلَّا عَلَى وَجَلٍ

قَدْ عَرَّضَ السَّيْفَ دُونَ النَّازِلَاتِ بِهِ

وظَاهَرَ الْحَزْمَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْغَيْلِ

وَوَكَّلَ الظَّنَّ بِالْأَسْرَارِ فَانْكَشَفَتْ

لَهُ ضُمُورُ أَهْلِ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

وكان إذاعة الأخبار بأن سيف الدولة يريد أن يزحف
للمصر أخيه لا تكفي في إنذار بغداد ورفع الضغط عن الموصل

فيظهر سيف الدولة أنه آخذ في الزحف ، ويطلب إلى
المتنبى أن يصحبه ويتقدم إليه ، سرا في أكبر الظن ، أن
يقول في ذلك شعرا . فيقول المتنبى قصيدة أخرى تأتي
فيها هذه الأبيات :

وَلَهُ وَإِنْ وَهَبَ الْمُلُوكُ مَوَاهِبُ

دَرُّ الْمُلُوكِ لِدَرِّهَا أَغْبَارُ

لِلَّهِ قَلْبُكَ مَا تَخَافُ مِنَ الرَّدَى

وَيَخَافُ أَنْ يَدْنُو إِلَيْكَ الْعَارُ

وَتَحِيدُ عَنْ طَبَعِ الْخَلَائِقِ كُلِّهِ

وَيَحِيدُ عَنْكَ الْجَحْفَلُ الْجَرَّارُ

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَى الْأَعِزَّةِ جَارُهُ

وَيَذِلُّ مِنْ سَطَوَاتِهِ الْجَبَّارُ

وكان وعيد سيف الدولة هذا قد انتهى إلى غايته ،

فصلح الأمر بين الموصل وبغداد .

ولما نهض سيف الدولة لقتال الروم ، وأتم بناء مرعش

مدحه المتنبى بيائيمته المعروفة ، ولكنه ختم هذه البائية

بأبيات لا يعرض فيها بمنافسيه من ملوك الإسلام ، وإنما
يصرح بذهمهم تصرّحاً ، ويسبهم في غير احتياط ، ويخص
المصريين بشيء قاس من هذا الذم . وذلك حيث يقول :

كَفَى عَجَبًا أَنْ يُعْجَبَ النَّاسُ أَنَّهُ

بَنَى مَرَعَشًا تَبًّا لِأَرَائِمِهِمْ تَبًّا

وما الفرقُ ما بين الأنامِ وبينه

إذا حَذَرَ الحَذُورَ واستَصْعَبَ الصَّعْبَا

لَأَمْرِ أَعَدَّتْهُ الْخِلَافَةُ لِلْعَدَى

وَسَمَّتْهُ دُونَ الْعَالَمِ الصَّارِمِ الْعَضْبَا

ولم تَفْتَرِقْ عَنْهُ الْأَسِنَّةُ رَحْمَةً

ولم تَتْرُكِ الشَّامَ الْأَعَادِي لَهُ حُبًّا

ولكنْ نَفَاها عَنْهُ غَيْرَ كَرِيمَةٍ

كَرِيمُ الثَّنَا مَا سُبَّ قَطُّ وَلَا سَبًّا

وَجَيْشٌ يُثَنَّى كُلَّ طُودٍ كَأَنَّهُ

خَرِيقُ رِيحٍ وَاجَهَتْ غُصْنًا رَطْبًا

كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ خَافَتْ مُغَارَهُ
فَمَدَّتْ عَلَيْهَا مِنْ عَجَاجَتِهِ حُجُبًا
فَمَنْ كَانَ يُرْضَى اللُّؤْمُ وَالْكَفَرُ مُلْكُهُ
فهذا الذي يُرْضَى الْمَسْكَارِمَ وَالرَّبَّا

فهو كما ترى يسب الذين أكبروا من سيف الدولة
بنائه مرعش ، وهو كما ترى أيضا مصانع للخلافة ، لا يعرض
لصاحبها بأذى ، ولكنه يصارح المصريين بالعداء ، فيعلن
أنهم لم يتركوا ما تركوا من الشام لسيف الدولة كرامة ولا
حبا ، وإنما نفاهم عنها نفيا . ثم يختم القصيدة ببيت ما أرى
إلا أنه قصد به إلى معز الدولة ؛ فرماه بأنه يقيم ملكه على
اللؤم والكفر . على حين يقيم سيف الدولة ملكه على
ابتغاء مرضاة الله .

فإذا كانت سنة اثنتين وأربعين ؛ وقال المتنبي لاميته
الرائعة ، التي أطلنا الحديث عنها في الفصل الماضي عرض
لمنافسى سيف الدولة بهذين البيتين اللذين كان لهما أبعاد الأثر
في حياة المتنبي من الناحية السياسية والأدبية جميعا ،
وهما قوله :

فَدَتَكَ مُلُوكٌ لَمْ تُسَمَّ مَوَاضِيَا
فَإِنَّكَ مَاضِي الشَّفَرَتَيْنِ صَقِيلُ
إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ
فَفِي النَّاسِ بُوقَاتٌ لَهَا وَطُبُولُ

ومعز الدولة وحده هو المعنى بهذين البيتين ، ما أشك في
في ذلك . فهو قد لقب بلقب يضاف إلى الدولة ، ولكنه
ليس ماضيا ولا عضبا ، وإنما هو لفظ ضخم لا يغني شيئا ،
والبيت الثاني صريح في ذلك ؛ فقد جعل المتنبي أمير حاب
سيفا للدولة يحميها ويدود عنها ، على حين أن منافسه في
بغداد لا يزيد على أن يعلن عن الدولة أو عن نفسه بالبوقات
والطبول .

وقد كان أثر هذا البيت عميقا جدا في الشرق الإسلامي
كله ، وفي بغداد خاصة . فقد ذكر هذا البيت حين وصل
المتنبي إلى بغداد في آخر حياته ، وعيب عليه فيها وفي غيرها
من بلاد الشرق الإسلامي ، وإذا لم تكذبني الذاكرة فقد
عابه الصاحب بن عباد .

والغريب أن النقاد الأدباء مضوا مع أصحاب السياسة
في إنكار هذا البيت فعابوه ، مع أنني لا أعرف هجاء أقذع
ولا أوجع ، ولا سهما أنفذ من هذا البيت الذي هو عندى
من روائع المتنبي .

وفي هذه السنة نفسها عاد المتنبي إلى هذا النحو من
الكلام ، ولكنه خالف ما كان قد مضى عليه من رأى
وسنة ، بأمر سيف الدولة في أكبر الظن . فقد كان المتنبي
إلى الآن يوقر الخليفة ولا يعرض له بالسوء . فأما في هذه
القصيدة التي أنشدها سيف الدولة ، في ميدان حلب عند
عرض الجيش ، وهما على فرسيهما ، مهنئاً له بعيد الأضحى ، فإنه
يهاجم الخليفة تصرّيحاً لا تلميحاً ، ويرسل إليه نذيراً لا لبس
فيه . وذلك حيث يقول :

فَوَا عَجَبًا مِنْ دَائِلِ أَنْتَ سَيْفُهُ
أَمَا يَتَوَقَّى شَفَرَتِي مَا تَقْلَدَا
وَمَنْ يَجْعَلِ الضِرْغَامَ لِلصَّيْدِ بَازَهُ
تَصَيِّدُهُ الضِرْغَامُ فِيمَا تَصَيِّدَا

رَأَيْتُكَ مَحْضَ الْحِلْمِ فِي مَحْضِ قُدْرَةٍ
وَلَوْ شِئْتَ كَانَ الْحِلْمُ مِنْكَ مُهِنْدًا
وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ
وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتُهُ
وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا
مُضِرٌّ كَوَضَعَ السَّيْفُ فِي مَوْضِعِ النَّدَى
وَلَكِنْ تَفُوقُ النَّاسَ رَأْيًا وَحِكْمَةً
كَمَا فَتَقَهُمْ حَالًا وَنَفْسًا وَمَحْتَدًا
يَدِيقُ عَلَى الْأَفْكَارِ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ
فَيُتْرَكُ مَا يَخْفَى وَيُؤْخَذُ مَا بَدَا

فهو كما ترى صريح لا يعرض ولا يورى ، وإنما يسخر
من الخليفة الذي يتقلد سيفاً ، ويوشك أن يقتله ، ويرسل
للصيد جارحاً ، ويوشك أن يصيده ، وهو يغرى سيف الدولة
بهؤلاء الذين عفا عنهم فأبطروهم العفو وأمهلهم فغرهم الإمهال

واضطنec معهم الحلم فظنوه عجزا وآثرهم بالكرامة فتلقوه باللؤم
والجحود . وهو يعجب من أناة سيف الدولة وحلمه ويحذره
مع ذلك عاقبة ذلك الحلم وهذه الأناة ، ويثق برأيه آخر
الأمر في كلام يملؤه الوعيد .

وبعد أن أنشد هذه القصيدة بوقت قصير في سنة
ثلاث وأربعين بالضبط ، أدخل سفراء الروم على سيف الدولة
وأنشده المتنبي رائيته التي ذكرناها آنفا ، وقال فيها هذين
البيتين :

قد استراحتْ إلى وقتٍ رِقَابُهُمْ
منَ السُّيُوفِ وباقي القومِ يَنتَظِرُ
وقد تَبَدَّلَها بالقومِ غَيرَهُمْ
لِكي تَجمَّ رُؤُوسُ القومِ والقَصرُ

فلمن هذه الرقاب التي أينعت وحن قطافها ، ويوشك
سيف الدولة أن يكون صاحبها أثناء ابقائه على الروم .
أهي رقاب أهل بغداد ؟ أهي رقاب أهل الفسطاط ؟ أم هي
رقاب الكلايين الذين ثاروا بسيف الدولة وأدبهم في نفس
هذا العام .

وفي آخر قصيدة أنشدها المتنبي بحلب قال هذه الأبيات
التي لا شك في أنه لم يرد بها إلا أهل العراق :

أَلْهَى الْمَالِكَ عَنْ فَخْرٍ قَفَلَتْ بِهِ

شُرْبُ الْمُدَامَةِ وَالْأَوْتَارُ وَالنِّعَمُ

مُقَلِّدًا فَوْقَ شُكْرِ اللَّهِ ذَا شُطْبٍ

لَا تُسْتَدَامُ بِأَمْضَى مِنْهُمَا النِّعَمُ

أَلْقَتْ إِلَيْكَ دِمَاءَ الرُّومِ طَاعَتَهَا

فَلَوْ دَعَوْتَ بِلَا ضَرْبٍ أَجَابَ دَمُ

ثم خرج المتنبي من حلب مغاضبا ، وأقام عند كافور
ما أقام وعاد إلى العراق . واستأنف سيف الدولة بره به
وعطفه عليه ، فأنفذ إليه هدية ، وشكر المتنبي هذه الهدية
في لاميته المشهورة التي قال فيها معرضا ومصرحا وغير حافل
بمكانه من العراق وقربه من أولى الأمر في بغداد :

لَيْسَ إِلَّاكَ يَا عَلِيَّ هُمَامٌ

سَيْفُهُ دُونَ عَرِضِهِ مَسْأُولُ

كَيْفَ لَا تَأْمَنُ الْعِرَاقُ وَمَصْرُ

وَسَرَائِكَ دُونَهَا وَالْخِيُولُ

لَوْ تَحَرَّفْتَ عَنْ طَرِيقِ الْأَعَادِي
رَبَطَ السِّدْرُ خَيْلَهُمْ وَالنَّخِيلُ
وَدَرَى مَنْ أَعَزَّهُ الدَّفْعُ عَنْهُ
فِيهِمَا أَنَّهُ الْحَقِيرُ الذَّلِيلُ
أَنْتَ طُولَ الْحَيَاةِ لِلرُّومِ غَازٍ
فَتَى الْوَعْدُ أَنْ يَكُونَ الْقُفُولُ
وَسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ
فَعَلَى أَيِّ جَانِبِكَ تَمِيلُ
قَعَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنْ مَسَاعِيهِ
لَكَ وَقَامَتْ بِهَا الْقَنَا وَالنُّصُولُ
| مَا الَّذِي عِنْدَهُ تَدَارُ الْمَنَايَا
X كَالَّذِي عِنْدَهُ تَدَارُ الشُّمُولُ

X وهذا البيت الأخير صائب قد أرسل مباشرة إلى
صدر صاحب الأمر في بغداد .

وفي آخر سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة تلقى المتنبي من
سيف الدولة كتابا بخطه يسأله المسير إليه فأرسل إليه بأئنته

المشهوره وقال في آخرها :

أَرَى الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِي

نَ إِمَّا لِعَجْزٍ وَإِمَّا رَهَبٍ

وَأَنْتَ مَعَ اللَّهِ فِي جَانِبٍ

قَلِيلُ الرُّقَادِ كَثِيرُ التَّعَبِ

كَأَنَّكَ وَحْدَكَ وَحَدَّثَهُ

وَدَانَ الْبَرِيَّةُ بَابٍ وَأَبٍ

فَلَيْتَ سُيُوفَكَ فِي حَاسِدٍ

إِذَا مَا ظَهَرَتْ عَلَيْهِمُ كَيْبُ

وَلَيْتَ شَكَاتَكَ فِي جِسْمِهِ

وَلَيْتَكَ تَجْزِي بُغْضٍ وَحُبٍ

فهو كما ترى يكاد يقصر الإسلام على سيف الدولة

الكثرة ما يجاهد الروم في سبيله ، ويكاد يرمى المسلمين

المنافسين له بالنصرانية لكثرة ما قصروا عن هذا الجهاد .

ومن عسى أن يكون هذا الحاسد الذي يعرض به المتنبي

ولا يسميه ؟ أتراه يقصد إلى كافور ؟ أم تراه يقصد إلى

معز الدولة ؟

والغريب أنه ينفذ هذه القصيدة إلى صديقه القديم في
الوقت الذي يتهياً فيه ليعين في الشرق الإسلامي زائراً
لابن العميد ، ثم لعرض الدولة .

ومهما يكن من شيء فقد يكشف التاريخ لنا يوماً عما
كان لهذا الشعر السياسي من أثر في علاقات هؤلاء الأمراء
من المسلمين ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أننا
نعرف ما كان له من أثر في حياة المتنبي نفسه حين قصد
إلى كافور وحين لجأ إلى العراق .

وفن آخر قال فيه المتنبي لسيف الدولة شعرا كثيرا ،
ولكني أمر به دون أن أقف عنده ، لأنه فيما أرى لا يكاد
يستأهل عناية أو درسا ، وهو عندي أسخف ما قال المتنبي
لسيف الدولة من الشعر . وهو قد قال مثله للأمراء الذين
اتصل بهم وعاش في ظلهم ، وقد رأيت أطرافا مما قال من
ذلك لعل بن إبراهيم التنوخي ، ولبدر بن عمار ، وللامير
الاخشيدى ، ولأبي العشائر .

وهو هذا الشعر الذي ينزل فيه الشاعر عن كرامته دائما ،
وعن مروءته أحيانا ، ويبيع فيه فنه لمولاه بيعا دنيئا .

أريد به شعر المناسبات الذي يقوله الشاعر مدفوعا إليه
بالتلق مرة ، وبالحوف مرة أخرى ، وبالمناسبة مرة ثالثة ،
وبالطاعة رابعة على هذا النحو .

وكان الأمراء في هذا العصر قساة على شعرائهم فيما يظهر
يكفونهم ما يطيقون وما لا يطيقون ، ينتظرون منهم المدح

حين ينشطون له ، وحين يفترون عنه . ويريدونهم على
أن يقولوا لهم الشعر فيما يستحق وما لا يستحق أن يقال
الشعر فيه .

وكان الشعراء طيعين مذعنين أذلة يدفعهم إلى ذلك
الرغب والرهب جميعا . وقد رأيت كيف أبطأ المتنبي عن
مدح الاخشيدى الشاب ، فعاتبه في هذا الإبطاء ، واضطر
الشاعر البأس إلى الاعتذار ، وكذلك فعل سيف الدولة .
فاستبطأ مدح شاعره حينما ، وتعلل عليه أحيانا ، واقترح عليه
غير مرة موضوعات يقول فيها الشعر ارتجالا ؛ منها القيم ، ومنها
السخيف . وكان المتنبي البأس يذعن للأمر فيوفق مرة ،
ويخطئه التوفيق مرات . فهذا بيت للعباس بن الأحنف
يطلب منه أن يحيزه ، وهذا بيت آخر للعباس الصولى
يطلب منه أن يحيزه أيضا ، وهذا المؤذن يدعو إلى الصلاة
فيدرك الأمير وفي يده الكأس ، ولا بد المتنبي من أن يقول
في ذلك شعرا وإلا سبقه غيره من الشعراء المنافسين إلى رضا
الأمير وحبائه ، وهذا سحاب يسقط والأمير في بعض أسفاره ،
فلا بد المتنبي من أن يفضل سيب الأمير على فيض السحاب ،

وهذه خيمة الأمير تعصف بها الريح فتسقط فيتشائم الأمير ،
ويتحدث بذلك الناس ، ولا بد للمتنبى من أن يعتذر عن
هذه الخيمة البائسة التي عصفت بها الريح ، ومن أن يتأذن
للأمير بأن هذه الحادثة آية من الله تؤذن بنصره القريب ،
واعتراف من الخيمة بأن شخص الأمير أضخم وأعظم وأرفع
من أن تظله الخيام .

والأمير مريض فيجب أن يرثي الشاعر له ويشفق
عليه ، ويتمنى له الشفاء . وقد شفى الأمير ، فيجب أن
يهنئه الشاعر ويتمنى له مزيدا من العافية وفضلا من
طول البقاء .

وقد قلت إني لا أحفل بهذا الشعر ولا أطيل عنده
الوقوف ، ولكني أحب مع ذلك أن أنبه من يقرأ شعر
المتنبى ، ويدرس حياته ، إلى أن لهذا الشعر السخيف خطرا
عظيما من ناحيتين :

الأولى : الناحية الفنية الخالصة . فأكثر هذا الشعر
كان يرتجل ارتجالا ، ولا يتهيا الشاعر له ولا يعنى به .
وهو من هذه الجهة يصور طبع الشاعر كما هو دون أن يعمل

فيه الاحتفال لقول الشعر ، والتهيو لنظم القصيد .

وكان طبع المتنبي كما يصوره هذا الشعر الذي قاله لسيف الدولة ولغيره ، سمحا سهلا خصباً يواتى صاحبه في غير مشقة وقد يغمره حتى يشرف به على الغرق . وليس من شك في أن المتنبي لم يحتفظ من فيض هذا الطبع الخصب إلا بأقله وترك أكثره يذهب به الزمان .

كان طبع المتنبي خصباً ، ولكنه لم يكن صافياً دائماً ، وكان ذوق المتنبي حسناً ، ولكن بشرط أن يتهياً للنقد ويشفق من الناقدين . فأما إذا أرسل الشاعر نفسه على سجيته ، فقد كان شعره يتدفع تدفع السيل ويحمل كثيراً من الفساد .

والناحية الثانية : أن هذا الشعر كان موضوع التنافس بين الشعراء والتسابق بين الندماء . كلهم يريد أن يكثر منه ويجيد فيه ليظفر بما يحرص عليه من رضا الأمير ونائله . وكان أعظمهم حظاً من هذا الظفر ، محسداً بما ينال من الرضا والمال ، وكان المتنبي من غير شك أخصب الشعراء الذين لزموا سيف الدولة ، وأغزروهم مادة ، وأسرعهم بديهة ،

وأسبغهم إلى عطف الأمير ومشوبته . فإذا أضفنا إلى هذا
تفوقه الذي لا شك فيه حين كان يلقي قصائده الرسمية في
الحفل ، لم يصعب علينا أن نفهم ما أحاط بالمتنبى منذ
اتصل بسيف الدولة من كيد ومكر وحسد ، نغص عليه
حياته في كثير من الأوقات ، وعرض صلته مع سيف الدولة
للخطر يوما ما ، ثم عرض حياة المتنبى نفسها للخطر حينما
ثم انتهى بما لم يكن بد من الانتهاء إليه ، وهو القطيعة
بين الشاعر والأمير .

١٠

وليس العجيب ، وقد عرفت ما كان بين سيف الدولة
والمتمني من صلة ، أثناء هذه الأعوام الطوال التي اصطحبا
فيها ، أن تفسد حياة المتمني عند الأمير من حين إلى حين ،
وإنما العجيب أن تسلم وتستقيم وتبرأ من الاضطراب والفساد
وقد رأيت أن المتمني لم يأمن حسد الحساد حين اتصل
بالتنوخيين في شبابه ، فاضطر إلى أن يدافع عن نفسه ورأيت
كذلك أنه لم يأمن الحسد والكيد عند بدر ، فاضطر
إلى الهرب والفرار . ورأيت أيضا أنه لم يأمن الكيد والدس
عند أبي العشائر ، ولكنه ثبت للكائدين والدساسين وأخذهم
بالقوة والحزم ، وظهر عليهم حتى اتصل بسيف الدولة .

وهذا يفسر ما قدمناه من أنه لم يلق بنفسه على أمير
حلب إلقاء ، وإنما سعى إليه راغبا فيه ، محتاطا منه ،
فلما أنشده ميميته المعروفة لم يتهالك فيها ، وإنما وقف
موقف الحذر المعتز بنفسه ، وأقدم إقدام المهاجم لخصومه

الخوف للذين لم يعرفوه بعد ، حتى إذا كاد ينتهى من قصيدته
قال مهاجما للشعراء فى غير ريث ولا مهل ولا ظرف :

غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ

بلا واصفٍ والشعر تهذى طمأطمه

وَكُنْتُ إِذَا يَمْتُ أَرْضًا بَعِيدَةً

سَرَيْتُ فَكُنْتُ السِّرَّ وَاللَّيْلُ كَاتِمُهُ

فهو إذن قد دخل القصر على أصحاب سيف الدولة

غازيا لا ضيفا ، واتصل بحاشية الأمير مخاضا لا مسالما .

والرواة يقولون ، كما عرفت ، إنه اشترط لنفسه قبل أن
يلزم الأمير ، وأن الأمير قبل شروطه ، ثم لم يلبث أن
ملك قلب الأمير واستأثر بحبه ومودته ، فليس غريبا أن
تكراه حاشية الأمير ، ولا سيما الشعراء والأدباء من بينها ،
مقدم الشاعر وما صحبه من تهجم واستعلاء . وليس غريبا
أن تضيق بالشاعر أشد الضيق حين ترى أن شعره يقع
من الأمير موقعا حسنا ، ثم تبغضه أشد البغض حين ترى
الأمير يؤثره أشد الإيثار . وهى مكرهة على أن تظهر الصمت

عن هذا الشاعر الوقح الذي يسوءها في نفسها وفي مكانتها
من صاحب القصر . ثم يستأثر من دونها بالخطوة ، ثم
يرتفع عنها فيما يمنح الأمير من الجوائز والعطاء . ثم يلزم
الأمير بعد ذلك لزوم الظل حين يظعن وحين يقيم . ثم هو
بعد هذا كله لا يزداد إلا طموحا وجموحا ، وإلا علوا
واستكبارا . وكلما أحس حب الأمير له وتقريبه إياه ازداد
ازدراؤه لغيره ، واحتقاره لكل من سواه .

ثم هو لا يكاد يقول شعرا حتى يمتلئ به غرورا وكبرا
ولا يدع لشعره أن يرفع نفسه على الشعر كله ، وأن يرفع
صاحبه على الشعراء جميعا ، وإنما يرفع شعره ونفسه بهذا
البيت وذاك ، يدسه في هذه القصيدة أو تلك . وهو
لا يكتفى برفع نفسه والفخر بها ، ولكنه لا يرفع نفسه
إلا جد في وضع غيره ، ولا يحمّد شعره إلا ذم شعر الشعراء
الآخرين .

وهو كما عرفت لم يستطع أن يقيم عند بدر إلا أشهراً
ثم انهزم للكائدين ، ولم يطل مقامه عند أبي العشائر ، ولم
تظهر نتيجة الخصومة بينه وبين أعدائه عند هذا الأمير قبل

أن يتصل بسيف الدولة ، وكان من الجائز ألا تطول إقامته
عند سيف الدولة ، وأن يفسد الأمر عليه بعد عام أو عامين
بتأثير هذه الأخلاق والحاصل التي قدمناها ، وما تستتبع من
الكيد له والتألب عليه . ولكنه أقام عاما وعاما ثالثا ،
والحاشية تفكره وتضيق به ، وتبغضه وتكيد له ، وهو
ثابت لا يتزعزع ، ومستقر لا يزول .

والأمير يرفعه ويدنى منه مكانه ، ويؤثره على غيره
من الشعراء والندماء ، فلا تزداد الحاشية إلا ضيقا به ،
وكيدا له ، حتى إذا كانت الموقعة التي انتصر فيها
سيف الدولة انتصارا باهرا أول الأمر ، وانهمزم فيها آخر
الأمر انهزاما منكرا ، وقال المتنبي عينيته التي يعزى بها
الأمير وينذر بها الروم ، كان شديد الوطأة على الجند الذين
تفرقوا عن الأمير وانهمزوا للروم ، فقد وصفهم بالضعف
والجبن والذلة . واستيأس منهم أو كاد يستيأس ، وأيأس الأمير
منهم أو كاد يؤسسه .

وليس من شك في أن كثيرا من الأشراف الذين
انهمزوا في تلك المعركة لم يقع من أنفسهم ما قاله المتنبي موقعا

حسننا ، فأنكروه وكرهوه ، واتهز أعداء المتنبي وحساده هذه
الفرصة ، فسعوا به ، وألبوا عليه ، وكثر كلام الناس في
المتنبي ، واجترأ بعض الشعراء على أن يجاهره بالعداوة بعد
أن كان يسر له البغضاء ويدبر له الكيد .

ولسنا نعرف تفصيل ما حدث من هذا كله ، ولكننا
نلاحظ أن المتنبي حين هنا سيف الدولة بأخذ الثار من الروم
وانتصاره عليهم سنة أربعين وثلاثمائة ، يقول في داليتة
المشهورة :

خَلِيلِيَّ إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ

فَكَمْ مِنْهُمْ الدَّعَوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ

فَلَا تَعْجَبَا إِنَّا السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ

وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ

فهناك إذن شعراء يدعون الشعر ويكاثرون فيه المتنبي .

والمتنبي يصوب إليهم هذا السهم النافذ ، فيرى أنه الشاعر
وأنهم الأدعياء ، ويرى أن قصائده هي الشعر ، وأن جهود
غيره لا تتجاوز أن تكون دعوى لا طائل تحتها . فكما أن

السيوف كثيرة ، ولكن سيف الدولة واحد ، هو الأمير .
فالناظمون كثيرون ، ولكن الشاعر واحد هو المتنبي .
ثم يمضي المتنبي في مدح الأمير ، ولكنه يعود إلى هؤلاء
الحساد والكائدين فيقول :

أُحِبُّكَ يَا شَمْسَ الزَّمَانِ وَبَدْرَهُ

وإن لأمنى فيكَ السُّهَى والفراقُ

وَذَاكَ لِأَنَّ الْفَضْلَ عِنْدَكَ بَاهِرٌ

وَلَيْسَ لِأَنَّ الْعَيْشَ عِنْدَكَ بَارِدٌ

فإنَّ قَلِيلَ الْحُبِّ بِالْعَقْلِ صَالِحٌ

وإن كثيرَ الْحُبِّ بِالْجَهْلِ فَاسِدٌ

فهو في البيتين الأولين من هذه الأبيات الثلاثة يعرض
لسيف الدولة في لباقة وظرف ، بأن أمراء غيره يلومونه في
الانقطاع لصاحب حلب ، ومنهم مرتفع القدر ومعتدله .
ولكنه لا يحفل بلوم هؤلاء الأمراء ، ولا يستجيب
لإغرائهم لا إثارة لما يمنحه الأمير من لين العيش وخفضه
بل إكبارا لفضل الأمير ومجده ، وتفوقه على غيره من الأمراء .

أما البيت الثالث ، ففيه إنذار لخصومه والساعين به
عند الأمير ، وإنذار للأمير نفسه ، لأن هؤلاء الذين
يظهرون الغلو في حب الأمير وتهالك عليه ، قد يحتاجون
إلى كثير من العقل ، لأن غلوهم وتهالكهم ربما أساء إلى
الأمير ، على حين أن الاعتدال في الحب مع العقل ، والنصح
خير كله .

ومعنى هذا أن خصوم المتنبي لم يكتفوا بالجهر بعداوته ،
ولكنهم سعوا عند الأمير ، وكأن الأمير قد أخذ يسمع
لهم ، أو كأنهم قد أملوا في الأمير أن يميل إليهم .

فالمتنبي يصارح خصومه بالعداوة ، ويعرض للأمير
بالنذير تعريضا . ولسنا ندري ماذا حدث بعد ذلك ،
ولكننا نرى الرواة يتحدثون بأن خصوم المتنبي قد اجترأوا
على مجاهرة الأمير بالنعي عليه والطعن فيه ، حتى أنكر
أبو فراس أن يعطيه الأمير ثلاثة آلاف دينار في كل عام
أجرا على ثلاث قصائد .

ويظهر أن المتنبي قد أحس انصراف الأمير عنه وتقريبه
لبعض خصومه ، فأراد أن يجزى أعراضا بأعراض ،

وأبطأ في مدح الأمير . ثم أنكر الأمير منه هذا الإبطاء ،
فلم ينشط للمدح ونشط غيره للكيد . ثم أظهر الأمير
غضبه فأعرض عن المتنبي ذات يوم بمحضر من الناس .
وعاد المتنبي خجلاً كئيباً قد أسقط في يده ، وأراد أن
يستدرك أمره فأرسل إلى الأمير هذه الأبيات :

أَرَى ذَلِكَ الْقُرْبَ صَارَ أَزْوَارًا ✓

وَصَارَ طَوِيلُ السَّلَامِ اخْتِصَارًا

تَرَكَتَنِي الْيَوْمَ فِي خَجَلَةٍ

أَمُوتُ مِرَارًا وَأَحْيَا مِرَارًا

أَسَارِقُكَ اللَّحْظَ مُسْتَحْيِيًا

وَأَزْجُرُ فِي الْخَيْلِ مُهْرِي سِرَارًا

وَأَعْلَمُ أَنِّي إِذَا مَا اعْتَذَرْتُ

إِلَيْكَ أَرَادَ اعْتِدَارِي اعْتِدَارًا

كَفَرْتُ مَكَارِمَكَ الْبَاهِرَا

تِ إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنِّي اخْتِيَارًا

وَلَكِنْ حَمَى الشَّعْرَ إِلَّا الْقَلِيَّةِ

لَهُمْ حَمَى النَّوْمَ إِلَّا غِرَارًا

وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِي بِهِ
وَلَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارَ
فَلَا تُلْزِمْنِي صُرُوفَ الزَّمانِ
إِلَى أَسَاءٍ وَإِيَّايَ ضَارَا
وَعِنْدِي لَكَ الشَّرْدُ السَّائِرَا
تِ لَا يَخْتَصِصَنَّ مِنَ الْأَرْضِ دَارَا
قَوَافٍ إِذَا سِرْنَ عَنْ مِقْوَلِي
وَتَبْنَ الْجِبَالَ وَخُضْنَ الْبِحَارَا
وَلِي فِيكَ مَا لَمْ يَقُلْ قَائِلٌ
وَمَا لَمْ يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سَارَا
..... الخ الخ

فالشاعر كما ترى يسجل إعراض الأمير عنه ، وغضبه
عليه ، ثم يعترف بالذنب ، ثم يعتذر منه ، مؤكدا أنه لم يتعمده
وإنما اضطرت إليه هموم حالت بينه وبين النوم ، ولم يثر هو
هذه الهموم ، ولم يدعها إلى نفسه ، وإنما صبها عليه الزمان .
وهذه الهموم من غير شك لم يثرها في نفس المتنبي إلا خصومه

الذين سعوا به عند الأمير فأفسدوا عليه قلبه ، وأفسدوا عليه
القصر ، ولعلمهم أفسدوا عليه البيئة كلها في حلب .

ثم يتحدث المتنبي إلى الأمير بأنه لم يقل فيه كل ما يجب
أن يقال ، وبأن عنده له شعرا جيدا كثيرا . ثم تثوب إلى
الشاعر عزته بعض الشيء ، فيذكر الأمير بما قال فيه من
شعر ، سار بحيث لم يستطع القمر أن يسير .

ثم يتم الأبيات مادحا مستعظفا ، ولكن الأمير فيما
يظهر لم يقبل منه ولم يعطف عليه . وأدار المتنبي أمره فلم
ير إلا أن يفجأ خصومه ويلقاهم وجها لوجه ، ويسترد قلب
الأمير عنوة واقتدارا ، فيسعى ذات يوم إلى القصر وينشد
الأمير بمحضر من خصومه جميعا ، وعلى رأسهم أبو فراس
ميميته الرائعة الخالدة التي أولها :

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيهُ

وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ

وكلام القدماء والمحدثين في هذه القصيدة أكثر وأغزر
وأشد اختلافا وتنوعا من أن نقول فيها فان نأتى بجديد .
ولكننا نلاحظ مسرعين أن المتنبي قد وفق فيها إلى

حظ لا بأس به من الإجادة الفنية سلك طريق ابن الرومي
فألح في العتاب حتى كاد يبلغ الهجاء ، وأسرف في المدح
ليصلح ما أفسد بالعتاب ، فكان يجرح بيد ويأسو بأخرى .
ولم يقصر الأمر على ما بينه وبين سيف الدولة ، وإنما
تجاوزه كما كان المقام يقتضى إلى السعاة والوشاة والحاسدين
والكائدين ، فصارحهم بالشر مرة ، وعرض لهم بالنكر
مرة أخرى .

ولست في حاجة إلى أن أروى أو أخلص القصة التي
تحدث القدماء بها عن الإنشاد ، وما كان من ثبات المتنبي
لهذا كله وإعراضه عن هؤلاء الخصوم ومضيه في الإنشاد .
وسيف الدولة يسمع معرضا مطرقا حتى أتم قصيدته وانصرف .
وليس من شك في أن هذه القصة قد ألقت تأليفا
في وقت متأخر ، ولكنها على كل حال تعطى ظلا لما كان
في مجلس سيف الدولة حين أنشدت هذه القصيدة .

والشيء الذي لا شك فيه أيضا هو أن المتنبي إن وفق
إلى إرضاء الفن في هذه القصيدة فقد أخطأه التوفيق إلى
إرضاء سيف الدولة ، ولعله غاظ سيف الدولة أكثر مما

أرضاه ، ولا سيما حين أنذر بأنه قد يرتحل إلى مصر في
البيت الذي سار مسير الأمثال :

لَيْنَ تَرَ كُنَّ ضُمِيرًا عَنْ مَيَامِنِنَا

لِيَحْدُنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمُ

ومهما يكن من شيء فقد اضطرب المجلس لإنشاد هذه
القصيدة ، واشتد غضب الحاشية حتى انتهى إلى أقصاه حين
رأت موجدة الأمير على هذا الشاعر الذي أراد العتاب
فتحدى ، ورغب في الاستعطاف فانهى إلى الوعيد والنذير .
وقد خرج المتنبي من هذا المجلس آمنا كالتخائف وخائفا
كالآمن ، وترك وراءه بغضا وغيظا وحنقا . ويحدثنا الديوان
بأن كاتبنا من كتاب الأمير ، عراقيا ، استأذن الأمير في أن
يسعى في ذم الشاعر فرخص له الأمير في ذلك ، وانتهى ذلك
إلى المتنبي فقال يهجوهُ :

أَسَامِرِي ضُحْكَةً كُلَّ رَاءِ

فَطِنْتَ وَكُنْتَ أَغْبِيَاءَ

صَغُرْتَ عَنِ الْمَدِيحِ فَقُلْتَ أَهْجِي

كَأَنَّكَ مَا صَغُرْتَ عَنِ الْهَجَاءِ

وما فُكِّرَتْ قَبْلَكَ في مُحَال
ولا جَرَّبَتْ سَـيْفِي في هَبَاءِ

على أن الأمر لم يكن فيما يظهر من اليسر بحيث ظن
المتنبى . فقد تعرضت حياته للخطر حقا . وكيف لا تتعرض
للخطر وهو قد ملأ القلوب غيظا وحفيظة ، وعرض بالأشراف
من حاشية الأمير ، وعلى رأسهم أبو فراس ، ومكانه من الأمير
مكانه . ثم لم يكتف بذلك ، بل أنذر الأمير نفسه بالتحول عنه
إلى عدوه من المصريين ، وكانت أخت أبي فراس عند
أبي العشائر الذي حمى المتنبى حين جاءه لاجئا إليه عائدا به
وقدمه إلى سيف الدولة ففتح له بابا إلى الأمل ثم إلى النعيم .
ولم يكن المتنبى حسن الوفاء لأبي العشائر ، فهو لم يكد
يتصل بسيف الدولة حتى أعرض عن غيره من الناس ،
ونسى أبا العشائر نسيانا تاما ، فلم يذكره ولم يشر إليه .
وكان الرجل خليقا أن يلقى من صنيعته بعض الشكر على
ما قدم إليه من إحسان . فكان هذا كله ميسرا لشيء من
الحلف الذي تم بين أبي العشائر وأبي فراس وأصحابه على قتل
المتنبى غيلة إذا لم يكن من اليسير قتله جهرة في غير ذنب

واضح يبيح دم رجل من المسلمين .

وكذلك تعرض المتنبي ذات ليلة في ظاهر حلب لجماعة
من الغلمان أرصدهم أبو العشائر ليقتلوه ، ولكنه أحسن
الدفاع عن نفسه ثم نجا ، وكأنه لجأ إلى صديق له من
ذوى المسكنة في حلب فأجاره وأخفاه ، وجعل يسعى له في
العفو عند الأمير . وجعل المتنبي نفسه وقد ثاب إليه رشده
وسكت عنه الغضب ، يعين مجيره على السعى له في العفو .
فقال هذه الأبيات يعتب فيها على أبي العشائر ويصالحه :

وَمُنْتَسِبٌ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبُهُ

وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ خَفِيفُ

فَهَيِّجَ مِنْ شَوْقِي وَمَا مِنْ مَذَلَّةٍ

حَنَنْتُ وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ أَلُوفُ

وَكُلُّ وَدَادٍ لَا يَدُومُ عَلَى الْأَذَى

دَوَامَ وَدَادِي لِلْحُسَيْنِ ضَعِيفُ

فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا

فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَزْنَ أَلُوفُ

وَنَفْسِي لَهُ نَفْسِي الْفِدَاءِ لِنَفْسِهِ
وَلَكِنَّ بَعْضَ الْمَالِكِينَ عَنيفُ
فَإِنْ كَانَ يَبْغِي قَتْلَهَا يَكُ قَاتِلًا
بِكَفِّهِ فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ
وَكَأَنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَظْهَرَ اسْتِعْدَادًا حَسَنًا لِلْعَفْوِ عَنْ
الشَّاعِرِ إِذَا اعْتَذَرَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَتَابَ جَهْرَةً مِنْ خَطِيئَتِهِ ، فَلَمْ
يَتَرَدَّدْ الْمَتَنِّبِيُّ فِي أَنْ يَجْهَرَ بِالْإِعْتِذَارِ وَيُعْلِنَ التَّوْبَةَ .
فَقَالَ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ :

أَلَا مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ عَاتِبَا
فَدَاهُ الْوَرَى أَمْضَى السُّيُوفِ مَضَارِبَا
وَمَالِي إِذَا مَا اشْتَقْتُ أَبْصَرْتُ دُونَهُ
تَنَائَفَ لَا أَشْتَأَقُهَا وَسَبَابِهَا
وَقَدْ كَانَ يُدْنِي مَجْلِسِي مِنْ سَمَائِهِ
أُحَادِثُ فِيهَا بَدْرَهَا وَالْكُوكُبَا
حَنَانِيكَ مَسْؤُولًا وَلَبَّيْكَ دَاعِيَا
وَحَسْبِي مَوْهُوبًا وَحَسْبُكَ وَاهِبَا

أَهَذَا جَزَاءُ الصَّدَقِ إِنْ كُنْتُ صَادِقًا
أَهَذَا جَزَاءُ الْكَذِبِ إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا
وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي كُلِّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ
مَحَا الذَّنْبَ كُلَّ الْحَوِ مَنْ جَاءَ تَائِبًا

وقد عفا الأمير عن شاعره فكف عنه خصومه وآمنه
على حياته وأذن له في العودة إلى القصر . فلما عاد المتنبي
لللقاء الأمير أحسن أهل القصر استقباله ، فخلعوا عليه وهبوه
للدخول على الأمير تهيئة حسنة . ثم أدخل على الأمير
فتلقاه لقاء فيه العطف والبر والمودة . وأعاد المتنبي اعتذاره
وأعلن الأمير عفوه ، وخرج الشاعر من القصر تتبعه الهدايا
والصلوات ، ثم عاد بعد حين فأنشد الأمير لاميته التي أولها :
أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلٍ

دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرِّكْبِ وَالْإِبِلِ

ولا أقف عند هذه القصيدة فهي لا تعجبني وإن
أعجبت المعاصرين وأرضت سيف الدولة كل الرضى . إنما
أروى هذا البيت السخيف السمج الذي تعمده المتنبي تعمدًا

ليغيظ خصومه ، ويظهر براعته من جهة وابتهاجه بعودته إلى
أرض الأمير من جهة أخرى :

أَقِيلْ أَنْيْلَ أَقْطِعْ اِحْمِلْ عَلَّ سَلَّ أَعِدْ

زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلْ

وقد أعجب الناس بهذه القصيدة حين أنشدت وطرب
لها سيف الدولة ، فأجزل عطاء الشاعر لهذا الفوز حتى كاد
يخرج عن طوره . فقال معجبا تياها مسرفا في تحدى
خصومه :

إِنَّ هَذَا الشَّعْرَ فِي الشَّعْرِ مَلَكٌ

سَارَ فَهَوَ الشَّمْسُ وَالْدُنْيَا فَلَكُ

عَدَلَ الرَّحْمَنُ فِيهِ بَيْنَنَا

فَقَضَى بِاللَّفْظِ لِي وَالْحَمْدُ لَكَ

فَإِذَا مَرَّ بِأَذْنِي حَاسِدٍ

صَارَ مِمَّنْ كَانَ حَيًّا فَهَلَكُ

على أن المتنبي قد غلا في الثقة ، وأسرف في ازدراء
الخصوم ، وتجاوز الحد في حسن الظن بالأيام . فلم تطرد
(١٣ م — ج ٢)

حياته حلوة آمنة عند سيف الدولة . وما هي إلا أشهر حتى
عاد الكيد له سيرته الأولى ، وكثر الطعن فيه واللهج به ،
واضطر إلى أن يدافع عن نفسه ، ويهاجم حساده في أكثر
ما قال لسيف الدولة من القصائد .

ولسنا نروى كل ما قال من ذلك ، ولكننا نروى
منه نماذج .

ففي سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة يقول في اللمية التي
أفضنا في ذكرها آنفا :

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله

إذ القول قبل القائلين مقول

وما لكلام الناس فيما يُريني

أصول ولا للقائلية أصول

أعادي على ما يُوجب الحب للفتى

وأهدأ والأفكار في تجول

سوى وجع الحساد داو فإنه

إذا حلّ في قلب فليس يحول

وَلَا تَطْمَعَنَّ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ

وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ

وفي هذه السنة نفسها يقول في داليمته المشهورة التي هنا

بها الأمير بعيد الأحمى :

أَزِلْ حَسَدَ الْحَسَادِ عَنِّي بِكِبَرِهِمْ

فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَدَا

إِذَا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ فِيهِمْ

ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ مُغَمِّدَا

وَمَا أَنَا إِلَّا سَمْعَرِيُّ حَمَلْتَهُ

فَزَيْنَ مَعْرُوضًا وَرَاعَ مُسَدَّدَا

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُؤَاةٍ قَصَائِدِي

إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

فَسَارَ بِهِ مَنْ لَا يَسِيرُ مُشْمَرًا

وَعَنَى بِهِ مَنْ لَا يُغْنَى مُغَرَّدَا

أَجِزْنِي إِذَا أُنْشِدْتَ شِعْرًا فَإِنَّمَا

بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدَا

ودع كلَّ صوتٍ غيرَ صوتي فإنني
أنا الطائرُ المحكيُّ والآخِرُ الصدى
تركتُ السرى خلفي لمن قلَّ ماله
وأنعلتُ أفراسي بنعمك عسجدا
وقيدتُ نفسي في ذراكِ محبةٍ
ومن وجدَ الإحسانَ قيِّداً تقيداً
إذا سألَ الإنسانُ أيَّامه الغنى
وكنْتَ على بُعدٍ جعلتك موعداً

فالمتنبى إذن ماضٍ في استطالته على الشعراء واستعلائه
على الخصوم ، لا يصطنع في ذلك رفقا ولا أناة ولا تواضعا .
وأعداؤه ماضون في الكيد له والوقية به ، يصطنعون في
ذلك من المهارة ما لا يصطنع ، يخفون الكيد حين يرون
إقبال الأمير على شاعره ، ويظهرونه حين يحسون من الأمير
مللا أو فتورا .

فإذا أنشد المتنبى في أوائل سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة
بعد انصراف السفراء لاميته المشهورة ، قال فيها :

أفي كل يومٍ تحت ضِئني شُويعِرُهُ
 ضَعِيفٌ يُقَاوِنِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ
 لِسَانِي بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلُ
 وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاكِكٌ مِنْهُ هَازِلُ
 وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تُجِيبُهُ
 وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ
 وَمَا التَّيَّةُ طِبِّي فِيهِمْ غَيْرَ أَنْنِي
 بَغِيضٌ إِلَى الْجَاهِلِ الْمُتَعَاوِلِ
 وَأَكْثَرُ تِيهِي أَنْنِي بِكَ وَائِقُ
 وَأَكْثَرُ مَالِي أَنْنِي لَكَ أَمِلُ
 لَعَلَّ لَسِيفَ الدَّوْلَةِ الْقَرَمَ هَبَّةً
 يَعْيشُ بِهَا حَقٌّ وَيَهْلِكُ بَاطِلُ
 رَمَيْتُ عِدَاهُ بِالْقَوَافِي وَفَضْلِهِ
 وَهَنَّ الْغَوَازِي السَّالِمَاتُ الْقَوَاتِلُ
 وواضح جدا أن صدر المتنبي قد ضاق بخصومه كل
 الضيق ، فهو يعلن ذلك ويضج به ويستعين على خصومه

بالأمير . وفي هذه السنة نفسها يقول في ميميته المعروفة :

لَكَ الْحَمْدُ فِي الدَّرِّ الَّذِي لِيَ لَفْظُهُ

فَإِنَّكَ مُعْطِيهِ وَإِنِّي نَازِمٌ

وَإِنِّي لَتَعْدُو بِي عَطَايَاكَ فِي الْوَعْيِ

فَلَا أَنَا مَذْمُومٌ وَلَا أَنْتَ نَادِمٌ

عَلَى كُلِّ طَيَّارٍ إِلَيْهَا بِرَجُلِهِ

إِذَا وَقَعَتْ فِي مِسْمَعِيهِ الْغَمَامُ

وقد مضى شأن المتنبي مع خصومه على هذا النحو في
خطوب لا نعرف حقائقها ، ولكننا نلمحها من هذا الشعر
وأمثاله ، حتى كانت سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، وأنشد
المتنبي سيف الدولة آخر ما أنشده من الشعر ، وهي الميمية
التي يقول في آخرها :

لَا تَطْلُبَنَّ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَيْهِ

إِنَّ الْكَرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدَا خُتِمُوا

وَلَا تُبَالِ بِشِعْرِ بَعْدَ شَاعِرِهِ

قَدْ أَفْسَدَ الْقَوْلُ حَتَّى أَحْمَدَ الصَّمَمُ

فكان هذا البيت الأخير كان مؤذنا بانقطاع الصلة بين
الشاعر وأميره ، وقد ظهر خصوم المتنبي عليه فصرفوا عنه
سيف الدولة ، وتبين ذلك للشاعر واضحا جليا حين كانت
الخصومة بينه وبين ابن خالويه في مجلس الأمير ، فيخرج
ابن خالويه مفتاحا من كمه فيشج به الشاعر حتى يسيل دمه
فيخضب وجهه ، والأمير يرى فلا يقول ولا يصنع شيئا .
ويخرج المتنبي محزونا منكسر النفس ، يكظم غيظا عنيفا
ولا يستطيع أن يبين عنه مخافة أن تتكرر القصة التي مضت
سنة إحدى وأربعين وثلثمائة ، ويرى الشاعر نفسه محصورا
في حلب أو معرضا فيها للموت .

فهو يعود إلى داره ، وقد استيأس من الأمير وأزعم
الرحيل عنه ، ولكنه يتلطف في ذلك فيمضي أياما في هدوء
ودعة واعداد لأمره سرا ، ثم يستأذن في الذهاب إلى
إقطاع له عند معرة النعمان ، فيأذن له الأمير ، وقد علم
ما دبر له ، وأراد أن يخلى بينه وبين الطريق ، أو جهل
ما دبر ، وأراد أن يريحه منه ويستريح حينما وهو ما أرجحه .
ويمضي المتنبي إلى إقطاعه في ظاهر الأمر ، وقد أرسل

إلى الأمير هذه الأبيات مبالغة في التلطف والحيطة :
أَيَا رَامِيَا يُضْمِي فُوَادَ مَرَامِهِ
تُرَبِّي عِدَاهُ رِيَشَهَا لِسَهَامِهِ
أَسِيرُ إِلَى إِقْطَاعِهِ فِي ثِيَابِهِ
عَلَى طَرَفِهِ مِنْ دَارِهِ بِحُسَامِهِ
وَمَا مَطَرَتْنِيهِ مِنَ الْبَيْضِ وَالْقَنَا
وَرُومِ الْعَبْدَى هَاطِلَاتُ غَمَامِهِ
فَتَى يَهَبُ الْإِقْلِيمَ بِالْمَالِ وَالْقُرَى
وَمَنْ فِيهِ مِنْ فُرْسَانِهِ وَكِرَامِهِ
وَيَجْعَلُ مَا خُوِّلَتْهُ مِنْ نَوَالِهِ
جَزَاءً لِمَا خُوِّلَتْهُ مِنْ كَلَامِهِ
فَلَا زَالَتِ الشَّمْسُ الَّتِي فِي سَمَائِهِ
مُطَالَعَةَ الشَّمْسِ الَّتِي فِي لِسَانِهِ
وَلَا زَال تَجْتَازُ الْبَدُورُ بِوَجْهِهِ
فَتَعَجَّبُ مِنْ نَقْصَانِهَا وَتَمَامِهِ
وَيَنْتَهَى الْمُنْبَى إِلَى إِقْطَاعِهِ فَلَا يَقِيمُ فِيهَا إِلَّا رِيثًا يَأْمَنُ

الطلب في أكبر الظن ، ثم ينسل منه ويمضي أمامه حتى يخرج من حدود الحمدانيين ويدخل أرض الإخشيديين ، ويطمئن به المقام حيناً في دمشق .

وإذا هو قد ختم فصلاً آخر من فصول حياته كان فيه النعيم كله ، وكان فيه شيء غير قليل من البؤس والشقاء . وكان فيه مجده الفنى حقاً . ومن الخطل أن نطيل القول أو أن نضيع الوقت في البحث عن هذه المسألة التي أثارها النقاد ومؤرخو الأدب : أيهما خلد ذكر صاحبه سيف الدولة أم المتنبي ؟

فلم يكن المتنبي مجهولاً ولا مغموراً حين اتصل بسيف الدولة ولم يكن سيف الدولة خاملاً ولا ضعيف الشأن حين عرف المتنبي ، وإنما كان كلا الرجلين قد فرض نفسه على معاصريه ، ذلك بشعره ، وهذا بسيفه ، فكان لكل منهما أثر خالد في مجد صاحبه ، وإنما أمر المتنبي مع سيف الدولة كما قال عمرو بن معدى كرب .

وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ

نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتْ

غير أن رماح سيف الدولة لم تجر وإنما أنطقت الشاعر
فنطق برائع الشعر وبارعه ، وكسا أميره منه حللا لا تفنى .

على أن المهم هو أن هذين الصديقين اللذين فرق بينهما
الكيد والحسد لم يتح لهما بعد الفراق سلا ولا عزاء .

فقد كانت في نفس المتنبي حسرة لفراق سيف الدولة
سنرى بعض مظاهرها في شعره حين لجأ إلى كافور .

وكانت في نفس سيف الدولة حسرة لفراق المتنبي ،
تظهر من اتصال الحديث في مجلسه عن الشاعر ، ثم تظهر
هذه الحسرة المشتركة من استئناف المودة بين الأمير وشاعره ،
بعد أن أخفق المتنبي في مصر وعاد إلى العراق .

فهذا الأمير يستأنف البرّ به ويرسل إليه الهدايا ،
والشاعر يمدحه باللامية التي أولها :

مالنا كلُّنا جَوِّ يا رَسُولُ

أنا أهوى وقلبك الممبُولُ

ثم تموت أخت الأمير فيرثيها الشاعر بالبائية التي أولها :

يا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ

كنايةً بهما عن أَشْرَفِ النَّسَبِ

ثم يشتد شوق الأمير إلى الشاعر ، فيكتب إليه بخطه
يستقدمه ، ويهم المتنبي بالسفر إليه ، وينفذ إليه بآيته التي
أولها :

فَهَمْتُ الْكِتَابَ أَبْرَّ الْكُتُبِ
فَسَمِعًا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ
ولكنه يقول فيها :

وَمَا عَاقَنِي غَيْرُ خَوْفِ الْوُشَاةِ
وَإِنَّ الْوُشَايَاتِ طُرُقُ الْكَذِبِ
وَتَكْثِيرِ قَوْمٍ وَتَقْلِيلِهِمْ
وَتَقَرِّيهِمْ بَيْنَنَا وَالْخَبَبِ
وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ سَمْعُهُ
وَيَنْصُرُنِي قَلْبُهُ وَالْحَسَبِ
وَمَا قُلْتُ لِلْبَدْرِ أَنْتَ اللَّجِينُ
وَمَا قُلْتُ لِلشَّمْسِ أَنْتِ الذَّهَبُ
فَيَقْلَقُ مِنْهُ الْبَعِيدُ الْأَنَاةِ
وَيَغْضَبُ مِنْهُ الْبَطِيُّ الْغَضَبُ

وما لَأَقْنِي بَلَدٌ بَعْدَكُمْ
ولا اعْتَصْتُ مِنْ رَبِّ نِعْمَايَ رَبِّ

وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَا
دِ أَنْكَرَ أَظْلَافَهُ وَالْغَيْبِ

وما قِسَتْ كُلَّ مُلُوكِ الْبِلَادِ
فَدَعُ ذَكَرَ بَعْضِ بَنٍ فِي حَلَبِ
وَلَوْ كُنْتُ سَمِيئُهُمْ بِاسْمِهِ

لِسَكَانِ الْحَدِيدِ وَكَانُوا الْخَشَبِ
أَفِي الرَّأْيِ يُشَبَّهُ أُمٌّ فِي السَّخَا
ءِ أُمٌّ فِي الشَّجَاعَةِ أُمٌّ فِي الْأَدَبِ

فالمتمني إذن يهم ولا يفعل ويعزم ولا يقدم ، يدفعه إلى
الأمير الحب والوفاء والطمع والرجاء ، ويرده عنه خوف الوشاة
والإشفاق من استئناف حياة يملأها الحسد والكيد . وهو
آخر الأمر لا يعود إلى الأمير ، وإنما يرجئ ذلك إلى أن يشفى
حاجة في نفسه فيشفى هذه الحاجة ، ثم يعترضه الموت قبل

أن نعرف ما كان قد عزم عليه من الرجوع إلى الأمير
أو الاستقرار في العراق .

والغريب أن افتراق هذين الصديقين كان شرا عليهما
جميعا فلم يوفق المتنبي في حياته العملية إلى إرضاء نفسه بعد
فراق سيف الدولة ، ولم يوفق سيف الدولة في حياته السياسية
بعد فراق المتنبي .

ألح الإخفاق على الشاعر كما ألحت العلة والفشل على
الأمير ، فلندع سيرة الأمير للتاريخ والمؤرخين ولنض مع
الشاعر في هذه المرحلة الجديدة من مراحل حياته .

يكون كما قال في بعض النسخ فيكون له رفعة
ولا يفتخر به في الدنيا والآخرة

لهذا لم يذكر في بعض النسخ فيكون له رفعة
في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة

فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة

فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة

فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة
فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة فيكون له رفعة في الدنيا والآخرة

الكتاب الرابع

والماء بلسا

١

وهناك مسألة خليقة بالتفكير وقد يكون في حلها ما يعين
على فهم حال المتنبي في مصر : فلماذا لجأ المتنبي إلى بلاد
الإخشيديين حين فارق سيف الدولة ، ولم يلجأ إلى العراق ؟
وظاهر أن هناك جوابا يسيرا على هذه المسألة ، ولكنه
جواب لا يقنع ولا يمكن الاطمئنان إليه . فقد يقال إن المتنبي
لم يذهب إلى العراق لسبب جغرافي ليس غير . فهو لم يكن
يستطيع أن يقصد إلى العراق من الطريق التي سلكها حين
أقبل إلى الشام في صباه ، أى من طريق الجزيرة ؛ لأن
هذه الطريق كانت كلها إلى سيف الدولة وإلى أوليائه .
فلم يكن له بد من أن يتخذ إلى العراق طريقا أخرى يمر فيها
من غير شك ببلاد الإخشيديين . وكذلك انتهى إلى دمشق ،
فلم يستطع عنها زوالا إلى طريق العراق ، بل زال عنها إلى
طريق الفسطاط . وهذا الجواب كما ترى مقنع في ظاهره ،
ولكني أعتقد أن المتنبي لو كان قد صمم على الذهاب إلى
(م ١٤ — ج ٢)

العراق لما عدم الوسيلة إلى ذلك والحيلة فيه ، ولوجد من
الأصدقاء في مملكة الحمدانيين وفي مملكة الإخشيديين أنفسهم
من يعينه على ذلك ، ويهيئ له الوسيلة إليه .

ولكن المتنبي لم يفكر في الذهاب إلى العراق ، أو فكر
فيه وأعرض عنه . بل أنا أرجح أنه قد أدار الحديث في
ذلك مع جماعة من أصحابه وأوليائه ، فنصح له هؤلاء
بالعراق ، وأبى عليهم هو ، فتحولوا هم إلى العراق ، ومضى
هو إلى مصر مخالفا ، ثم ندم على خلافهم ، وأظهر ما يدل
على هذا الندم ، حين قال لكافور بعد ذلك بأعوام ، سنة
تسع وأربعين وثلثمائة :

وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَدْلَّ عَوَاذِي

عَلَى أَنْ رَأَيْ فِي هَوَاكَ صَوَابُ

وَأَعْلَمُ قَوْمًا خَالَفُونِي فَشَرَّقُوا

وَعَرَّبْتُ أَنِّي قَدْ ظَفَرْتُ وَخَابُوا

فظاهر من هذا الكلام أن قوما من أصدقاء المتنبي
وتلاميذه ضاقوا بحجاب كما ضاق بها ، وهموا أن يزولوا عن
ملك سيف الدولة كما هم هو أن يزول عنه ، فأجمعوا أمرهم

بينهم على الرحيل . ولكنهم أداروا رأيهم في البلد الذي
يقصدون إليه . فأما أصحابه فآثروا بغداد ، وأما هو فآثر
الفسطاط .

وقد يكون من المفيد أن نعرف الأسباب التي حملت
المتنبي على إيثار الغرب ، وحملت أصحابه على إيثار الشرق .
فأما أصحاب المتنبي ، وهم في أغلب الظن من العلماء
وظلاب العلم ، فلم يكن لهم من السابقة ما يصرفهم عن
بغداد أو يزهدهم فيها أو يخوفهم منها ، لأنهم لم يذموا أهلها
ولم يسيئوا إلى القائمين بالأمر فيها بقول أو فعل . ثم هم
في أغلب الظن عراقيون قليلا أو كثيرا ، وفدوا على حاب
يطلبون فيها ما يطلبه الرجل المثقف الأديب في بلد ناهض
يكثر فيه العلم والمجد والمال ، ثم أزعجوا عنها ؛ إما لأنهم
قضوا منها وطرا ، وإما لأن صروف الحياة لم تتح لهم البقاء
فيها ، فآثروا أن يعودوا إلى أوطانهم على أن يتغربوا في غير
طائل . وبغداد بعد مستقر الخلافة ، ودار العلم والحكمة ،
وملتقى العلماء والأدباء من جميع الأقطار الإسلامية . فلهم
في العودة إليها نفع محقق ، وليس عليهم منها بأس .

أما المتنبي فقد كان أمره مختلفا أشد الاختلاف . كان
العراق وطنه من غير شك ، ولكنه ولد في ذلك الوطن
شقيا ، ونشأ فيه بأثسا ، وزال عنه كارها له ، زاهدا فيه .
وعاد إليه في شبابه ، فلم يطب له فيه مقام ، فزال عنه
في المرة الثانية كما زال عنه في المرة الأولى ، كارها له زاهدا
فيه . والمتنبي لم يتح للنسيان أن يلتقي بينه وبين العراق
وأهله أستارا صفاقا أو رقاقا . وإنما جعل يذكر العراق
بنفسه ، ويعلن إلى العراق عداوته ، ويسرف في إعلان
هذه العداوة في جميع الأوقات ، ولا سيما أثناء اتصاله
بسيف الدولة . فقد أسرف في ذلك كما رأيت إسرافا شديدا ،
فهاجم معز الدولة وهاجم الخليفة نفسه ، وآثر على ملكهما
ملك هذا الأمير التغلبي ، ولم يصطنع في ذلك حيلة ولا
تحفظا . ولعله لم يكن يتمنى فيما بينه وبين نفسه شيئا كما
كان يتمنى العودة إلى العراق ، ولكنه كان يعلم حق العلم
أن سبيله إلى العراق غير ميسرة ، وأن مقامه في العراق
لن يكون حميد العاقبة . فغرب هو وشرق أصحابه ، وبوده
لو يشرق كما شرقوا .

وأنا أعلم أن المتنبى لم يهيج أولى الأمر في بغداد
وحدثهم أثناء مدحه لسيف الدولة ، بل هجا معهم أولى الأمر
في مصر ، وكان خليقا أن يخاف مصر كما خاف العراق .
ولكن من الحق أن ما قاله في المصريين عند سيف الدولة
لم يكن شيئا بالقياس إلى ما قاله في البغداديين . فهو لم
يعرض بكافور ولا بالإخشيد وابنه تعريضا واضحا جليا . فلما
صرح بالنعي عليهم لم يزد على أن زعم أنهم لم يتركوا الشام
لسيف الدولة حبا ولا كرامة ، وإنما نفاهم عنها سيف الدولة
نفيا . فهو إذن قد زعم أنهم انهزموا له في الحرب ، وليس
هذا شيئا يشين ، كما يشين ما كان يذكر به العراقيين من
الجن والخور ، ومن القصور والتقصير ، ومن العكوف على
اللهو والمضي في إرضاء الشهوات ، والاعتزاز بمظاهر الملك
وترك حقائقه لسيف الدولة الذي كان لا يعنى إلا بجذ الأمر ،
ولا ينفق حياته إلا في جهاد الروم ، إلى غير ذلك مما قاله
في التعريض والتصريح بأهل بغداد .
فقد كان فساد الأمر إذن بينه وبين العراق خطيرا .
وكان إصلاح الأمر بينه وبين مصر ميسورا سهلا . فإذا

لاحظت أنه حين غضب سيف الدولة وحاشيته سنة
إحدى وأربعين وثلثمائة لم ينذرهم بأنه قد يذهب إلى العراق ،
بل أنذرهم بأنه قد يترك ضميراً عن يمينه ليضئ إلى ملك
الإخشيديين .

عرفت أن المتنبى نفسه كان يشعر بأن ملك الإخشيديين
سيكون أرحب له صدرا من ملك الخلفاء العباسيين وأميرهم
الديلمي . والمتنبى بعد هذا كله عند الإخشيديين أصدقاء
وليس له مثلهم في العراق ، فهو قد مدح جماعة من حكامهم
وقادتهم قبل أن يتصل بسيف الدولة كما علمت . وهو قد
اتصل اتصالا وثيقا بأمير من أمرائهم في الرملة . وهو خليف
أن يجد من هؤلاء أو من بعضهم حماية ورعاية وعونا على
أن يتصل بالملك المصرى الشاب ، أو بوصيه ووليه كافور .
وإذ فأننا لا أفهم إشار المتنبى لمصر على العراق
فحسب ، بل أريد أن أزعج أن المتنبى لم يفارق حلب ولم
يترك سيف الدولة إلا بعد أن استوثق لنفسه عند الإخشيديين .
وأكبر ظنى أن الرسل قد سعوا سرا بين المتنبى والإخشيديين
في آخر أوقاته بحلب ، وأن هؤلاء الرسل لم يضمنوا له

الجوار والأمن عند الإخشيديين فحسب ، وإنما جاءوه
بالوعود المظمعة والآمال المغرية . فلم يتحول عن شمال الشام
إلى جنوبها إلا وهو يعلم ما يريد ، ويقدر أن حاله عند
الإخشيديين ستكون خيرا من حاله عند الحمدانيين ، وأنه
سيظفر في ملك مصر بما لم يظفر به في ملك شمال الشام .
وأنا من أجل هذا كله لا أطمئن إلى الأخبار التي
يحدثنا بها الرواة عن إقامة المتنبي بدمشق والرملة ، وإنما
أقرؤها في تحفظ شديد وأفهمها على وجه مخالف كل المخالفة
لما فهمها عليه القدماء .

فقد زعم القدماء أن الشاعر وصل إلى دمشق محزونا ،
وأن عامل الإخشيديين عليها ، وهو رجل يهودي يعرف
بأبن مالك تلقاه لقاء حسنا . ولكنه طمع في أن يمدحه
المتنبي ، فلما لم يظفر منه بما أراد كاد له عند كافور .
ويقول القدماء إن المتنبي تردد كثيرا في الذهاب إلى مصر
ثم يقولون ، ويوافقهم بلاشير على ما قالوا ، إنه ذهب إلى
الرملة لاجئا إلى صديقه الإخشيدى القديم الحسن بن عميد الله
ابن طعج ، وكان يريد أن يلزمه ، لولا أن كافورا كتب

يستقدمه وألح في ذلك ، فسار الشاعر إلى الفسطاط كارها .
ولا أستبعد أن يكون المتنبي نفسه هو الذي قد تحدث
بهذا كله ، بعد أن عاد من مصر إلى العراق خائب الأمل ،
محزون النفس ، يأسا من كل ما كان ينتظر من كافور .
فأما الذي أرجحه أنا فهو أن المتنبي قد أصلح أمره
مع المصريين ، وترك حلب ، على أن يكون شاعرا رسميا
لكافور ، ليغيظ سيف الدولة وأصحابه ، وليعرفهم أنه إن
لم يجد عندهم الأمن والرضى ، فسيجد عند عدوهم أكثر من
الأمن والرضى ، سيجد عند عدوهم الحكم والساطان . وقد
عرفنا أن المتنبي كان إذا اتصل بأمرير انقطع له حقا ، ولم
يمدح أحدا من أصحابه والمقربين إليه . فهذا يبين لنا السبب
في أنه حين بلغ دمشق لم يمدح عامل الإخشيديين عليها .
فإذا ذكرت ما اقترضناه في أول هذا الكتاب من جواز
أن تكون هناك صلة بين هذا اليهودي الذي كان على
دمشق ، وذلك اليهودي الذي سعى به عند عامل حمص
في شبابه حتى دفعه إلى السجن لم تستغرب إعراض المتنبي
عن مدحه لهذا اليهودي الذي أحسن استقباله وأكرم مثواه .

وليس غريبا أن يكون هذا اليهودي قد طمع في مدح
المتنبى وضاق بما أصابه من الإخفاق ، كما جرى ذلك نفسه
لإسحاق بن كيغلف حين أراد الشاعر على أن يمدحه لما مر
بطرابلس في طريقه إلى أنطاكية ، ومما يرجح هذا أن المتنبى
ترك دمشق دون أن يستطيع اليهودي أن يمسكه فيها ،
أو يرده عن الوجه الذى كان يقصد إليه . فلما وصل
الشاعر إلى الرملة ، تلقاه الإخشيدي أحسن لقاء ، ووصله
وأهدى إليه . وكان المتنبى خليقا أن يمدحه رعاية لما كان
بينهما من عهد قديم ، ووفاء بحق هذه الهدايا والصلات ،
ولكن المتنبى لم يصنع من ذلك شيئا ، لأنه دخل ملك
الإخشيديين ، على أن يكون شاعر كافور لا شاعر غيره من
الحكام والأمراء .

ومن أجل هذا نفهم إعراض المتنبى ، بعد أن وصل إلى
مصر ، عن مدح من كان فيها من السادة والقادة ، ومن
الأمراء والوزراء ، ووقف شعره كله أول الأمر على كافور
حتى إذا استيأس منه لم يمدح إلا فاتكا ، ولم يمدحه إلا
بقصيدة واحدة ، ولم ينشئ هذه القصيدة إلا بعد أن أذن له
بذلك كافور .

إذن فكل هذه القصة التي صيغت حول حيرة المتنبي
واضطرابه وتردده وسوء حاله في دمشق ، ثم في الرملة ليست
شيئا ، وإنما هي حديث لعل المتنبي نفسه هو الذي تعزى به
عما لقي في مصر من خيبة وإخفاق .

وقد انتهى المتنبي إلى مصر سنة ست وأربعين وثلثمائة
بعد أن فارق سيف الدولة بأشهر ، ولعل من الحق أن
نلاحظ أنه فارق شخص سيف الدولة ولم يفارق ذكره ،
بل لم يستطع أن يفارق ذكره إلى أن مات .
ولم يكن من اليسير أن تمحى صورة سيف الدولة من
نفس المتنبي كما محيت منها صور الأمراء والسادة الذين
اتصل بهم قبله ، فقد لقي المتنبي عند سيف الدولة خير
مالق في حياته كلها ، لا من جهة الثروة والغنى وخفض
العيش ولين الحياة ، فقد كان ذلك شيئاً يسيراً ، يستطيع
كافور أن يدره على المتنبي وأن يدر على المتنبي أكثر منه
لأن ملك كافور كان أوسع وأثرى من ملك الحمداني ،
بل لأن سيف الدولة ^{عاش} وحياة المتنبي معه كانتا مخالفتين من
جميع الوجوه لحياة كافور ولحياة المتنبي مع كافور . وكانت
حياة سيف الدولة حياة بطولة كلها تملؤها الحرب في أكثر

أوقاتها ، ويتحدث بها الناس في جميع الأقطار الإسلامية
وفي كثير من الأقطار البيزنطية أيضا . وكان المتنبي يشارك
سيف الدولة في هذه الحياة وفيما كان يملؤها من بطولة .
كان يشاركه في ذلك مشاركة عملية . فكان يغزو الروم
معه إذا غزاهم . وكان يستمتع بالنصر إذا أتيح النصر للأمير
ويشقى بالهزيمة إذا كتبت عليه الهزيمة . وكان كذلك
يشارك الأمير في جهاده للتأثرين به والخارجين عليه من
أهل البادية . فكان يبلو ألوان الحرب المنظمة وغير المنظمة ،
وكان يحس لذاتها وآلامها المادية والمعنوية . وكان بعد هذا
كله يتغنى هذه الحرب ويعلن مجدها الضخم إلى المسلمين
وغير المسلمين . كان اللسان الرسمي لهذا الجهاد العظيم ، وكان
في الوقت نفسه اللسان الصادق لما يشور في قلبه هو من
عاطفة أو هوى أو شعور .

زاقه كانت حياته عند سيف الدولة إذن مملوءة بالنشاط
الخصب الذي شغله عن نفسه وشغله بها في وقت واحد ،
فقد كان المتنبي في حاجة إلى أن يشغل عن نفسه وإلى
أن يشغل بها . كان أبغض شيء إليه وأثقل شيء عليه

وأقتل شيء له أن تضطره البطالة والجمود إلى أن يفرغ
لنفسه فينظر فيها وينظر إليها في كل وقت ، ولم يكن له
بد من الحركة العنيفة المتصلة ومن النشاط القوى المستمر .
وحاجته هذه إلى الحركة والنشاط هي التي دفعته إلى ثورة
الشباب . وضيقه بالبطالة والجمود هو الذي بغض إليه الحياة
والأحياء في أيام محنته .

ثم كان المتنبي في حاجة شديدة إلى أن يعود إلى
نفسه بين حين وحين ، فينظر إليها وينظر فيها قفسه ،
ولا تسوءه يسألها عما عملت فتجيبه بما يحمد ويرضى .
فإذا شغل عن نفسه ثم عاد إليها ألهمته ، وإذا هو شاعر
فحل يتغنى نشاطه ونشاط الناس ، ويشيد بمجده ومجد
الناس ، وينشد هذا الشعر الذي لا يلبث أن يشيع ويندفع
ويملاً الآفاق والأقطار .

أما حياة كافور حين اتصل به المتنبي ، بل قبل أن
يتصل به المتنبي ، فقد كان حياة أمن وسلم ، ودعة وهدوء .
ليست حدوده مجاورة لحدود الروم ، فيتكاف مثل ما كان
سيف الدولة يتكاف من الهجوم والدفاع ، ولا هي مجاورة

لحدود العراق ، فيخاف مثل ما كان سيف الدولة يخاف ،
من الدس والكيد . ومن الحق أن الفاطميين كانوا يثيرون
في نفسه شيئا من القلق ، ولكنه كان قلقا يسيرا لا يؤرق
الليل ولا ينجص النهار . والبلاد التي كان يحكمها كافور
بلاد متحضرة منظمة ، قد ألف أهلها الحضارة والنظام
المدني منذ عهد بعيد جدا ، وقد انكسرت شوكة الذين
ارتحلوا إليها واستقروا فيها من البدو منذ عهد بعيد . فهي
قليلة الحظ من الثورة والاضطراب قد فرغت لنفسها وظفرت
باستقلالها ، وفرغ الناس أو كادوا يفرغون من الطمع فيها
والطموح إليها ، إلا ما كان من الفاطميين الذين كان أمرهم
لا يزال بعيدا كما قلنا من أن يثير القلق والخوف .

وقد تجاوز سلطان هذه البلاد حدودها الطبيعية ، فهي
متسلطة على فلسطين كلها ، وقسم لا بأس به من الشام ، وعلى
أقطار واسعة وراء البحر الأحمر . وحدودها بعيدة آمنة من جهة
الجنوب . وإذن ففي وسعها أن تنعم بالأمن والدعة ، وتفرغ
لاستثمار أرضها الخصبة ، ولا سيما إذا ضبط فيها الأمر ،

وحسنت فيها الإدارة ، ولم يكثر فيها الجور ، ولم يشع بين أهلها الفساد .

ويظهر أن أمور مصر كانت صالحة مطمئنة حقا في ذلك الوقت ، فكان أولياء الأمر فيها هادئين مطمئنين يدبرون الملك أحسن تدبير ، وينعمون بثمراته في غير خوف ولا قلق . فإين هذه الحياة الهادئة الوادعة المطمئنة من تلك الحياة القلقة المضطربة الخائفة . وأين سكون كافور من قلق سيف الدولة ؟ وإذن فلن تكون حياة المتنبى عند كافور مملوءة بالحركة والنشاط ، كما كانت في شمال الشام . وإذن فلن يشغل المتنبى عن نفسه ، ولكنه سيشغل بها دائما . وإذن فهو يفقد عند كافور أحد المؤثرين الأساسيين في شاعريته ، هر يفقد نصف نفسه إن صح هذا التعبير . وإذن فهو مضطر إلى أن يفكر في نفسه دائما ، وإلى أن ينظر فلا يرى غيرها . وهو يستحضر ماضيه فيرى آمالا خابت ، وأحلاما ذهبت ، ونعيا زال ، وحسرات لا تزال لازعة . ثم يحاول أن يفكر في مستقبله فلا يرى أولا يكاد يرى شعاعا من أمل ولا بصيصا من رجاء .

ماض كله خيبة وإخفاق حتى في أحسن أوقاته ،
ومستقبل مظلم ، وحاضر قلق لا ترضى به النفس ولا تطمئن
إليه . فلا غرابة في أن تسوء حياة الشاعر ، ولا غرابة
في أن يسمغ الحزن واليأس على شعره رداء قائما لا يكاد
يظهر فيه الإشراق والابتهاج .

٣

وقضية المتنبي مع كافور يسيرة جدا بالقياس إلينا ،
وإن ظهرت للشاعر ولمعاصريه عسيرة معقدة . فهي تنحل
في حقيقة الأمر إلى أن المتنبي أحس القلق والضيق عند
سيف الدولة ، فعرض بالتحول عنه إلى مصر ، وطمع
المصريون في تحويله إليهم ليضعفوا خصمهم ، وليستأثروا من
دونه بسلاح من أمضى أسلحته ، وهو سلاح الدعوة
والإذاعة . فأغروا الشاعر وأطمعوه ، ولم يفهم الشاعر هذا
الإطاع وذلك الإغراء على وجهيهما ، وإنما خدعه الغرور ،
فظن أن القوم يصدقونه ولا يكذبونه . وأنهم يريدون به
الخير ، ولا يريدون أن ينتزعوه من يد مولاه الحمداني .
فاستجاب لهم ، وأسرع إليهم ، وانتظر تحقيق الوعد ،
وتصديق الرجاء . فلم يجد إلا سرايا لا يروى من ظمأ ولا
يشفى من أوام .

أيهما الخطيء في هذه القضية ؟ أهو كافور الذي سار

سيرة السياسى اللبق فاجتهد لنفسه ، واحتاط لملكه ، وخذل
عن عدوه ، واصطنع فى ذلك ما يصطنعه الساسة المكررة
من وعود لا تفرض على أصحابها الوفاء ، وأقوال لا تأخذ
أصحابها بالصدق ؟ أم هو المتنبي الذى أسرف فى الاعتداد
بنفسه ، وغلا فى حسن الظن بها وبالناس ، فلم يتدبر أمره
ولم يحتط لنفسه ، وإنما اندفع فى غير روية ولا أناة ؟ إن
الذين يقرءون شعر المتنبي ، وهذه الحكم البالغة ، والأمثال
السائرة التى يرسلها إرسالا ، ويكيلها كيلا يخدعون عن
الشاعر ، فيظنون به الفطنة والحكمة والذكاء . ولكن الذين
يتدبرون سيرته ، ويقرءون فخره ومدحه وهجاءه يعرفون
طبيعة الشاعر ويردونه إلى مكانه الحقيقى من خصال الرجل
الذكى اللبق . فقد كان المتنبي مغرورا من غير شك ، وكان
مسرفا فى الغرور ، وكان مكبرا لنفسه كل الإكبار . ولكن
الشر كل الشر أنه كان يظن من حين إلى حين أن الناس
يرون فيه ما كان يرى فى نفسه ويكبرونه كما كان يكبر
نفسه ، ويعتدون به كما كان يعتد بنفسه . وإلا فكيف
نفهم أن ينفق المتنبي تسعة أعوام يمدح فيها الأمير الحمدانى

ويعيب فيها خصومه من أهل مصر والعراق ، ثم يظن بعد ذلك أن المصريين يعدونه صادقين ويمدحون له الآمال والأمانى ، وهم يأخذون أنفسهم بالوفاء له والاطمئنان إليه . مهما يكن من شيء فقد انخدع المتنبي لكافور ، وأقبل مستسلما له ، متهاككا عليه ، واثقا به ، يظن أنه سيجد عنده من الرفعة ونباهة الشأن ما يغيظ به سيف الدولة الذى لم يعرف قدره ، ولم يرع حقه ، ولم يعص فيه الوشاة والكائدين .

وأنت تعلم أن المتنبي نشأ طامعا في الحكم ، طامحا إليه ، مجاهدا في سبيله ، وأنه احتمل في ذلك ألوانا من الأذى ، وذاق فيه فنونا من العذاب . فهذه الوعود تخيل إليه أن الحكم منه قريب ، وأن السلطان يسعى إليه سعيا ويخطو إليه خطوات واسعة . فما له هو لا يسعى إلى هذا السلطان الذى يسعى إليه ، ولا يخطو إلى هذا السلطان خطوات واسعة كالتى يخطوها إليه . لقد وعده المصريون بأنه سيتولى الحكم في ولاية من الولايات ، أو إقليم من الأقاليم . هو إذن سيرتفع عن هذه المكانة التى كان يحرص

عليها عند سيف الدولة . لن يكون شاعرا مأجورا عند
كافور كما كان شاعرا مأجورا عند سيف الدولة ، بل
سيكون واليا من الولاة وأميرا من الأمراء . سيجمع بين
إمارة الشعر وإمارة الحكم . ستشهد له الخيل والليل والبيداء
والسيف والرمح والقرطاس والقلم . فما له لا يسرع إلى هذه
الأمنية التي تريد أن تتحقق بعد أن استيأس منها
وتعزى عنها .

نعم إنه كان في صباه وشبابه لا يطلب الحكم والسلطان
لنفسهما ولا يراها غاية لما كان يلقي من مشقة ويحتمل من
عناء ، وإنما كان يراها وسيلة إلى إصلاح النظام السياسي
والاجتماعي ، ورد الأمن والعدل والعافية إلى الناس . وهو
الآن يكتفي من الحكم بالحكم ، ومن السلطان بالسلطان
يراهما الغاية كل الغاية ، والأمل كل الأمل ، لا يفكر في
إصلاح النظام السياسي والاجتماعي ، لأن أحدا من الذين
ثاروا لإصلاح هذا النظام لم يحاول إصلاحه ، ولأن الناس
الذين يكرهون هذا النظام ويشكون منه ، ويريدون تغييره
لا يغيرونه ولا يعينون أحدا على هذا التغيير ، ولأن الناس

الذين يتحرقون شوقا إلى الأمن والعدل والعافية لا يكرهون
أن يعيشوا في ظل الخوف والجور والخطر . فهو لا يريد أن
يصلح أمور الناس برغم أنوفهم ، وحسبه أن يصلح أمر نفسه ،
وأى إصلاح لأمر نفسه أكثر من أن يتولى الحكم
وينهض بأعباء السلطان ، ويصبح رجلا يأمر فيطاع ، وينهى
فيستمع له . ومن يدرى لعل الشعراء يمدحونه بمثل ما يمدح
به هو سيف الدولة أو غير سيف الدولة من الأمراء والولاة .
ومن الحق أنه كان في شبابه شديد الضيق بهؤلاء
العبيد الذين يملكون على الأحرار ، وبهؤلاء العجم الذين
يقضون في أمور العرب . وأنه كان يريد أن يشور ليرد إلى
الأحرار حريتهم ، ويدلّل للعرب من العجم ، ويعيد هؤلاء
الأرقاء الذين يستخشنون الخبز حين يلمسونه ، وكانت تبرى
بأظفارهم الأقلام ، إلى حالهم الأولى التي كانوا عليها قبل أن
تدور الدنيا إلى الشمال ، بعد أن كانت تدور إلى اليمين .
كان يريد هذا كله ، وكان يحرص عليه كل الحرص .
وقد جاهد في سبيله وذاق ذل الأسر وهوان السجن ،
ولكنه أخفق واستيأس ، ثم عاد إليه شيء من الأمل

وحظ من الرجاء حين اتصل بهذا الأمير العربي الذي أحيا
ما كان للعرب من مجد وبأس ، ولكنه نظر فإذا هذا
الأمير نفسه لا يقدره ولا يسمع له ، وإنما يطيع فيه الوشاة
والكائدين . فليدع الأحرار في رق العبيد ما داموا يرضون
لأنفسهم هذا الرق . وليدع العرب في ظل العجم ما داموا
ينعمون بالحياة في هذا الظل . بل ليتجاوز هذا الطور من
اليأس المتكبر والإعراض المستعلى ، وليصبح رجلا كغيره من
معاصريه ، وليبيع نفسه لعبد من هؤلاء العبيد ، وأعجبي
من هؤلاء الأعاجم ، ما دام هذا قد يجعله أميرا على بعض
الولايات أو حاكما لبعض الأقاليم .

إلى هذه الحال انتهى المتنبي حين فارق سيف الدولة
وألقي بنفسه بين يدي سيده الجديد كافور ، جحد ماضيه
كله ورفض آراءه كلها ، ونزل حتى عما كان خليقا أن
يحتفظ به من أيسر الكرامة وأهون الكبرياء . ولا تقل
إنه كان محتاجا إلى هذه الذلة ، مضطرا إلى هذا الهوان ،
عاجزا عن أن يحيا حياة كريمة مستقلة خالصة للفن . فلم
يكن المتنبي في ذلك الوقت بأثسا ولا فقيرا ، بل كان بعيدا

كل البعد عن البؤس والفقر ، أخذ من سيف الدولة مالا كثيرا جدا ، ولم يسرف في هذا المال ، بل أسرف في حسن تدبيره وشدة القيام عليه حتى انتهى إلى البخل القبيح . وخرج من ملك الحمداني يسوق بين يديه مالا ضخما ويحيط به عدد ضخم من الرقيق . فلو شاء أن يعيش حرا كريما مستقلا لما وجد في ذلك مشقة ولا جهدا . وقد يقال : إن حياة الشعراء في ذلك العصر لم تكن تسمح لهم بهذا اللون من الحياة . وقد يقال أيضا : إن شاعرنا لم يكن يستطيع أن يعرض عن مدح الأمراء والملوك ، ولو حاول ذلك لعرضوه للأذى ولأكرهوه عليه إكراها .

قد يقال هذا كله ولكنه لا يغني عن المتنبي شيئا ولا يزيد على أن يؤكد ما نذهب إليه من أن المتنبي إنما كان شاعرا كغيره من الشعراء ، ورجلا كغيره من الناس . قد رفع نفسه فوق قدرها ، وزعم لها ما ليس من أخلاقها ، وطمع فيما لا ينبغي لمثله أن يطمع فيه . ظن نفسه حرا ، ولم يكن إلا عبدا للمال . وظن نفسه أيبًا ، ولم يكن إلا ذليلا للسلطان . وظن نفسه صاحب رأى ومذهب ، ولم يكن إلا

صاحب تهالك على المنافع العاجلة ، التي كان يتهالك عليها
أيسر الناس أمرا وأهونهم شأنا .

وقد جاء بعد المتنبي رجل آخر رفع نفسه عن الدنيا
وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة ، واحتقر الناس
وازدراهم ، وأنكر الملوك والأمراء ، وزهد في التقرب إليهم
والدنوّ منهم ، وأراد لنفسه أن تكون نفس الرجل الحر
الكريم ، ولعقله أن يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف
فوفي لنفسه وعقله بكل ما أراد ، ولم يكن أقل شاعرية من
المتنبي ، ولم تسعده الأيام كما أسعدت المتنبي ، فقد حرّمته
بصره ، ولم تتح له من الغنى والثروة ما يكفل له لين الحياة
وخفض العيش . ومع ذلك عاش كريما ومات كريما ، ولم
يتعلق عليه أحد بذلة ، ولم يغمز فيه أحد هفوة ، سخر من
الزمان ولم يسخر منه الزمان ، واستطال على السلطان وعجز
السلطان عن أن يستطيل عليه ، وعاد من بغداد يشترط على
أهل قريته أن يخلوا بينه وبين حرّيته ، وألا يشركوه فيما
يعرض لهم من خير ولا شر ، وأن لا يخرجوه معهم إن

خرجوا من المدينة. فارّين أمام الروم . وأن يقيموا في
المدينة إن أمنوا ، ويظعنوا عنها إن خافوا ، ويتركوه فيها
على كل حال ، لأنه رفع نفسه فوق الأمن والخوف جميعا .
وما أرى إلا أنك قد عرفت هذا الرجل الذي أتحدث عنه
وهو أبو العلاء .

فالفرق إذن بين هذين الرجلين ، هو الفرق بين الفيلسوف
والرجل من سائر الناس . والذي أريد أن أصل إليه من
هذا الحديث الطويل هو أن المتنبي قد ظن بنفسه غير
ما كانت عليه ، وما أكثر ما يخدع الناس عن أنفسهم .
ولكن الغريب أن المتنبي لم يخدع نفسه وحدها ، وإنما
خدع معها كثيرا جدا من الناس ، فظنوا به الفلسفة وليس
هو من الفلسفة في شيء ، وظنوا به الحرية والكرامة وإباء
الضيم ، وليس هو من هذا كله في شيء ، وإنما هو رجل
من أهل زمانه لم يمتاز منهم بأخلاقه ، وإنما امتاز منهم
بلسانه ، كما كان يمتاز غيره من الكتّاب والشعراء .

أقبل المتنبي إذن على كافور وضيعا ذليلا قد هان على
نفسه فهانت نفسه على الناس . وقد رأينا في بعض ما سبق

من هذا الحديث أن المتنبي لم يصف أحدا كما وصف نفسه
حين قال :

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضِ
طَلَبَ الطَّعْنَ وَخَدَهُ وَالنِّزَالَ

فلنلاحظ الآن أنه لم يصف أحدا كما وصف نفسه
حين قال أيضا :

مَنْ يَهْنُ يَسْهُلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ
مَا لِيْجْرَحَ بِمَيْتٍ إِيْلَامُ

فقد ماتت نفس المتنبي أو كادت تموت حين فارق
سيف الدولة هاربا من الكيد ، ومكر الحاشية ، وباع
كرامته وصداقته من كافور بثن بخس هو أن يكون واليا
في ظل عبد :

يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلْمُسُهُ
وَكَانَ يُبْرَى بِظْفَرِهِ الْقَلَمُ

كما كان يقول في شبابه وفي ظل من سيقول عنه في
آخر أيامه :

وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ

يُقَالُ لَهُ أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى

ماتت نفسه أو كادت تموت ، ولم يبق منها إلا رmq
ضئيل لم يكن خير ما بقي منها ، إنما كان شر أجزاء نفسه
وأهونها على الناس حين يلتمسون الخلق والفلسفة . وكان
خير أجزاء نفسه وأكرمها على الناس حين يلتمسون الشعر
والفن والغناء .

بهذا الرmq الذليل الخصب ، المهين القوى ، أقبل المتنبي
على كافور فمدحه وتملقه ، ورغب إليه وطمع فيه . ومن
هذا الرmq نفسه انصرف المتنبي عن كافور راغبا عنه زاهدا
فيه ، هاجيا له ، كافرا بأنعمه ، مشيعا فيه الفجشاء ، مديعا
فيه كلمة السوء . وذنّب كافور أنه عرف المتنبي كما كان
ينبغي أن يعرف ، ووضعته في الموضع الذي كان ينبغي أن
يوضع فيه . رآه شاعرا يبيع المدح والثناء بالدرهم والدنانير
فاشتري منه المدح والثناء بالدرهم والدنانير . ورآه أحق
بجهل قدر نفسه فجراه في هذا الحمق ليصرفه عن خصمه ،
وليحمله على أن يكذب نفسه وينكر ما كان قد قال فيه ،

ويمدحه بعد أن كان قد ذمه ، ووفق كافور إلى كل ما أراد . فذنب كافور إذن أنه كان عاقلا فطنا لميبا ، لم يخذعه المتنبي ، وما كان للمتنبي ولا لأبرع منه أن يخذع هذا الأسود الدميم الذي استطاع أن يتجاوز قدره ، وأن يفرض نفسه على الدولة الإسلامية كلها ، وأن يقطع أحسن أجزائها ، فيستأثر فيه بالملك والسلطان .

نعم ذنب كافور أنه كان عاقلا فطنا ، وأنه كان يحسن العلم بالناس ، ويضع الأمور في مواضعها ، ولكن لا بأس على المتنبي من هذا التلون والاضطراب . فنحن قد ربحنا من هذا التلون والاضطراب شيئا كثيرا .

ربحنا هذا الشعر الذي حفظه لنا ديوان المتنبي بما فيه من مدح وهجاء ، ومن حزن وغناء ، فهو ، سواء ألاءم الحق أم لم يلائمه ، أعذب شعر المتنبي وأرقه ، وأصفاه وأصدقاه تصويرا للناحية الإنسانية المؤلمة من نفس هذا الشاعر البائس الحزين .

٤

ولم تكن البيئة المصرية أقل من البيئة الحليمية خصبا
ولا نشاطا ، ولا ثروة من العلم والفلسفة والأدب ، حين وفد
المتنبي على الفسطاط ، بل قد يكون من الخطأ أن نسوى
بين البيئتين في ذلك . فقد كانت البيئة المصرية قديمة
العهد بالحياة العقلية على اختلاف ألوانها ، أقدم عهدا بها
من دار الخلافة نفسها . والناس جميعا يعلمون أن علوم الدين
وفنون الأدب ازدهرت في الفسطاط قبل وجود بغداد .
ازدهرت فيها منذ أواخر القرن الأول للهجرة ، ثم
سلكت سبيلها إلى الرقي هادئة مطمئنة طوال القرن الثاني
والثالث ، لم تضعف ولم تفتر ، ولم يدركها الخمود . ولعلها
كانت تقوى حتى تتجاوز المؤلف من النشاط أحيانا في بعض
فروع العلم أو في بعض فروع الفن ، كالذي كان حين
وفد الشافعي على مصر ، وأنشأ بها مدرسته آخر القرن الثاني
وأول القرن الثالث . فقد كان لهذا الحادث أثر عظيم في

تنشيط الحياة العقلية في مصر ، وكالذي كان حين اشتغل
ابن طولون بأمر مصر ، فدفع الحضارة دفعة قوية نشط لها
الشعر والنثر ، ونشط لها الفن أيضا .

وقد أتاح الإخشيدون لهذه الحياة العقلية ، التي كانت
ترقى في هدوء وتنشط في اطراد ، ما مكنها من المضي في
طريقها إلى القوة والرق والتزيد من العمق والاتساع .
ولست أزعم أن الفسطاط قد سبقت بغداد أو بلغت منزلتها
في ذلك العصر ، ولكنها كانت على كل حال قريبة من
بغداد ومتجاوزة للحظ الذي انتهت إليه حلب من النهضة
أيام سيف الدولة ، وقد كان العلماء ينشئون في مصر .
وكان العلماء يقدون عليها من الأقطار الإسلامية فيعلمون
فيها ويتعلمون . ولم يكن هناك فرع من فروع العلم والفن
والفلسفة يزدهر في بغداد إلا وله حظ من الازدهار في
مدارس الفسطاط ومساجدها ، وأندية السادة والقادة
من أهلها .

وقد يكون هناك فرق بين الحضارة التي كانت تزدهر
في ظل الإخشيديين والتي كانت تزدهر في ظل الحمدانيين ،

وهو أن الحضارة الحمدانية كانت جديدة طارئة ، فكانت
محدثه تعلن عن نفسها فتسرف في الإعلان ، على حين أن الحضارة
المصرية كانت تليدة مستقرة مؤثثة الجدد ، فلم تكن تحفل
بنشر الدعوة ، ولم ترغب في الإعلان .

وبعيد عن بالي كل البعد أن أفكر في الحضارة المصرية
القديمة التي ازدهرت أيام الرومان واليونان . وإنما أفكر
في الحضارة الإسلامية العربية ، وأتحدث عنها فقد كانت
الفسطاط مصرا من أمصار المسلمين له مالا كثرها من الحظ
في الأخذ بأسباب الأدب والعلم والفن . فلما أنشئت بغداد
جذبت إليها معظم القوة العقلية التي كانت شائعة في الأمصار ،
ولكنها لم تقتل الفسطاط كما لم تقتل البصرة والكوفة .

ولم تعرف الفسطاط منذ آخر القرن الأول عصرا غلب
فيه الجهل وضعفت فيه الثقافة وانقطعت فيه المشاركة في
هذا البناء العقلي الإسلامي العظيم ، على حين نرى أن المتنبي
نفسه قد شهد شمال الشام وهو في حالة من الضعف
والاضطراب وفتور النشاط العقلي ، ظهرت آثارها واضحة قوية
في شعره أثناء الصبا والشباب .

وفرق آخر يمكن أن يلاحظ بين الحضارة التي لقيها
المتنبي في مصر ، والتي تركها في حلب . وهو أن الحضارة
المصرية كما كانت بعيدة العهد بالوجود في الماضي ، فقد
اتصلت في المستقبل لم يضعفها زوال ملك الإخشيديين ،
وإنما أتاح لها ملك الفاطميين فرصة مكنتها من منافسة
بغداد والتفوق عليها . على حين لم يكد يضعف سلطان
الحمدايين حتى ذوت أزهار الحضارة الحلبية ، وأسرع شمال
الشام ، فعاد أو كاد يعود إلى الحال التي كان عليها حين
زاره المتنبي في أوائل القرن الرابع . ومعنى هذا كله أن
الحضارة المصرية لم تكن عارضة ولا طارئة ، لم يذك
جذوتها قائد أو أمير ، فتخمد بزوال ملكه وانقضاء سلطانه ،
وإنما أذكت جذوتها طبيعة مصر الخالدة الهادئة ، التي
لا تحب الجمعجة ، ولا تنهالك على الفخر بما قد يعرض
لها من لين الحياة .

هذه الحضارة المصرية لقيها المتنبي في الفسطاط ، ولقيها
متنوعة مختلفة ، ولقيها أشد عمقا وتفاوتا مما رأى في حلب .
فقد كان النشاط في حلب محصورا أو كالمحصور في المتصاين

بسیف الدولة ، لأن سيف الدولة هو الذي أنشأه ودعاه
واشتهر بالمال . أما في مصر فقد كان النشاط مفرقا في
غير مجلس . كان في مجلس كافور ، وكان في مجلس وزرائه
وقادته ، وكان في المساجد العامة وفي المدارس الخاصة .
بل لم يكن في الفسطاط وحدها ، وإنما كان فيها وفي غيرها
من المدن الكبرى . في مصر العليا وفي مصر السفلى أيضا .
ولم يكن بدّ للمتنبي من أن يحسب حساب هذا النشاط ،
ومن أن يقدر أن شعره سيلقى في الفسطاط بمثل ما كان
يلقى به في حلب من النقد والدرس والتحليل ، على أقل
تقدير . وقد ظهر أثر هذا في شعر المتنبي الذي قاله في
مصر ، فقد ظل الشاعر ملاحظا نفسه ، مراقبا فنه ،
لا يظهر الشعر ولا ينشده إلا بعد الامتحان والابتلاء
والتحريض . ولست أغلو إن قلت : إن شعر المتنبي في مصر
أقل سقطا من شعره في حلب . لأن المتنبي فيما يظهر كان
يقدر العلماء والمتقنين المصريين أكثر مما كان يقدر العلماء
والمثقفين الذين كان يلقاهم في قصر الحمدانيين .

ولسبب آخر لا بد من الإلمام به والإشارة إليه ،

فأكثر ما يضعف شعر المتنبي في حلب حين يقول الشاعر
في المناسبات المختلفة مرتجلا حينما ، وطائعا للأمر حينما آخر ،
ومتكلفا ليثبت أمام منافسيه مرة ثالثة .

أما في مصر فشعر المناسبات لا يكاد يوجد في الديوان ،
ولم يحتج الشاعر إلى الارتجال ، لأن اتصاله بكافور لم يكن
من القوة بحيث يثير حاجته إلى ذلك ، فلم يصف كافور
للمتنبي ، ولا صفا المتنبي لكافور ، ولا كان بينهما من هذه
المودة الخالصة المتصلة ما يدعو إلى ارتجال الشعر في الموضوعات
التافهة المتنوعة ، إلا أن يكون المتنبي قد جحد ذلك فيما بعد
جحودا ، ومجاه من ديوانه وذاكرته محوا ، ولم يرد أن
يبقى من هذا الشعر ما يصور نفسه عارية أمام كافور ، كما أبقى
منه ما صورها عارية أمام بدر والحسن بن عبد الله بن طنج
وأبي العشائر وسيف الدولة .

ومهما يكن من شيء فشعر المتنبي الذي قاله في مصر
أو الذي ألهمته إياه مصر مختار كله ، برئ من السخف
واللغو أو كاد .

ونلاحظ هنا ظاهرة قد كنا نستطيع أن نلاحظها في
حلب ، أو في غيرها من البلاد التي أقام فيها المتنبي ، لا نكاد
نستثنى منها إلا الشيء القليل . نلاحظ أن البيئة الطبيعية لم
تكن تؤثر في نفس المتنبي كثيرا ، فقد كان يمر بالمدن
والقرى ، ويعيش فيها دون أن يراها أو دون أن يظهر في
شعره أنه رآها أو أنها أثرت في نفسه تأثيرا قويا أو ضعيفا .
ولولا أنه وصف بحيرة طبرية حين مدح على بن إبراهيم
التنوخى ، وألم إلماما يسيرا بوصف لبنان حين مدح الأوراجي
ووصف وادي بوان حين مدح عضد الدولة ، وسمى طائفة
من المدن والقرى والجبال تسمية . لولا هذا لقلنا : إن المتنبي
قد مر بالدنيا ولم يرها . ولكننا نستطيع الآن أن نقول : إنه
مر بالدنيا ورآها ، ولكنه لم يحفل بها . نستغفر الله ، بل لم
يحفل بمظاهر الطبيعة فيها ، لأنه كان مشغولا عن الطبيعة
بنفسه وبالناس . وهو كان يرفع بصره إلى السماء أحيانا إذا

جنه الليل وأرقه الحزن والبأس ، فيرى النجوم وربما وصف
النجوم فأحسن الوصف ، وربما صور الليل فأحسن التصوير ،
وربما أبدع في وصف وادي بوان ، وربما راع في وصف
بحيرة طبرية ، ولكنه في هذا كله لم يكن يقصد إلى الوصف
من حيث هو فن يطلب لنفسه ، ويتخذ وسيلة إلى الجمال
الخالص ، وإنما كان يتخذ الوصف وسيلة إلى ما يثور في
نفسه من العواطف والأهواء .

فالطبيعة عنده ليست شيئاً ذا خطر ، وإنما الأمر
الخطير حقا عند المتنبي شيئان : نفسه ليعبدها ، والناس
ليبغضهم أشد البغض ، ويذمهم أقبح الذم ، ويتملق منهم -
أشنع التملق من يستطيع أن ينفعه بالجاه أو بالمال .
ومن هنا نفهم أن يزور المتنبي مصر ويقيم فيها أعواماً
متصلة ، ثم لا يظهر للطبيعة المصرية أثر يذكر في شعره .
فهو يسمى المقطم في مدحه لكافور ، وهو يسمى الأهرام
في رثائه لأبي شجاع ، وهو يذكر النواطير في هجائه لكافور ،
وهو يذكر السواقي في مدحه لكافور وتعريضه بسيف الدولة
ولكنه لا يزيد على التسمية والذكر .

وقد لاحظ الأستاذ بلاشير في شيء من الدهش أنه حين طلب إليه كافور أن يصف دارا جديدة انتقل إليها لم يزد على أن وصف كافورا نفسه وهنأه بهذه الدار . وقد كان موقع الدار من النهر والجبل ، وما يحف بها من الحدائق والبساتين ، خليقا أن يلهم الشاعر شيئا ، ولكن الشاعر لم ير إلا كافورا الذي يستطيع أن يمنح المال والولاية ، وإلا نفسه التي تتحرق جشعا إلى المال وطمعا في الولاية . وليس في شيء من هذا ما يدعو إلى الدهش ، فقد كان المتنبي كما قلنا لا يرى إلا نفسه والناس الذين يرغب إليهم أو يرغب عنهم . وهو لم يعرض عن طبيعة مصر وحدها ، وإنما أعرض عن طبيعة غيرها من البلاد إلا هذه الأماكن القليلة التي استثنيناها .

وأغرب من هذا كله أن المتنبي كان بدوى الطبع ، كثير الإقامة في البادية ، كثير الاضطراب في الصحراء ، فكان خليقا أن يصور لنا بعض التصوير طبيعة البادية والصحراء . ولكنه لم يصنع من ذلك شيئا ، وقد احتاج إلى أن يسلك سبيل الفحول من قبله ، فيصف الإبل والطرق

والأسفار ، وما تكلف من جهد وما تحمل من عناء . ولكنه
استعار هذا كله أو أكثره من الذين سبقوه ، ولم يصف
أو لم يكد يضيف إليه شيئا جديدا . وليس لذلك فيما أعتقد
إلا سبب واحد ، وهو أنه كان يقطع الصحراء ويضطرب
في البادية ، ولا يرى في هذه ولا في تلك إلا نفسه وإلا
عدوا يرهبه ، أو صديقا يرغب إليه .

وليس أدل على ذلك من هذا الشعر الذي قاله حين
هرب من مصر ، فوصف الطريق التي سلكها من الفسطاط
إلى الكوفة . فإنك لا تجد في هذا الشعر الجميل الرائع من
هذه الطريق الطويلة الشاقة ، التي كانت خليقة أن تلهمه
أبرع الشعر وأروعها إلا تسمية للأماكن التي مرَّ بها أو نزل
فيها ، كأنه جغرافي يصف طريقا من الطرق . نستغفر الله ،
بل يسمى مواضع بعينها من هذه الطريق .

والمتنبى لم يهمل الطبيعة المصرية وحدها ، وإنما أهمل
الحضارة المصرية أيضا . فنحن نعرف أنه زار الفسطاط ،
ولكننا نعرف هذا من التاريخ ومن هذه الأسطر التي
يقدم بها الديوان بين يدي القصائد التي يتألف منها شعره

المصرى ، فأما الحياة في مدينة القسطنطينية ، نفسها حين
يقوم فيها من العمارات ، فأما ما كان يملؤها من النشاط
على اختلاف ألوانه ومظاهره ، فليس له في شعر المتنبي أثر
ولا ظل . وما ينبغي أن ننكر ذلك أو نضيق به ، فلم يكن
حظ حلب أو دمشق أو الرملة أو الكوفة أو أرجان أو شيراز
أو بغداد من شعره خيرا من حظ القسطنطينية .

قلت لك : إنه كان يمر بالمدن والقرى ، ولا يكاد يراها ،
بل أغرب من هذا كله أنه خرج ذات ليلة من قصر
سيف الدولة ، فصادف نهر قويق ، وقد مد وطغى على شاطئيه .
فقال في ذلك رجزا ، ولكنك تقرأ هذا الرجز فلا ترى
فيه النهر ولا ماءه ، وإنما ترى فيه سيف الدولة ، لأنه
اتخذ هذا المظهر الشعري الذي كان خليقا أن يلهم شعرا
جميلا وسيلة إلى مدح سيف الدولة ووصفه بالكرم والجود
كدأبه حين كان يرى السحاب متكاثفا أو يرى المطر
منهمرا ، فلا يفتح الله عليه إلا باتخاذ السحاب والمطر وسيلة
إلى تملق من كان في حاجة إلى أن يتملقه من الناس .

والأسفار ،

٦

وشعر المتنبي في كافور قليل بالقياس إلى شعره في
سيف الدولة ، ولكنه مختلف متنوع لا بأس بالوقوف القصير
عند أنواعه وفنونه . لأنها تصور لنا براعة الشاعر في معالجة
هذه الفنون على تباين ما كان عليه من الأحوال . فهو
قد مدح كافورا وطمع فيه واستنجزه وعده ، وهو قد تغنى
حزنه ويأسه ، وخوفه وإشفاقه . وهو قد عرض بسيف الدولة
وعاتبه حتى انتهى أحيانا إلى الذم . وهو قد ألمَّ ببعض
وجوه السياسة الداخلية المصرية . ثم هو قد هجا كافورا
فأسرف في هجائه . وهو بعد هذا كله قد مدح أبا شجاع
فاتسكا ثم رثاه .

وإذن فننون الشعر التي طرقها في مصر ليست أقل من
فنون الشعر التي طرقها في حلب . لم يهمل إلّا فنا واحدا
هو خير ما أحسن من فنون الشعر ، وهو تصوير الجهاد بين
المسلمين والروم . فهل كانت طريقته في معالجة الفنون التي

ألم بها في مصر كطريقته في معالجة هذه الفنون نفسها حين
ألم بها في شمال الشام ؟ لا ونعم .

أما لا ، فلأن عنصرا سياسيا من عناصر الإجابة الفنية
عند المتنبي قد تأتي له في شمال الشام ولم يأت له في مصر ،
وهو الإعجاب الذي هو أساس الشعر والباعث له والدافع
إليه . كان المتنبي معجبا بسيف الدولة ، ما إلى الشك في
ذلك من سبيل . كان يريد أن يحيا في ظله ويظفر بجوائزه
وينعم بنائله . هذا حق ، ولكنه قبل هذا وبعد هذا ، كان
مكبرا للأمير الحمداني ، معجبا به ، مفتونا بحسن بلائه في
جهاد العدو من العرب والروم . وأحسب أنه لو لم يتصل
بسيف الدولة لقال فيه الشعر وأكثر عليه الثناء .

ولم يكن معجبا بكافور ولا محباً له ، بل هو كان
يبلغه أشد البغض ، ويزدريه أشد الازدراء . ليكن
مخطئا في ذلك أو مصيبا ، فهذا شيء لا خطر له ، وإنما
الواقع أنه كان يمقت كافورا ويزدريه . وإذن فهو عند
ما كان يمدح سيف الدولة كان يصدر عن الإعجاب والرغبة
وعند ما كان يمدح كافورا كان يصدر عن الرغبة وحدها ،

وكان مضطرا إلى أن يكظم عواطف البغض ويحمل نفسه على ما لا تريد . كان صادقا أمام نفسه حين كان يمدح سيف الدولة ، وكان كاذبا منافقا أمام نفسه حين كان ينشئ المدح وينشده في كافور .

فإذا أتيحت له الإجابة في سيف الدولة ، فليس في ذلك غرابة ، وإذا أتيحت له الإجابة في كافور فهذا هو الغريب حق الغريب .

وعلى عكس ذلك غضب المتنبي على سيف الدولة فعاتبه وألح في عتابه ، وعرض به وانهى أحيانا إلى الهجاء . ولكنه كان معجبا دائما بسيف الدولة ، فلم يكن غضبه عليه إلا حزنا لفراقه ولونا من خيبة الأمل فيه .

ثم غضب على كافور فعاتبه أول الأمر ، ثم هجاه بعد ذلك ، فكان مظهر الفن في العتاب والهجاء معا كسا لمظهر الفن في المدح . كان صادقا أمام نفسه في هجاء كافور فلا غرابة في أن يحميد ، وكان كاذبا متكلفا في نعيه على سيف الدولة فلم يكن يبلغ منه شيئا .

ولم تكن السياسة المصرية تهتم المتنبي أو تعنيه لأنه

لم يكن مشتركا فيها كما كان مشتركا في السياسة الحمدانية
ولأن هذه السياسة المصرية كانت من الهدوء والاستقرار
بحيث لم يكن فيها ما يثير الشعر أو يلهم الشعراء . ولذلك
قل شعر المتنبي السياسى عند كافور ، ولم يقل منه إلا قصيدتين
اثنتين سنقف عندهما بعد حين .

أما الفن الذى أجاده المتنبي وبرع فيه ، أثناء إقامته في
مصر ، فهو الغناء . فقد وفق المتنبي إلى نغمات جديدة لعله
لم يوفق إلى مثلها في شعره كله . ولم تسكد تخلو من هذا
الغناء قصيدة من قصائد المتنبي التى مدح بها كافورا أو هجاء ،
والتي مدح بها فاتكا أو رثاه . وهو بعد هذا قد خرج
عن مألوفه منذ زمن بعيد ، فاخص نفسه بشيء من الشعر لم
يشرك معها فيه أحدا بمدح أو هجاء .

وكنا نعرف ذلك من المتنبي في صباه وشبابه ، فلما
اتخذ الشعر صناعة ووسيلة إلى العيش أعرض عن القصائد
الخالصة له وجعل قصيدته قسمة بينه وبين الممدوح ، له أولها
والممدوح آخرها . ولكنه حين انتهى إلى مصر وأنفق
فيها شطرا من وقته ينتظر الوفاء بالوعد ، ورأى أنه لا يظفر

بشيء ، وأنه لا يستطيع أن يجهر بكل ما يحس أو يعلن
كل ما يجد ، تغنى حزنه وألمه وانتظاره وسخطه وندمه
في شعر رائع حقا .

ثم لم يكد يخرج من مصر ويستأنف حياته في العراق
وفارس حتى عاد إلى طريقته الأولى ، فجعل الشعر قسمة بينه
وبين غيره من الناس .

ولم يحدث المتنبي شيئا ذا بال في القصيدة التي مدح بها
فاتكا ، ولا في المراثي التي قالها فيه ، وإنما مضى في هذا
المدح والرثاء على عادته المألوفة في هذين الفنين ، فقلد
غيره وقلد نفسه ، ولم يتجاوز ما سبق إليه من ذلك . وكل
ما أحدثه أنه كان شديد الضغن على كافور ، فكان يعرض
به في رثاء أبي شجاع ، ولكن هذا ليس بالشيء الخطير
ولا بالأمر الذي يحفل به .

فلنقف وقفات قصارا عند نماذج من هذه الفنون التي
ألم بها المتنبي في مصر ، فهي في حقيقة الأمر لا تحتاج إلى
الوقوف الطوال ، ولكن إهمالها غير ممكن ولا ميسور .

٧

وقد مدح المتنبي كافورا بثمان قصائد ، أنشده أولاها
في جمادى الثانية سنة ست وأربعين وثلثمائة ، وهي اليائية
التي مطلعها :

كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا

وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

وفي هذه السنة نفسها بنى كافور دارا ، وطلب إلى
المتنبي أن يذكرها فأنشده همزيته التي أولها :

إِنَّمَا التَّهْنِئَاتُ لِلْأَكْفَاءِ

وَلِمَنْ يَدِّي مِنْ الْبُعْدَاءِ

وفي هذه السنة كذلك أنشده بائيته التي أولها :

مَنْ الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ

مُحْمَرِ الْحِلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلَايِبِ

وفي آخر هذه السنة أنشده داليته التي أولها :

أَوْدُ مِنْ الْإِيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ

وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهِيَ جُنْدُهُ

فهو ، إذن ، كان مكثرا في مدح كافور لأول عهده به
يريد أن يظفر بحبه أو بالمكانة عنده ، كما كان مكثرا في
مدح سيف الدولة حين اتصل به سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة .
ولكن سيف الدولة أَرْضَى حبه للمال وأَرْضَى إعجابه بجلال
الأعمال ، فَمَضَى عَلَى الْإِكْثَارِ فِي مَدْحِهِ . ولم يبلغ كافور
من ذلك ما كان يبلغه سيف الدولة ، ففترت همه الشاعر
بعض الفتور .

فلما كانت سنة سبع وأربعين وثلاثمائة انتقل كافور
من دار إلى دار فأنشده تلك الأبيات التي أولها :

أَحَقُّ دَارٍ بِأَنْ تُدْعَى مُبَارَكَةً

دَارُ مُبَارَكَةِ الْمَلِكِ الَّذِي فِيهَا

وفي هذه السنة نفسها أهدى إليه كافور فرسا فشكر له
هديته بالميمية التي يقول في أولها :

فِرَاقُ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُدَمِّمٍ
وَأُمٌّ وَمَنْ يَمَمْتُ خَيْرُ مَيِّمٍ

وفي شوال من هذه السنة مدحه بالبائية التي أولها :

أُغْلِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أُغْلِبُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ
ثم أنشده في شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمائة
آخر مدائح له ، وهي البائية التي أولها :

مُنَى كُنَّ لِي أَنَّ الْبَيَاضَ خِضَابُ
فَيَخْفَى بِتَبْيِضِ الْقُرُونِ شَبَابُ

ومن الخطأ أن يظن أن المتنبي قد خص كافورا بهذه
المدائح ، وإنما الصواب أنه جعلها قسمة بين ثلاثة أشخاص :
الأول ، المتنبي نفسه ، حين كان يتغنى آلامه وأحزانه ، وحين
كان يرغب إلى كافور في تحقيق آماله ويستنجزه ما قدم له
من وعد ، والثاني ، سيف الدولة حين كان يعيبه حينما ويعاتبه
حينما آخر ، ويظهر الندم على فراقه ، ويعرض بالعودة إليه
مرة ثالثة ، والشخص الثالث والأخير هو كافور .

ولسنا في حاجة إلى أن ندرس هذه القصائد كلها ، فبعضها
يغنى عن سائرهما لأن موضوعاتها ومعانيها متشابهة ، وإن
اختلفت فيها ألوان التصوير والتعبير . فلننظر قبل كل شيء
إلى هذه الياثية التي أنشدتها لأول عهده به . فهي بطبيعة
الحال مشتملة على هذه الموضوعات الثلاثة التي قدمنا ذكرها .
فأما القسم الأول منها فغناء بآلام الشاعر وأحزانه
لما أصابه من خيبة الأمل وما أدركه من الإخفاق ، وهو في
هذا القسم شديد على سيف الدولة ، مسرف في الشدة عليه ،
يريد أن يغيظه ويحفظه ، ويشير في نفسه الندم على ما قصر
في ذاته وفرط فيه . وهذه الشدة نفسها تصور ما كان يملأ قلب
المتنبي ، ويفعم ضميره من الغيظ والحنق ومن الأسف والندم ،
فنفسه تنازعه أشد النزاع إلى سيف الدولة ، وقلبه لا ينفك
يهفو إليه . وهو يعنف قلبه أشد التعنيف ويؤنب نفسه أوجع
التأنيب على هذا الحنين ، إلى من لا يستحق حنيئا والوفاء
لمن لا يستأهل وفاء . وهو يرى سيف الدولة غادرا ، وينكر
نفسه إن صابت إليه ، وينكر دموعه إن جرت في أثره ،
وهو على ذلك لا يعدو أن يكون محبا ينسب بحبيبه ويبكي

في أثر هواه ، ويشتد في اللوم والتعنيف على هذا الحبيب
الذي أسرف في الهجر حتى انتهى إلى الغدر . ولكنه يتجاوز
هذا الغزل الحاد العنيف إلى شيء يوشك أن يكون هجاء ،
لولا أننا نحس منه الغيظ المتأجج الذي ينتهي بصاحبه إلى
التحدى وذلك حين يقول :

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيْرِهِ

وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَابِيَا

فالشرط الأول من هذا البيت غيظ قد بلغ أقصاه وانتهى
إلى التحدى ، الذي يصور ألم المتنبي أكثر مما يصور شيئاً
آخر . والشرط الثاني من هذا البيت هو نتيجة هذا الغيظ ،
وهو أشبه شيء بما يقوله العاشق الذي أخرجه الهجر عن
طوره ، فأخذ يتسلى باللهو العارض ، والحب المتكلف ،
والصباية الكاذبة ، ويزعم للتي ملكت قلبه أن التي تمنحه
اللذة والعزاء فلا تلذه ولا تعزيه ، أروع منها جمالا وحسنا .
ثم يمضي المتنبي في مدح كافور إلى أن يقول :

إذا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِي بِالْهِنْدِ
فَإِنَّكَ تُعْطَى فِي نَدَاكَ الْمَعَالِيَا
وغيرُ كثيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ
فَيَرْجِعَ مَلَكًا لِلْعِرَاقِيِّينَ وَالْيَا
فَقَدْ تَهَبَّ الْجَيْشَ الَّذِي جَاءَ غَازِيَا
لِسَائِلِكَ الْفَرْدِ الَّذِي جَاءَ عَافِيَا
فهو هنا يعرض بحاجته ويتجنب التصريح . ولكن
تعريضه واضح كل الوضوح ، ويرجع إلى مدح كافور ، إلى
أن يقول :

إِذَا الْهِنْدُ سَوَّتْ بَيْنَ سَيْفِي كَرِيهَةٍ
فَسَيْفُكَ فِي كَفِّ تَزِيلِ التَّسَاوِيَا
فإذا هو يعود إلى سيف الدولة بتعريض الغائظ المغيظ .
ومن قبل عرض بسيف الدولة ففضل عليه كافورا في الرفعة
والكرم حين يقول :

فَجَاءَتْ بَنَا إِنْسَانَ عَيْنَ زَمَانِهِ
وَحَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا

نَجُوزٌ عَلَيْهَا الْمُحْسِنِينَ إِلَى الَّذِي

نَرَى عِنْدَهُمْ إِحْسَانَهُ وَالْأَيَادِيَا

وَعَرَضَ بَانْهَزَامِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لِكَافُورٍ فَقَالَ :

غَزَوْتُ بِهَا دُورَ الْمُلُوكِ فَبَاشَرْتُ

سَنَابِكُهَا هَامَاتِهِمْ وَالْمَغَانِيَا

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ النَصِيبَ الْأَوْفَى مِنَ الْقَصِيدَةِ شَائِعٌ بَيْنَ
الْمُتَنَبِّئِ وَسَيْفِ الدَّوْلَةِ ، يَصْرَحُ مَرَّةً وَيَعْرِضُ أُخْرَى ، وَلَكِنَّهُ
مَعَ ذَلِكَ يَمْدَحُ كَافُورًا فَيُحَسِّنُ الْمَدْحَ دُونَ أَنْ يُخْرِجَ عَنِ
الْمَأْلُوفِ أَوْ يَأْتِيَ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ . وَإِنَّمَا هِيَ الْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِ
جُودِهِ وَذِكَاثِهِ ، وَعِزِّهِ وَمُضَائِهِ ، وَبَاسِهِ وَعِصَامِيَّتِهِ . يُؤَدِّي
هَذَا كُلَّهُ أَدَاءً حَسَنًا ، لَا مَشَقَّةَ فِيهِ وَلَا جُهْدَ ، وَلَا تَكْلَفَ
فِيهِ وَلَا عَنَاءَ .

فَإِذَا تَرَكْتَ هَذِهِ الْيَائِيَّةَ إِلَى الْبَائِيَّةِ الرَّائِعَةِ الَّتِي مَدَحَ
بِهَا كَافُورًا فِي شَوَالِ مِنَ السَّنَةِ نَفْسَهَا ، رَأَيْتَ مَذْهَبَهُ فِيهَا
كَمَذْهَبِهِ فِي الْقَصِيدَةِ السَّابِقَةِ ، فَهُوَ يَقْسِمُهَا قِسْمَيْنِ : قِسْمًا لِلْغَنَاءِ
وَقِسْمًا لِلْمَدْحِ . وَهُوَ يَذْهَبُ فِي غَنَائِهِ مَذْهَبَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ يَقْصِدُ

بأحدهما إلى الرمز والإيماء ، وبالأخر إلى الفلسفة العريضة .
ويذهب بمدحه مذهبين أيضا يخص بأحدهما كافورا ، ويشيع
الثاني بين كافور وسيف الدولة والمتنبى نفسه . فأما اصطناعه
للمرئ والإيماء فحين يتغزل بالأعرابيات ويطيل في ذكرهن
ويؤثرهن على الحضريات . وهذا الجزء من قصيدته مشهور
شائع ، قد أعجب الناس به منذ زمن بعيد ، ولكنهم فهموه
على وجهه الظاهر القريب . وأذهب في فهمه أنا مذهبا
آخر ، فأرى فيه حنيننا إلى حياته في شمال الشام ، حيث البداوة
أغلب من الحضارة ، وحيث البأس أظهر من اللين ، وحيث
المخاطرة والمغامرة والتعرض للمكروه . وكأن الشاعر قد ضاق
بهذه النعمة الهائلة ، وهذا الخفض الآمن في مصر ، وشاقه
صليل السيوف وصهيل الجياد ، ولكنه لم يستطع أن يجهر
بما يجد من ذلك فاتخذ الأعرابيات كناية عنه ورمز له ، كما
اتخذ الحضريات كناية عما كان في مصر من حياة ناعمة فاترة
فيها تكسر وخضوع .

والقدماء يعجبون أشد الإعجاب بهذا البيت من هذه

القصيدة وهو :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وأثنى وبياض الصبح يغري بي
وربما كنت ردئ الذوق ، ولكني أحب أن أعجب
بهذا البيت فلا أظفر بما أريد من الإعجاب الخالص الذي
لا يشعر به نقد ولا عيب . فما الذي يعجب في هذا البيت
هو هذا الطباق الكثير المتتابع ، الذي يحدث موسيقى ظاهرة
التأثير في النفس . فالشاعر يطابق بين الزيارة والثناء
عنها . وهو يطابق بين السواد والبياض ، وبين الليل والصبح
وبين الشفاعة له والإغراء به . وبعض هذا الطباق يكفى
لإرضاء المشغوفين بالبديع . وهذا الطباق نفسه قد يرضيني ،
لولا أني أجد في القافية انحدارا ثقيلا على السمع أشد الثقل
فأنت بين اثنتين : إما أن تجعل قوله يغري بي في مقام
الكلمة الواحدة ، فتنتطق بها موصولة ولا تشعر بما فيها من
التفريق لتستقيم لك القافية على نظامها الموسيقي المألوف ، وإذن
فقد أفسدت النطق وأسأت إلى الصوت اللغوي نفسه .
وإما أن تنطق بهذه الجملة على وجهها فتشعر بأن لفظها يتألف
من فعل وحرف وضمير وتنبر الباء إن جاز هذا التعبير ،

وإذن فقد صح لك النطق الغوى ، ونبت عليك القافية
نبوا شنيعا .

وسواد الليل كان يشفع للمتنبي عند من ؟ عند عدوه ،
فما يحتاج العدو إلى هذه الشفاعة وما يرضاها . وما أظنه
إلا كان يريد أن سواد الليل كان يخفيه على الرقباء فيحميه
منهم ، وأن بياض الصبح كان يظهره للرقباء فيغريهم به
ويعرضه لأذاهم . والمعنى قديم جدا طرقة عمر بن أبي ربيعة
كما طرقة امرؤ القيس من قبل . فلم يزد شاعرنا على أن
أوجزه أشد الإيجاز واصطنع فيه هذا الطباق الكثير الذى
كان خليقا أن يحسن ، لولا ما ينتهى إليه من نبو القافية .
فإذا فرغ المتنبي من هذا الغزل الرمزي عمد إلى فلسفته

الصريحة الواضحة فقال :

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوَّهَةً

تَرَكَتْ لَوْنَ مَشِيئِي غَيْرَ مَخْضُوبِ

وَمِنْ هَوَى الصَّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَتِهِ

رَغِبْتُ عَنْ شَعْرِ فِي الرَّأْسِ مَكْذُوبِ

لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعْتَنَى الَّذِي أَخَذَتْ

مِنْهُ بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجَرِّبِي

فِي الْحَدَاثَةِ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ

قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فِي الشَّبَّانِ وَالشَّيْبِ

فهذا الكلام من أروع الشعر وأجمله ، يعجبني فيه
هذا الانتقال من إيثار الجمال البدوي الصريح ، الذي لم يصنع
ولم يتكلف ، إلى إيثار الشيب الواضح الذي لا يخفيه الخضاب .
ثم يعجبني أيضا عدول الشاعر إلى الحق واعترافه بأنه
يحتمل المشيب كارها له وراغبا عنه ، بعد أن صرح بأنه لم يرد
أن يخفيه بالخضاب . فهو يؤثر الصراحة على النفاق ، وهو
يؤثر الصدق على الكذب ، وهو يؤثر أن يكون شجاعا
تؤذيه الشجاعة وتعنيه على أن يكون منافقا يغر نفسه بالآمال
والأوهام . ثم هو بعد ذلك يتمنى العودة إلى الشباب
ويضحى في سبيل ذلك لو استطاع بكل ما أفاد من علم وحلم .
ومن الذي زعم أن العلم والحلم لا يستفادان إلا بالشيب
والضعف وتقدم السن . لقد يوجد العلم والحلم عند الشبان

الذين لم يراعوا في شبابهم ، كما يوجدان عند الشيب الذين
اشتروها بما أضاعوا من القوة والأمل والنشاط .

وكل هذه الفلسفة ، وكل هذا الغناء ، إنما يشير الشاعر
به إلى هذا الحزن الغامض العميق الذي يملأ نفسه ، والذي
يستطيع أن يفصل أسبابه . ولكنه لا يستطيع أن يحصره
ولا أن يحيط به ، ثم ينتهي الشاعر إلى كافور ، فيقول :

تَرَعَرَعَ الْمَلِكُ الْأَسْتَاذُ مُكْتَهِلًا

قَبْلَ اكْتِهَالِ أَدِيبًا قَبْلَ تَأْدِيبِ

مُجَرَّبًا فَهَمًّا مِنْ قَبْلِ تَجَرُّبَةٍ

مَهْذَّبًا كَرَمًا مِنْ غَيْرِ تَهْذِيبِ

حَتَّى أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا نَهَائِهَا

وَهَمُّهُ فِي ابْتِدَاءَاتٍ وَتَشْبِيبِ

ومن الناس من يظن أن المتنبي قصد بهذا الشعر وأشباهه
إلى كلام ظاهره المدح ، ويمكن أن يلتوى به السامع أو القارئ
لأن الشاعر قد التوى به إلى الذم .

وما أظن إلا أن هذا النحو من فهم شعر المتنبي في

كافور ، تكلف في كثير من الأحيان ، يدفعنا إليه ما نعلمه
من سوء رأى الشاعر في ممدوحه ، ومن غضبه عليه وهجائه
له . وليس المهم هو أن نفسر الشعر بما فسر به المتنبي نفسه
في أحاديثه ودروسه بعد أن هرب من مصر ، ولا أن نفسر
الشعر بما فسر به الشراح الذين سمعوا المتنبي وتأثروا بحديثه
والذين سمعوا الأخبار أو صنفوها حول ورود المتنبي على كافور ،
وإقامته . وإنما المهم أن نفترض أننا ظفرنا بهذا الشعر غفلا
من كل تفسير ، ولم نعلم من أمر قائله والمقول فيه شيئا .
أفكنا نظن أن صاحبه قد التوى به عن وجهه الظاهر ،
وأراد به خداعا ومكرا ؟ كلا . إنما كنا نفهم في يسر وسهولة
أن الشاعر لم يرد إلا أن يصور عصامية الأمير وتفوقه ،
وما أتيح له من النبوغ والظفر بما لا يظفر به أذكىاء الناس
والذين كملت لهم العدة وتمت لهم أدوات الفوز ، دون أن يستعد
لذلك أو يتهيأ له ، ودون أن يرث ذلك عن أب أو جد .

كذلك كنا نفهم هذا الشعر وما كان يخطر لنا أن
قائله قصد به إلى وجه آخر من وجوه التعريض والتلميح .
ولكن المتنبي فارق الأمير مغاضبا له ساخطا عليه نادما على

مدحه خبلا من الإسراف في هذا المدح ، مستخذيا من
الخبيثة والإخفاق ، مجتهدا بالطبع في أن يأخذ ما أعطى
وينكر ما عرف ويغير ما قال . وهو نفسه ينبئنا في هجائه كما
سترى أنه لم يمدح كافورا ، وإنما عبث به ، وأنه لم يكن
يزوره مكبرا له بل ساخرا منه . ولكننا نعلم حق العلم أن
هذا كلام شاعر مغيظ مخنق . والمتنبى متهم عندنا في أحد
الحالين ، فإن صدق ما قاله في الهجاء فقد كذب ما قاله في
المدح ، وإن صدق ما قاله في المدح ، فقد كذب ما قاله في
الهجاء . وهو مع ذلك صادق عندنا في الحالين بشرط أن
نفهمه على وجهه ، لا كما يحب هو أن نفهمه ، فقد كان صادقا
حين مدح كافورا ، وكان كاذبا في الوقت نفسه . كان صادقا
لأنه أراد المدح ولم يرد غيره ، وكان كاذبا لأنه لم يمدح عن
يقين ولا عن إيمان ، وإنما مدح عن رغبة وطمع ، فقال
غير ما يعتقد وأثنى بغير ما يرى .

وهو كذلك صادق كاذب في هجائه : صادق لأنه كان
يهجو عن غضب وسخط وبغض ، وكاذب لأنه كان يقول
غير الحق ويذيع في هذا الأمير من السيئات ما كان يكذبه

فما بينه وبين نفسه إذا خلا إليها .
وما أ كثر الأحوال التي يفرض فيها علينا البحث
الصحيح أن تهم الشعراء والكتاب فيما يتحدثون به عن
أنفسهم مادحين أو قادحين .

ويمضي المتنبي بعد ذلك في مدح كافور فيقول :
يُدْبِرُ الْمَلِكُ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدَنٍ
إِلَى الْعِرَاقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ
إِذَا أَتَتْهَا الرِّيحُ النَّكْبُ مِنْ بَلَدٍ
فَمَا تَهْبُّ بِهَا إِلَّا بِتَرْتِيبِ
وَلَا تُجَاوِزُهَا شَمْسٌ إِذَا شَرَقَتْ
إِلَّا وَمَنْهُ لَهَا إِذْنٌ بِتَغْرِيبِ

وما أظن أحدا يقدر أن المتنبي كان يعبت في هذا المدح ،
وإنما لهجة الشاعر هنا صادقة صريحة ، تدل على إعجابه بهذا
الأمير ، الذي سمت به همته وحدها من أسوأ الحالات إلى
تدبير هذا الملك الواسع العريض . ولكن سعة هذا الملك
وعرضه يطمعان المتنبي في رقعة منه ضيقة في مدينة من

مدنه أوقرية من قراه . ونفسه تتحرق شوقا إلى هذه
الولاية . ولكنه مع ذلك لا يصرح في هذه القصيدة
كما لم يصرح في القصيدة الماضية ، وإنما يكتفى
بالتعريض الواضح الجلى بعد أن يمضى في مدح الأمير مدحا
حسنا قويا . على أنه قبل أن يعرض بحاجته لا يهمل التعريض
بسيف الدولة فهو يقول :

قالوا هَجَرْتُ إِيْلِهِ الْغَيْثَ قُلْتُ لَهُمْ
إِلَى غُيُوثٍ يَدِيهِ وَالشَّائِبِ
إِلَى الذِّى تَهَبُ الدَّوْلَاتِ رَاحَتُهُ
وَلَا يَمْنُ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبِ
وَلَا يَرُوعُ بِمَغْدُورٍ بِهِ أَحَدًا
وَلَا يُفَزِّعُ مَوْفُورًا بِمَنْكُوبِ

وظاهر ما فى هذا الكلام من التعريض الواضح الثقيل
بأخلاق سيف الدولة وما فيه أيضا من جحود الجميل وإنكار
النعمة . وظاهر كذلك ما فى البيت الثانى من هذه الأبيات
من تجاوز للحد فى انتقاص صديقه ومولاه القديم والتلميح

بحاجته التي يضحى فيها حتى بالحياء .

فكافور لا يهب المال وحده ، ولا يهب من المال أكثر
مما كان يهب سيف الدولة فحسب ، ولكنه يهب الدولات .
فهو يستطيع أن ينشئ دولا ، وأن يجعل لهذه الدول سيوفا .
وانظر إلى البيتين الأخيرين من هذه القصيدة فهما
يغنيان عن كل تفصيل ، لتعريض المتنبي بحاجته وتهالكه صادقا
أو كاذبا على رضى الأمير ، وإشفاقه من الغضب أو السخط ،
الذى قد يجر عليه الحرمان وخيبة الأمل :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْغَانِي بِتَسْمِيَةٍ
فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ عَنْ وَصْفٍ وَتَلْقِيبِ
أَنْتَ الْحَبِيبُ وَلَكِنِّي أَعُوذُ بِهِ
مِنْ أَنْ أَكُونَ مُحِبًّا غَيْرَ مُحْبُوبٍ

وأنا أمر مسرعا بالدالية التي مدح بها المتنبي كافورا
آخر سنة ست وأربعين وثلثمائة . ولكني أروى منها هذه
الأبيات وحدها ، لأنها تصور أبلغ تصوير وأجمله ، تلك العلة
التي حملت المتنبي في حياته ما احتمل من جهد وعناء ، وألقته

صريعا آخر الأمر في مهمه من مهمه العراق . وهذه العلة هي
قلبه الذي لا يقنع بشيء ولا يطمئن إلى حال ، وإنما هو
طامع أبدا ، طامح أبدا ، راغب في التغيير ، قلق مهما يستقر :
وفي الناس مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ

ومركوبه رجلاه والثوب جلدُه
ولاكن قلبًا بين جنبي ما له
مدى ينتهي بي في مرادٍ أحده
يرى جسمه يُكسى شُفُوفًا ترُّبه
فيختار أن يُكسى دُرُوعًا تهده
يُكفني التهجير في كلِّ مهمه
عليق مراعيه وزادى ربه
وأمضى سلاح قلده المرء نفسه
رجاء أبي المسك الكريم وقصده

ويطول انتظار المتنبى ويبطئ وفاء كافور ، ويبعد العهد
بسيف الدولة ، فيهدأ الغيظ ويسكت الغضب ويبقى الندم
قويا لا ذما . وإذا بنا نرى الشاعر يمدح كافورا سنة

سبع وأربعين وثلاثمائة بهذه الميمية التي يكفي أن تقرأ مطلعها لتفهم منه ندم الشاعر وتصور حاله النفسية ، وتبين أنه سيحمد سيف الدولة في القصيدة ويعتذر عن فراقه إياه .
يصور بذلك ندمه من جهة ، ويدعو بذلك كافورا إلى الوفاء من جهة أخرى :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُدَمِّمٍ

وَأُمٌّ وَمَنْ يَمَمْتُ خَيْرُ مُيَمِّمٍ

وتتقدم هذه السنة والشاعر منتظر ، والأمير مبطل ،
وندم الشاعر على ما خلف وراءه يقوى ويشد ويكفه أحزانا وآلاما ، وإذا هو يهنيء كافورا بعيد الفطر ، فينشده هذه البائية ، وهي آثر ما قال في كافور عندي ، لأنها تصرح عن نفس الشاعر تصرحاً لا لبس فيه . فهو حامد لآثر سيف الدولة يجهر بين يدي كافور بندمه على فراقه . وهو واصف لما اقي من الجهد في الفرار من حلب ، وهو مطالب كافورا بتحقيق أمله في غير تعريض ولا تلميح ، وهو يشير إلى أنه قد بعد عن أهله وطال بعده عنهم ، واشتد لذلك حزنه وعظم ألمه وهو يحب أن يعود إليهم ، لولا أن الآمال تقيده عند كافور

واقراً هذين البيتين وانظر إلى تصويرها للندم :

وَلِلَّهِ سَيْرِي مَا أَقَلَّ تَنْيَّةً

عَشِيَّةَ شَرْقَى الْحَدَالَى وَغُرْبُ

عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ

وَأَهْدَى الطَّرِيقِينَ الَّتِي أَتَجَنَّبُ

واقراً كذلك هذه الأبيات لترى ملله من طول

ما اشتكى وتعتب :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً

فَلَا أَشْتَكِي فِيهَا وَلَا أَتَعْتَبُ

وَبِي مَا يَذُودُ الشَّعْرَ عَنِّي أَقْلُهُ

وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قَلْبُ

وَأَخْلَقُ كَافُورٍ إِذَا شِئْتُ مَدَحُهُ

وَإِنْ لَمْ أَشَأْ تُمَلِّ عَلَىَّ وَأَكْتُبُ

وانظر بعد هذا إلحاح الشاعر على الأمير في حاجته

وتصريحه بهذه الحاجة في غير لبس ولا غموض .

أبا المسك هل في الكأسِ فضلٌ أناله
فإني أغنى مُنْذُ حينٍ وتشربُ
وهبتَ على مقدارِ كفى زماننا
ونفسي على مقدارِ كفىك تطلبُ
إذا لم تنطُ بي ضيعةٌ أو ولايةٌ
فجوْدُك يكسوْنِي وشغْلُك يسلبُ
يُضاحِكُ في ذا العيدِ كلُّ حبيبهُ
حِذائِي وأبْكِى مَنْ أَحِبُّ وَأَنْدُبُ
أَحِنُّ إِلَى أَهْلِي وَأَهْوَى لِقَاءَهُمْ
وَأَيْنَ مِنَ الْمُشْتاقِ عَنَقَاءُ مُغْرِبُ
ولكنه حسن الاستعداد للتعزى عن أهله بالبقاء مع
كافور ، بشرط أن يحسن هذا البقاء ، وأن يكون فيه الثراء
والمجد معا :

فإن لم يكنْ إلا أبو المسكِ أو همُ
فإنَّكَ أَحْلَى في فؤادِي وأَعْذَبُ
(م ١٨ — ج ٢)

وَكُلُّ أَمْرٍ يُؤَلِّي الْجَمِيلَ مُحَبَّبٌ
وَكُلُّ مَكَانٍ يَنْبُتُ الْعِزَّ طَيِّبٌ

وفي هذا البيت الأخير نفس أبي الطيب كلها .
فهو رجل لا يحب إلا نفسه . وهو سعيد حيث وجد من
الناس الجميل ، وهو راض حيث وجد المجد والعزة ، فأما
الوطن والأهل والأصدقاء ، فتأتى بعد ذلك ولعلها لا تأتى .
ولا يحفظ الديوان لنا من مدحه لكافور سنة
ثمان وأربعين وثلاثمائة إلا قصيدة واحدة ، لم نحصها فيما
أحصينا من قصائد المدح لأننا سنتحدث عنها في فصل خاص
مع قصيدة أخرى مدحه بها سنة سبع وأربعين وثلاثمائة
ولم نحصها أيضا فيما أحصينا .

وكذلك لا يحفظ الديوان من مدح المتنبي لكافور سنة
تسع وأربعين وثلاثمائة إلا قصيدة واحدة هي البائية التي
أنشده إياها حين لقيه لآخر مرة .

ثم لا يروى الديوان لنا مدحا لكافور في سنة
خمسین وثلاثمائة ، مع أن الشاعر لم يترك مصر إلا في
ذی الحجة من هذه السنة . أفيمكن أن يكون المتنبي قد

أعرض عن مدح الأمير هذا الإعراض نحو سنتين كاملتين
ولم يتهمه الأمير ولم ينكر سكوته هذا الطويل ؟ أما أن
الأمير كان يتهم المتنبي ويرصد له الأحراس ويدس عليه
الجواسيس فشيء يظهر أنه كان محققا . وأما أن المتنبي قد
سكت عن مدح الأمير ، هذا الوقت الطويل ، فشيء أشك
فيه كل الشك . وأكاد أقطع بأن المتنبي قد مضى في مدح
كافور سنة ثمان وأربعين وسنة تسع وأربعين وسنة خمسين
كعهده في السنتين السابقتين . ولكنه أسقط هذا الشعر
من ديوانه أو سقط هذا الشعر من الديوان بعد المتنبي ولم
يصل إلينا . وليس غريبا أن يستخذي المتنبي من كثرة
ما استجدى في غير فائدة ، فيسقط طرفا من هذا الاستجداء ،
ولا يبقى من شعره فيه إلا ما يقيم له الحجة عليه . ومهما
يكن من شيء فإن قصيدته الأخيرة تصور يأسه ، وأقر به
من اليأس كما تصور استخذه من شماعة أهل حلب فيه بعد
أن حاول ماحول ، وألح ما ألح ولم يظفر بطائل . وهو يقول
ذلك لكافور في لهجة مؤلمة حقا ، فانظر إلى هذه الأبيات :

أَرَى لِي بِقَرْبِي مِنْكَ عَيْنًا قَرِيرَةً
وإنْ كَانَ قُرْبًا بِالْبَعَادِ يُشَابُ
وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجُبُ بَيْنَنَا
وَدَوْنِ الَّذِي أَمَلْتُ مِنْكَ حِجَابُ
أَقِلُّ سَلَامِي حُبِّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ
وَأَسْكُتُ كَيْمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فِطَانَةٌ
سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبِّ رِشْوَةً
ضَعِيفُ هَوًى يُبْغِي عَلَيْهِ ثَوَابُ
وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَدُلَّ عَوَازِلِي
عَلَى أَنْ رَأَيْ فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَأَعْلَمُ قَوْمًا خَالَفُونِي فَشَرَّقُوا
وَعَرَّبْتُ أَنِي قَدْ ظَفَرْتُ وَخَابُوا

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين يختم بهما القصيدة :

وما كنتُ لولا أنتَ إلّا مُهاجِرًا
لَهُ كُلَّ يَوْمٍ بِلَدَةٍ وَصِحابُ
وَلِكِنِّكَ الدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةً
فَمَا عَنْكَ لِي إلّا إِلَيْكَ ذَهَابُ

فهذا شعر مستعطف ذليل بأُس قد تقطعت به الأسباب
أو كادت تنقطع . وهو يعلن حسرتَه ولهفته في لهجة عذبة
مؤثرة حقًا . ولكن كافورًا كان صاحب سياسة لا صاحب
عاطفة ، وقد كوّن رأيه في هذا الشاعر وقضى فيه بأمره
واتخذهُ أسيرًا في سجن ، ينعم فيه بلين الحياة وخفض العيش ،
ورأى أن هذا يكفيه .

وأنت بعد النظر في هذه القصائد كلها بتفصيل أو في
مما عرضت عليك مقتنع بأن المتنبي قد أثر نفسه وأثر
سيف الدولة بنخير ما فيها من الشعر ، وأن ما قدم من المدح
إلى كافور على جودة بعضه وتوسط بعضه الآخر لم يكن
يستحق أكثر مما أخذ المتنبي من مال هذا الأمير .

٨

وقد كادت الفرصة تسنح للمتنبى وتتهيء له العودة إلى
الفن الذي برع فيه عند سيف الدولة ، وهو وصف الحرب
وتصوير الجهاد ، ولكنها لم تلبث أن أخلفت الظنون
واضطرت المتنبى إلى الهدوء الذي كان يكرهه ولا يحتمله
إلا في مشقة وعناء .

٧
ففي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة كانت وحشة بين
كافور وبين أنوجور بن الإخشيد ، سعى فيها المفسدون بين
الملك ووليه ، وجدوا في السعى حتى أفسدوا بينهما وحتى
كادت الحرب تشب . ثم اصطنع كافور الحلم والأناة كما
اصطنع معهما العزم والحزم . وأحس الملك ضعفه عن الحرب
وحاجته إلى وليه فعاد الأمر بينهما إلى صفاء . وذكر المتنبى
هذه القصة مرتين : المرة الأولى حين هنا كافورا بعيد الفطر
لهذه السنة ببائيته المشهورة التي تحدثنا عنها آنفا . والمتنبى
في هذه القصيدة يجمع ولا يفصل ، ويكاد يؤثر التعريض على

التصريح ، ولكنه مع ذلك حازم عازم ، منضم إلى كافور في
غير تردد ولا التواء ، معلن أن الملك مدين لهذا الرجل ببقائه
وسلامته وقصور الأعداء عن الوصول إليه ، وقصور الأحداث
عن البلوغ منه ، لأنه قام على هذه الدولة قيام الأب الجري
الرحيم ، فرد عنها العدو الخارجي بالحرب ، ورد عنها البؤس والفقر
والاضطراب ، بحسن السياسة والتدبير . فالذين يحسدونه
أو يميكون به أو يريدون صرف السلطان عنه طاغون باغون
جاحدون للنعمة منكرون للجميل ، وذلك حيث يقول :

يُرِيدُ بِكَ الْحَسَّادُ مَا اللَّهُ دَافِعُ
وَسُمُرُ الْعَوَالِي وَالْحَايِدُ الْمَذَرَّبُ
وَدُونَ الذِي يَبْغُونَ مَالَهُ تَحْلَصُوا
إِلَى الْمَوْتِ مِنْهُ عِشْتَ وَالْطِفْلُ أَشَيْبُ
إِذَا طَلَبُوا جَدَّكَ أُعْطُوا وَحُكِّمُوا
وَإِنْ طَلَبُوا الْفَضْلَ الذِي فِيكَ خُيِّبُوا
وَلَوْ جَازَ أَنْ يَحْوُوا عُلَاكَ وَهَبَتْهَا
وَلَكِنْ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا لَيْسَ يُوهَبُ

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً
لمن ° بات في نعمائه يتقلب
وأنت الذي رببت ذا الملك مرضعاً
وليس له أم سـوالك ولا أب
وكنْتَ له ليث العرين لشـبـله
ومالك إلا الهنـداوني مـخلـب
لقيت القنا عنه بنفس كريمة
إلى الموت في الهيجا من العار تهزب

ثم يقول :

ويغنيك عما ينسب الناس أنه
إليك تناهى المكرمات وتنسب
وأى قبيل يستحق قدره
معد بن عدنان فذاك ويعرب

وظاهر ما في هذه الأبيات من اندفاع المتنبي في تأييد
كافور وصدق لهجته في النهوض بالدود عنه . ولندكر هذا
البيت الأخير الذي يفدى الشاعر فيه هذا العبد الأسود

بمعد ويعرب جميعا ، فقد ينفعنا تذكر هذا البيت حين
نرى هجاء المتنبي لكافور .

ولما تم الصلح واستقر الأمر بين الملك ووليه قال المتنبي
داليتة المشهورة يهنيء بها كافورا . وهي عندي من أجل
شعر المتنبي وأصدقه في تصوير ما يكون في مصر بين حين
وحين من الفرقة وانشقاق العصا . ثم من الوحدة واجتماع
الرأى . ومن أبياتها ما يمكن إنشاده والتأمل به في هذا العصر
الذي نعيش فيه وفي هذا الطور من أطوار تاريخنا الحديث
بصفة خاصة . ونلاحظ أن المتنبي قد أشار إلى الملك في هذه
القصيدة ، ولكنه لم يسمه وقد أثنى عليه ولكنه اقتصد في
الثناء ، وخص بالذكر والمدح الخالص كافورا .

وانظر إلى أول القصيدة :

حَسَمَ الصِّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادَى

وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ

وَأَرَادَتْهُ أَنْفُسُ حَالِ تَدْيِي

رُكَّ مَا بَيْنَهَا وَيَيْنَ الْمُرَادِ

صار ما أَوْضَعَ الخَبْرُونَ فِيهِ

مِنْ عِتَابٍ زِيَادَةٍ فِي الْوِدَادِ

وَكَلَامُ الْوُشَاةِ لَيْسَ عَلَى الْأَحْ

بَابِ سُلْطَانُهُ عَلَى الْأَضْدَادِ

إِنَّمَا تُنَجِّحُ الْمَقَالَةُ فِي الْمَرِّ

ءِ إِذَا وَافَقَتْ هَوَى فِي الْفُؤَادِ

فهذا كلام سائغ اللفظ ، قريب المعنى ، ملائم لأهواء
النفوس المجتمعة بعد افتراق ، وعواطف القلوب المؤتلفة بعد
اختلاف ، وهو قد صور الفرقة والألفة اللتين كانتا بين
الكافورية والإخشيديّة سنة سبع وأربعين وثلثمائة ، وهو في
الوقت نفسه خليق أن يتمثله المصريون في عصرهم الحديث
كلما أتيح لهم الائتلاف بعد الاختلاف ، والاتفاق بعد
الافتراق . وقد عطف المتنبي على كافور بعد هذه الأبيات
فوصف ثباته وحلمه وإعراضه عن الوشاة وامتناعه على دعاة
السوء ، في كلام ما أرى إلا أنه يصلح للإنشاد في هذا

العصر الحديث ، ويصور بعض المناهين الذين نجحهم من
المصريين . قال :

ولعمري لقد هُزِزَتْ بما قيه
لَ فَأُلْفِيتَ أَوْثَقَ الْأَطْوَادِ
وأشارتُ بما أَيْتَ رِجَالُ
كُنْتُ أَهْدَى مِنْهَا إِلَّا الْإِرْشَادِ
ثم يقول :

نَلَتْ مَا لَا يُنَالُ بِالْبَيْضِ وَالسُّمِّ
رِ وَصُنْتُ الْأَرْوَاحَ فِي الْأَجْسَادِ
وَقَنَا الْخَطَّ فِي مَرَاكِزِهَا حَوْ
لَكَ وَالْمَرْهَفَاتُ فِي الْأَغْدَادِ
مَا دَرَوْا إِذْ رَأَوْا فُؤَادَكَ فِيهِمْ
سَاكِناً أَنْ رَأَيْهُ فِي الطَّرَادِ

ثم يقول :
فبهذا ومثله سُدَّتْ يَا كَا
فَوْرُ وَاقْتَدَتْ كُلَّ صَعْبِ الْقِيَادِ

وَأَطَاعَ الَّذِي أَطَاعَكَ وَالطَّا
عَةُ لَيْسَتْ خَلَائِقَ الْأَسَادِ

ثم يقول :

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَا
طِعُ أَخِي مِنْ وَاصِلِ الْأَوْلَادِ
لَا عَدَا الشَّرُّ مِنْ بَغَى لَكُمَا الشَّرُّ
رَ وَخَصَّ الْفَسَادُ أَهْلَ الْفَسَادِ
أَتَمَّا مَا اتَّفَقْتُمَا الْجِسْمُ وَالرُّوْ
حُ فَلَا احْتِجَمَّا إِلَى الْعَوَادِ

وانظر إلى هذه الأبيات العذبة التي يملؤها الحنان ،
والتي تصور أحسن تصوير وأبدعه وأروعها ما يكون من
تواصل بعد تقاطع ، ومن مودة بعد حفيظة وضغن والتي
نحس معناها بين حين وحين ، ونود لو نحسه في كل حين :

مَنْعَ الْوُدَّ وَالرَّعَايَةَ وَالسُّوءَ
دُدُّ أَنْ تَبْلُغَا إِلَى الْأَحْقَادِ

وَحُقُوقُ تَرَقُّقِ الْقَلْبِ لِلْقَلْبِ
وَلَوْ ضُمَّتْ قُلُوبَ الْجَمَادِ
فَعَدَا الْمَلِكُ بَاهِرًا مَنْ رَأَهُ
شَاكِرًا مَا أَتَيْتُمَا مِنْ سَدَادِ
فِيهِ أَيْدِيكَمَا عَلَى الظَّفَرِ الْحَدِّ
وَأَيْدِي قَوْمٍ عَلَى الْأَكْبَادِ
هَذِهِ دَوْلَةُ الْمَكَارِمِ وَالرُّأَى
فَةِ وَالْمَجْدِ وَالنَّدَى وَالْأَيَادِي
كَسَفَتْ سَاعَةً كَمَا تَكْسِفُ الشَّمْسُ
وَعَادَتْ وَنُورُهَا فِي ازْدِيَادِ

أرأيت أجمل من هذا الكلام وأبرع من هذا التصوير ،
وأنفذ من هذه المعاني إلى ضمائر النفوس ودخائل القلوب ،
في ألفاظ حلوة لينة جزلة رصينة وهي مع ذلك ترضى الذوق
ولا تؤذيه ، وتقهر السمع ولا تشق عليه . أرأيت شعرا
أصدق في تصوير اتفاق المصريين ، حين يتفقون برغم الكائدين
والحاسدين ، من هذا البيت الذي يجمع الصدق والدقة وجمال

اللفظ وعذوبة المعنى ومضاء الرأى ونفاذ البصيرة ورضى النفس
وتحدى العدو :

فِيهِ أَيْدِيكَمَا عَلَى الظَّفَرِ الْحُدُ

وَأَيْدِي قَوْمٍ عَلَى الْأَكْبَادِ

ويخلص المتنبي بعد ذلك إلى كافور فيختصه بالمدح
ويقصر عليه الشناء ، ويصطنع الذوق والظرف فلا يستنجزه
وعدا ولا يسأله شيئاً ، وذلك حيث يقول :

أَجْفَلَ النَّاسُ عَنْ طَرِيقِ أَبِي الْمَسْكِ

وَذَلَّتْ لَهُ رِقَابُ الْعِبَادِ

كَيْفَ لَا يُتْرَكُ الطَّرِيقُ لِسَائِلِ

ضَيِّقٍ عَنْ أَتِيهِ كُلِّ وَادِ

ولما كانت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة عرضت
فرصة أخرى كادت تدفع المتنبي إلى وصف الحرب ، ولكن
الظروف حولتها عن وجهها أو حولها كافور نفسه بدهائه
القاسى العنيف عن وجهها . فقد ثار شبيب العقيلي في الشام
 واجتمع حوله عدد ضخم من الأعراب وعرض النظام للخطر

وأغار على دمشق وكاد يقتحمها ، ولكنه سقط في الميدان
أثناء الهجوم صريعا ميتا لم يمسه سيف ولا رمح ولا سهم .
واختلف الناس في تفسير موته ، فظن بعضهم أن قد كان
به صرع قضى عليه . وتحدث قوم آخرون بأن السم هو
الذي قتله ، وبأن كافورا هو الذي وجه من دس له السم
في الطعام أو في الشراب .

وقال المتنبي في هذه القصة ميمته الغامضة ، التي يقال
إنها أثارت أوقات الشكوك في نفس كافور لأن الشاعر
لا يذم في هذه القصيدة شبيا ، بل يحمده ويرثيه ، ويظهر
الأسف الشديد عليه . وهو في الوقت نفسه يحمده حظ
كافور ويهنئه بمواتة الأيام والحوادث له وردها عدوه عنه
في غير حرب ولا قتال . وأنا لا أقف في هذه القصيدة
موقف المعجب المتسائل ولا موقف المتشكك المستريب ،
ولا أظن أن كافورا قد شك فيها أو ارتاب بها . وما كان له
أن يشك أو يرتاب ، وهو فيما أرجح الذي أوحى بهذه القصيدة
وكلف المتنبي أن يذهب فيها هذا المذهب ليخفي ما كان قد
دبر من كيد ، أو ما زعم الناس أنه دبر من كيد . وهذا

من سيرة الساسة وأصحاب الدهاء معروف في كل مكان ،
وفي قصور الشرق التي يستأثر فيها الفرد بالحكم والسيادة
بنوع خاص .

وأول هذه القصيدة :

عَدُوَّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ
ولو كَانَ من أعدائك القَمَرَانِ
وَلِلَّهِ سِرٌّ فِي غُلَاكَ وَإِنَّمَا
كَلَامُ الْعَدَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ

والناس يسيئون الظن بهذا البيت ، ويرى بعضهم أنه
إلى الهجاء أقرب منه إلى المدح . كأن المتنبي قد جعل
ارتفاع قدر كافور أثرا من آثار المصادفة ، ونوعا مما تتكشف
عنه الظروف . ولكنني قدمت لك أني أرتاب في ارتياب
الناس هذا ، إن صح أن نصطنع أسلوب المتنبي في الحديث .
فالبيت مدح خالص لا غبار عليه ولا لبس فيه ، لأن الشاعر
لا يريد إلا أن يقول ان الله كتب العلاء لكافور ، وهياً
له قهر الحوادث ، وذلله المصاعب والعقبات دون أن يكافه

جهدا أو يحمله عناء ، لأنه أتاح له حظا موفقا سعيدا . فمن الحق
على أعدائه أن يعلموا أن الله معه ، وأن الزمان موافقه ،
فلا يطمعوا فيه ولا يشكوا فيما كتب له من فوز وتوفيق .
والشعر الذى يأتى بعد هذا صريح فى تحقيق ما أراد الشاعر
إليه وهو يقول :

أَتَلْتَمِسُ الْأَعْدَاءَ بَعْدَ الَّذِي رَأَتْ

قيامَ دَلِيلٍ أَوْ وُضُوحَ بَيَانِ

رَأَتْ كُلَّ مَنْ يَنْوِي لَكَ الْغَدْرَ يُبْتَلَى

بِغَدْرِ حَيَاةٍ أَوْ بِغَدْرِ زَمَانِ

ولكن الناس بعد أن عرفوا ما كان من فساد الأمر
بين الشاعر وكافور ، مشغوفون بالتماس التعريض والتلميح
والالتواء فى كل ما قال المتنبي . وهم يحملون شعر الرجل
ما لا يحتمل ، ويضيفون إلى المتنبي ما لم يردده ولم يفكر فيه
والناس معذورون ، لأن المتنبي نفسه هو الذى استخذى
من مدحه لكافور ففتح لهم هذا الباب .

والشاعر يمضى بعد ذلك فى رثاء شبيب ، والثناء

عليه ، بما يخيل إلينا أن قلب المتنبي قد خفق بشيء من
الحنان والعطف على هذا المخاطر الذي أعجله الموت عن
تحقيق ما كان يريد . ولا غرابة في ذلك ، فقد كان
المخاطرون المحققون يذكرون المتنبي بما تعرض له أثناء الشباب .
ولعلك لم تنس أن شيئاً من هذا الشعور يظهر في لاميته
التي ذكر فيها إيقاع سيف الدولة بالقرامطة الذين أسروا
ابن عمه أبا وائل تغلب بن داود .

فأنت ترى أن الإمام المتنبي بالسياسة المصرية كان يسيراً
لأنها لم تكن سياسة حرب وقتال ، وإنما كانت سياسة
مكر ودهاء . وليس المتنبي من المكر والدهاء في شيء ،
وأيسر أصول المكر والدهاء ألا يظهر عليهما شاعر لا يمسك
لسانه ، وهو ، بعد ، غريب متهم ، وطامع محروم .

وأجمل ما قال المتنبي من الشعر في مصر إنما هو هذا الغناء
الذي صور فيه حزنه وألمه واغترابه ، وهذه البطالة التي فرضت
عليه ، وهذا اليأس الذي جاهده خمس سنين . وقد استأثر هذا
الغناء بشعره الذي قاله في مدح كافور كما رأيت ، وبشعره
الذي قاله في هجاء كافور كما سترى . ولكن المتنبي قد تغنى
حزنه وألمه ، وما أحاط بنفسه من الكوارث والخطوب في
شعر لم يقصد به إلى مدح ولا هجاء ، وإنما قصد به إلى
الغناء وحده . كان طائرا تعود الهواء الطلق والفضاء العريض ،
يرتفع في السماء ما أتاحت له قوته العنيفة أن يرتفع ، فإذا
أراد الراحة لم يقع إلا على الشواهد من قمم الجبال ، فإذا
هو الآن سجين في قفص ضيق ، لعله من الذهب المرصع
بألوان الجوهر ، ولكنه قفص على كل حال . وكان جوادا
مرحاً فرحاً ، حياته كلها في العدو والغزو ، ولذته كلها في المرح
والنشاط ، لا يطمئن ولا يرضى إلا إذا مضى أمامه في البعد

والمهامه ، مستمتعا ببحر النهار وبرد الليل ، أو اقتحم الصعاب
والعقاب إلى العدو ، ثملا بنشوة الظفر أو ألم الهزيمة ، فإذا
هو الآن مرتبط في الفسطاط عند قصر كافور ، قد مضى
الشكيم حتى ملّ مضغ الشكيم ، وقد أفنى مرجه ونشاطه
في هذه الحركات الغنيفة المرحية التي يأتيتها الجواد الأصيل
في الرباط لا تقدمه ولا تؤخره ، فإذا طالت عليه أضنته
وعنته وردته إلى الخمود والفتور .

هذه كانت حال المتنبي حين طالت إقامته في الفسطاط
يغدو على كافور ويروح إلى داره ، ويخلص من حين إلى
حين لهؤلاء الجلساء الذين كانوا يروون عنه شعره ، ويسألونه
عن غريبه ومشكله ، وما تعود الرجل هذه الحياة الهادئة
الخاملة . فإذا أضفت إلى ذلك ، أن أمله في كافور قد ألح
عليه حتى أصبح مرضا ، وأن حزنه لفراق سيف الدولة قد
طبع في قلبه ، حتى أصبح ندوبا لا تزول ، وأنه كان يشعر
شعورا قويا مؤذيا بأن كرامته قد أهينت في مصر ، وبأن
الذين تحداهم في حلب وتركهم مغاضبا لهم ، تنتهي إليهم
أخبار حياته هذه المظلمة القائمة ، فيسخرون منه ويشمتون

به ، وقد تنقطع عنهم أخباره ، فيخلقون الأخبار من عند أنفسهم ، ويتحدثون بها في مجلس صديقه القديم شامتين ساخرين .

إذا قدرت هذا كله ، وذكرت أن نفس المتنبي كانت من الدقة والرقه ، ورهافة الحس ، بحيث يؤذيها أقل شيء ويشيرها أهون أمر ، عرفت أن الشاعر كان في مصر تعسا مبتئسا ، خليقا حقا بالرحمة والثناء . وقد نفس الرجل عن نفسه في مدحه لكافور ، وفي هجائه إياه ، وحين خلا إلى نفسه ولم يفكر إلا فيها ، ولكن شعره هذا الحزين الكئيب مخالف كل المخالفة ، في طبيعته ونعمته ولهجته ، لما كان يقوله من الشعر الحزين أيام الشباب . فأنت تذكر شعره الذي شكاه فيه ، أيام الشباب ، مكر الزمن به ، وتنكر الحوادث له ، وتألّب الخطوب عليه ، وأنت ترى أن ذلك الشعر قد كان نائرا هائجا يظهر فيه الاضطراب العنيف ، والغضب الذي لا حد له والذي يندثر بالانفجار ، وينتهي أحيانا إلى ما يخرج به الشاعر عن طوره ، ويطرح فيه كل وقار .

وما أظنك تستطيع أن تجد في كل ما قاله المتنبي من

شعر الشكوى قبل زيارته لمصر إلا قصيدة واحدة أنكر فيها
الشاعر نفسه ، واستسلم فيها للحزن والألم حيناً ، ولكنه
لم يلبث أن تاب إلى نفسه ، واسترد قوته العنيفة ، وبأسه
الشديد ، وهى الميمية التى قالها بعد أن فر من بدر بن عمار ،
ولجأ حيناً إلى صديقه المرى ، والتى أولها :

لا أفتخارُ إلا لمن لا يُضامُ

مُدركٍ أو مُحاربٍ لا ينامُ

فأما فى مصر فنحن نحس أن شيئاً قد انحطم فى نفس
هذا الشاعر العنيف ، فإذا حزنه لا يصطنع لغة الغضب ولا
لغة الثورة ، وإنما يصطنع لغة الشكوى والأنين كأنه الجريح
لا يستطيع أن يقبض على السيف ، ولا أن يبطش به ، ولا
يملك إلا أن يئن أنين العاجز الكليل .

أكان مصدر ذلك أن شيئاً قد انحطم فى نفس المتنبي
حقاً مع تقدم السن ، واختلاف الأحداث ؟ ففارقته شبابه ،
وتفرقت عنه خصال القوة والجرأة والبأس ، وبقي له عقله
المفكر ، وقلبه الحساس ، ونفسه الشاعرة ، فهو يرى الألم
ويحتمله ، ولا يرى فى نفسه القدرة على دفعه ، أم كان مصدر

هذا أنه أسير في مصر قد ضربت حوله مراقبة شديدة ،
وأرصدت له العيون والجواسيس ؟ فهو مضطر إلى الحذر
والاحتياط ، وهو مكره على القصد والاعتدال .

كلا الأمرين كان حقا . فقد رشد المتنبي ونصح عقله
المفكر ، فأدرك الضعف والفتور نفسه الثائرة . وهو في الوقت
نفسه أسير سجين ، مشدد عليه في المراقبة ، مكلف أن
يتحفظ ويحتاط .

ولم يحفظ الديوان لنا كثيرا من هذا الشعر الذي اختص
الشاعر به نفسه في مصر ، ولكن ما بقي منه خليق بالإعجاب
كل الإعجاب ، وهذه الميمية التي قالها حين أصابته الحمى
في مصر سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة من أرق الشعر العربي
كله ، وأعذبه وأرقاه وأشدّه استشارة للحزن ، وتحريقا للقلوب
الحساسة الشاعرة . وقد أعجب القدماء بهذه القصيدة لأن
الشاعر قد برع فيها حين أراد وصف الحمى ، وليس في هذا
شك . ولكنني حين أحب هذه القصيدة وأكف بها ،
لا أكاد أحفل بهذه البراعة الفنية أو أقف عندها ، لأن
حزن هذا الشاعر العظيم قد تجاوز الفن وصار أعظم منه وأبعد

مدى ، وأنفذ إلى القلوب والنفوس . فأنا لا أرى شاعرا
يصطنع الشعر ليصور ما يجد من لوعة وحسرة ويأس ، وإنما
أرى اللوعة والحسرة واليأس تتخذ الشعر لها لسانا لتبلغ
أسماعنا وتنتهي إلى قلوبنا .

وما أشك في أن لهذه القصيدة قيمتها الفنية الخالصة ،
ولكني لا أشك في أنها لم تكلف الشاعر من الجهد والعناء ،
ما تعود أن يتكلفه في غيرها من قصائده ، وإنما فاضت بها
نفسه ، وانطلق بها لسانه ، وجرى بها قلمه في غير تكلف
ولا عسر . وقرأ هذه الأبيات لترى فيها كيف كانت خيبة
أمله في الأصدقاء :

وَلَمَّا صَارَ وَدَّ النَّاسِ خَبَا
جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ
وَصِرْتُ أَشْكَ فِيمَنْ أَصْطَفَيْهِ
لِعَلَمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
يُحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِي
وَحُبُّ الْجَاهِلِينَ عَلَى الْوَسَامِ

وَأَنفُ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي
إِذَا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكِرَامِ

أُتْرَى إِلَيْهِ كَيْفَ يَصْطَنِعُ النِّفَاقَ وَالْمَدَاجَةَ عَلَى شِدَّةِ
بَغْضِهِ لِلنِّفَاقِ وَالْمَدَاجَةِ ، لِأَنَّهُ أَصْبَحَ لَا يَجِدُ مِنْ ذَلِكَ بَدَأً .
وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ الْمُتَنَبِّئِ الَّذِي كَانَ يَقُولُ بَيْنَ يَدَيِ أَبِي الْعَشَائِرِ :
فَلَا مُبَالَ وَلَا مُدَاجٍ وَلَا

وَأِنْ وَلَا عَاجِزٌ وَلَا تُكَلَّهٌ
لَقَدْ أَصْبَحَ الْآنَ يَجْزِي عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ ، وَيَلْقَى
نِفَاقًا بِنِفَاقٍ ، لِأَنَّهُ عَرَفَ النَّاسَ وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ الْجَمَاعَةَ أَقْوَى
مِنَ الْفَرْدِ ، وَأَنَّ الْحَوَادِثَ أَقْوَى مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَأَنَّ
الْحَيَاةَ أَعْظَمَ قُوَّةً مِنَ الْأَحْيَاءِ .

وَانْظُرْ إِلَيْهِ كَيْفَ يَصِفُ سَجْنَهُ فِي مِصْرَ :

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلَا وَرَائِي
تَخُبُّ بِي الرِّكَابُ وَلَا أَمَامِي
وَمَلَأَنِي الْفِرَاشُ وَكَانَ جَنْبِي
يَمَلُّ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ عَامٍ

قَلِيلٌ عَائِدِي سَقَمٍ فُوَادِي

كَثِيرٌ حَاسِدِي صَعْبٍ مَرَامِي

وَأَنَا أَدْعُ وَصْفَهُ الرَّائِعَ لِّلْمَرَضِ وَالْحُمَى ، فَقَدْ كَثُرَ فِيهِ
حَدِيثُ الْقَدَمَاءِ ، وَأَصْلُ إِلَى هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الَّتِي يَصِفُ فِيهَا
عِلَّةَ مَرَضِهِ الصَّحِيحَةِ وَهِيَ هَذِهِ الْبَطَالَةُ الَّتِي فَرَضَتْ عَلَيْهِ :

يَقُولُ لِي الطَّبِيبُ أَكَلْتَ شَيْئًا

وَدَاوُوكَ فِي شَرَابِكَ وَالطَّعَامِ

وَمَا فِي طَبِّهِ أَتَى جَوَادٌ

أَضَرَ بِجِسْمِهِ طُولُ الْجَمَامِ

تَعَوَّدَ أَنْ يُغَبَّرَ فِي السَّرَايَا

وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ فِي قَتَامِ

فَأَمْسِكَ لَا يَطَالُ لَهُ فِرْعَى

وَلَا هُوَ فِي الْعَلِيقِ وَلَا الْإِجَامِ

ثُمَّ انْظُرْ آخِرَ الْأَمْرِ إِلَى هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الَّتِي تَصُورُ
إِذْعَانَهُ لِلْقَضَاءِ وَصَبْرَهُ عَلَى الْحَنِّ ، وَلَكِنَّهَا تَنْتَهِي بِهِ إِلَى أَنَّهُ
هِيَ الْيَأْسُ الْقَاتِمُ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ أَمَلٌ وَلَا رَجَاءٌ :

فإن أمرضُ فما مرضَ اضطباري
 وإن أُحَمِّمَ فما حُمِّمَ اعتزاي
 وإن أَسْلَمَ فما أَبْقَى ولكن
 سَلِمْتُ من الحِمَامِ إلى الحِمَامِ
 تَمَتَّعَ من سُهادٍ أو رُقَادٍ
 ولا تأملُ كَرَّمِي تحتَ الرَّجَامِ
 فَإِنَّ لثَالِثِ الحَالَيْنِ مَعْنَى
 سَوَى مَعْنَى انتباهِكَ والمَنَامِ

والمُتَنَبِّي في هذه الأبيات الأخيرة يبلغ الفلسفة العليا ،
 ويرتفع عن نفسه وسجنه ومرضه ، وما يحيط به من الأحداث ،
 إلى التفكير في طبيعة الموت وما يكون وراء القبر ، وهو
 هنا يأس وما أراه إلا منكرًا للبعث جاحدا للحياة الثانية .
 ولكنه يؤدي هذا الإنكار في تحفظ واحتياط شديدين .
 وأهون حاله أن يكون شاكا مرتابا ، كما رأيت في بانيته
 التي رثى بها أخت سيف الدولة .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يتعمق المُتَنَبِّي فيها

أمور نفسه وأمور الناس حتى ينتهى به التعمق إلى تجاوز
نفسه وتجاوز الناس ، وإذا هو يفكر في فلسفة الأخلاق
أو في فلسفة الدين . فالنونية التي قالها في مصر وحفظها لنا
الديوان تحدثنا بكثير من تعمق المتنبي أمور نفسه وأمور
الناس أحيانا ، وهي على قصرها خصبة كثيرة الدلالة .

وما أرى إلا أن طول تفكيره في قصته عند سيف الدولة
هو الذى ألهمه هذه الأبيات المظلمة التى هى عندى من
أسس الفلسفة العلائقية :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمانَا

وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا

وَتَوَلَّوْا بِغَصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْ

هـ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانَا

رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيَالِي

هـ وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الْإِحْسَانَا

فهو في هذه الأبيات يضع أساس التشاؤم المطلق واليأس
الشامل ، والتشاؤم الذى لا موضع فيه للتفاؤل . فهو قد صحب

الزمان فلم ير منه خيراً ، والناس قبله قد صحبوا الزمان فلم يروا منه خيراً ، وهو لا ينكر أن اللذة قد تعرض للناس في حياتهم بين حين وحين ، ولكنه لا يشك في أنها لذة عارضة لا تلبث أن تزول ، وطارئة لا تقيم حتى تريم .

والناس جميعا مهما تختلف حظوظهم من اللذات يتركون الحياة يائسين محزونين ، آخر حظهم هذه الغصة التي تنغص كل ما بلوا من خير ولقوا من إحسان . فالأصل في الزمان الشر ، به يبدأ حياة الناس وبه ينتهي حياة الناس ، وقد يخلى هذه الحياة من الخير ، وقد يشيع فيها بعض الخير ولكنه منته بها دائما إلى الشر .

وليس الناس خيرا من الزمان ولكنهم شركاؤه في الشر وأعداؤه على السوء كأنما تلقوا منه العدوى ، فأسرعوا إلى موافقته ومعونته .

وَكَاُنَّا لَمْ يَرْضَ فِينَا بَرِيْبُ الدِّ

دَهْرٍ حَتَّى أَعَانَهُ مِنْ أَعَانَا

كَلَّمَا أُنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاءَ

رَكَبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاءِ سِنَانَا

ومرَّادُ النفوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ

تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَتَفَانَى

وإذا كان الزمان كله شرا ، وإذا كان الناس أعوانا
للزمان على ما يصب عليهم من الشر ، فما عسى أن تكون
السيرة التي ينصح بها المتنبي للرجل الذي يريد أن يكون
حكيمًا كريمًا ؟ هي أن يكون شجاعا ، وألا يذعن للذل ،
ولا يستسلم للهوان ، فأقصى ما ينتهي أمره إليه حين يأتي
الذل ويمتنع على الضيم ، ويشور على الجائرين إنما هو الموت
والموت واقع لا محالة . وهو نازل بالشجاع والجبان ، وبالقوى
والضعيف ، وبالثائر والمستكين . وإذن فليس هناك معنى
للخوف منه أو تهيب لقائه . إنما يفهم الخوف من الموت
لو أن للأحياء سبيلا إلى الخلود . فأما والحياة إلى موت ،
والبقاء إلى فناء ، فاحتمال الضيم عجز ، والإذعان للهوان جبن .
وقد يخشى الناس ألم الموت لأنهم يقدررون أنه مؤلم ،
ولكن قليلا من الروية يزيل من نفوسهم هذا الخوف .
فكل ما نراه صعبا قبل وقوعه نراه سهلا عند وقوعه ،
وإذن فليس للكريم خطة إلا الإقدام :

غَيْرَ أَنَّ النِّعَى يُبْلَقُ الْمُنَايَا
كَالْحَتَاتِ وَلَا يُبْلَقُ الْهُوََانَا

وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبَقَّى لِحَيٍّ
لَعَدَدْنَا أَضْلَمًا الشُّجْعَانَا

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بَدْءٌ .
فَمِنْ الْعَجْزِ أَنَّ تَكُونَ جَبَانَا
كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنْدِ

نَفْسٍ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا
وَمَا أَرَى إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الْآخِرَةَ تَدُلُّ عَلَى الْخَطِئَةِ
الَّتِي كَانَ الْمُتَنَبِّي يَدِيرُهَا فِي رَأْسِهِ حِينَ اسْتِيْأَسَ مِنْ كَافُورٍ
وَحِينَ اسْتَيْقِنَ أَنَّهُ أَسِيرٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ ، وَهِيَ خَطِئَةُ الْهَرَبِ
مِنْ مِصْرَ .

وَالِدِيَّوَانُ يَحْدِثُنَا بِأَنَّ الشَّاعِرَ اسْتَأْذَنَ كَافُورًا فِي الْذَهَابِ إِلَى
الرَّمْلَةِ ، لِيَقْضَى مَا لَا كُتِبَ لَهُ بِهِ ، فَلَمْ يَأْذِنْ لَهُ الْأَمِيرُ وَأَقْسَمَ
عَلَيْهِ لَا يَرْحَلُ وَتَكَفَّفَ أَنْ يَقْضَى لَهُ مَا لَهُ . وَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ
لَمْ يَشْكِ الْمُتَنَبِّي فِي أَنَّهُ سَجِينٌ كَافُورٌ وَلَمْ يَفْتَرِ عَنِ التَّفَكِيرِ فِي
الْإِفْلَاتِ مِنْ هَذَا السَّجْنِ .

وكم كنت أحب أن أقف عند هذه النونية التي قالها
المتنبي في سيف الدولة وقد انتهت إليه الأنباء في مصر
بأنه نعي في مجلس الحمداني . فهذه النونية ليست أقل روعة
ولا جمالا من القصيدتين السابقتين ، ولكني أذكر منها
آخرها ، لأنه يصور لنا ألم المتنبي من الحرمان في مصر والشماتة
في حلب ، ولا أعرف شيئا يؤلم ويؤذي مثل هذه التعلّة
التي يخدع بها الشامتين به ، وإن كان فيما بينه وبين نفسه
لا يندفع ولا يأمل ولا ينتظر شيئا :

وإن تأخّر عني بعض موعده

فما تأخر أُمالي ولا تهن

هو الوفي ولكني ذكّرت له

مودّة فهو يبُلّوها ويمتحن

وأنا أحب لك أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها فهي

من أرق شعر المتنبي وأبقاه .

١٠

وكان الزمان قد تأذن أن يعاقب المتنبي على ما بلا عند
سيف الدولة من راحة ولذة ونعيم ، أو أن يعاقبه على ما أظهر
عند سيف الدولة من اعتداد بالنفس وازدراء للناس ، ومن
بغى وطغيان وكفر للنعمة وجحود للجميل . فأقسم لينغصن
عليه حياته في مصر كلها تنغيصا . فبينما هو شقي في القسطنطينية
بفراق سيف الدولة ، وإخلاف كافور ، وأخذ الطرق عليه
من كل وجه واضطراره إلى حياة السجناء ، وإذا أمل
يبدو له ، فيرد عليه فضلا من حياة ، ويشيع فيه شيئا من
نشاط . فقد اتصل ، بعد جهد ومشقة ، بأمير من أمراء
مصر ، هو أبو شجاع فاتك الرومي ، الذي كان يعرف بالجنون .
وكان فاتك هذا مولى من موالى الإخشيد مثل كافور ،
وكان قائدا من قواده ، وكان مقدما عنده وأثيرا في نفسه
وكان يفضل على كافور لأنه أبيض ، من الروم ، وكافور أسود
نوبي أو زنجي ، ولأن فاتكا كان مقداما جريئا يكاد يبلغ

التهور أو الجنون ، فأما كافور فقد كان كما رأيت من سيرته
 حازما عازما شجاعا ، ولكنه معتدل يؤثر المكر والدهاء على
 الحرب والقتال ، ويصطنع في ذلك مذهب سيده الإخشيد .
 وكان فاتك مسرفا في الكرم والجود ، إن صدق تصوير
 المتنبى له ، وصح ما يروى من إهدائه إلى الشاعر عن سعة
 وسخاء ، ولم يكن كافور بخيلا ولا حريصا ، ولكنه كان
 مدبرا يكره الإسراف وينأى عنه ، ولعل المتنبى تقرب إليه
 بقوله في الدالية المشهورة :

فلا يَنْحَلِّلْ في المَجْدِ مالَكَ كُلَّهُ

فَيَنْحَلَّ مَجْدُكَ بِالمَالِ عَقْدُهُ

وَدَبَّرَهُ تَدِيرَ الَّذِي المَجْدُ كَفَّهُ

إِذَا حَارَبَ الأَعْدَاءَ والمَالُ زَنْدُهُ

فلا مَجْدَ في الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ

وَلَا مَالَ في الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

ولما مات الإخشيد قضت الظروف أن يكون تدير
 الملك إلى كافور ، دون فاتك ، فأنحاز هذا إلى الفيوم ،

وكانت إقطاعا له ، وكانت أنباؤه وأحاديث الناس عنه
تنتهى إلى المتنبي فتطمعه وتغريه . ولكنه كان لا يجد إلى
لقائه سبيلا ، لتضييق كافور عليه وتشديده في المراقبة .
وقد اعتل فاتك وأقبل إلى القاهرة يستشفى ، سنة
ثمان وأربعين وثلاثمائة ، ولعله احتال في لقاء المتنبي ،
واحتال المتنبي في لقائه ، وأتيح لهما هذا اللقاء في الصحراء ،
كما يقول ابن خلكان . ثم أهدى أبو شجاع إلى المتنبي فأحسن
الإهداء ، وأعطاه فأجزل العطاء ، واستأذن المتنبي كافورا
في أن يشكر لفاتك إهداء وعطاء فلم يجد كافور بدا من
الإذن ، مجاملة ومصانعة أيضا . وقال المتنبي في فاتك لاميته
المشهوره :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ
فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ
وكان المتنبي لم يستطع أن يكف نفسه عن التعريض
الخفي بكافور ، فقال في البيت الثاني من هذه القصيدة :
وَاجَزِ الْأَمِيرَ الَّذِي نَعَاهُ فَاجِئَةً
بَغَيْرِ قَوْلٍ وَنَعْمَى النَّاسِ أَقْوَالُ

وهو كذلك لم يستطع أن يخفى تأذيه بهذا السجن الذي
يمسكه في الفسطاط ، فقال :

وإن تكن مُحْكَمَاتُ الشُّكْلِ تَمْنَعُنِي

ظهورَ جَرِيٍّ فليَ فِيهِنَّ تَضَهَالُ

ثم اتخذ بعد ذلك في مدح فاتك سبيلا سواء ، ليس
فيها تموج ولا التواء .

ولعل المتنبي كان يتحدث إلى نفسه بأن الظروف قد
تتيح له الاتصال بفاتك في غير احتياط ولا حرج . ومن
يدري ؟ لعله كان يجد عند فاتك ما يعزیه عما لم يظفر به من
كافور . ولكن الزمان كان قد تأذّن ، كما قلت لك ، بأن
ينغص على المتنبي حياته كلها في مصر . فقد مات فاتك بعد أن
سمع هذه اللامية بوقت قصير ، وحزن المتنبي عليه كما يستطيع
أن يحزن ، ورثاه كما يستطيع أن يرثي في قليل من الإجادة
والتأثر ، وفي كثير من الكلام . فقد رثاه ثلاث مرات في
ثلاث قصائد ، ولكنه لم يظهر هذا الرثاء فيما أرجح إلا بعد
خروجه من مصر ، وأكبر ظني أن المراثية الأولى قيلت في
الفسطاط نفسها ، وأولى هذه المراثي عينيته التي مطلعها :

الْحُزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ

وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصَى طِيعُ

والثانية ميميته التي أولها :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ

وما سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمِ

وقد قيلت في الكوفة .

والثالثة ميميته التي قالها في الكوفة وقد ذكره ببعض

هداياه وأولها :

يَذْكُرْنِي فَاتِكَا حِلْمُهُ

وَشَيْءٌ مِنَ النَّدِّ فِيهِ اسْمُهُ

وليس في هذا الرثاء كله ما يميزه من رثاء المتنبي إلا

ما يشتمل عليه من هجاء كافور ، كما أن مدح المتنبي لفاتك

لا يمتاز من سائر مدائحه بشيء .

فلندع هذا الشعر الذي لا يكاد يصور من حياة الشاعر

إلا بارقة أمل لم تلبث أن أخلفت الأيام فيها ظنون الشاعر

اليأس الحزين .

وقد انتهى المتنبي بعد طول الانتظار إلى اليأس من
كافور وخيبة الأمل فيه . وإذا صدق الديوان فقد أقام
سنة كاملة في مصر لا يرى كافورا ولا ينشده . وإذا
صدق ما يقوله بعض الرواة ، فقد كان يظهر في القصر
ويسير في الموكب ، ولكنه لا يمدح الأمير طوال سنة
خمس وثلاثمائة . وأكبر الظن أنه كان يعيش عيشة الغضوب
عليه ، الذي أخذت عليه طرق الفرار ، فهو حر في ظاهر
الأمر سجين في حقيقته .

في ذلك الوقت جعل المتنبي يتهيأ للهرب من جهة ،
ويقول الشعر في هجاء كافور ، والناس يكبرون هذا الهجاء
ويكثر الإعجاب به والكلام فيه . والمحدثون المعاصرون
يختلفون فيه اختلافا كثيرا ، فمنهم من يرى أن المتنبي قد
تجاوز كافورا بهذا الهجاء إلى مصر كلها والمصريين جميعا ،
ومنهم من يرى أنه لم يرد مصر ولا المصريين ، وإنما

أراد كافورا ، ومن كان إليهم الحل والعقد من قادة
الإخشيديين . وهم بعد ذلك يختلفون ، فمنهم من يعذر
المتنبى ، ومنهم من يمتقته ويسرف في مقتته ، ويكره من أجل
هذا الهجاء شعره كله . وربما كان من الناس من يرى
شيئا من الصدق فيما عاب المتنبى به المصريين . فمن الناس
من يتمثل بقوله :

أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ
يَا أُمَّةً ضَحِكْتَ مِنْ جَهْلِهَا الْأُمَمُ

وأكثر الناس يتمثل بقوله :
وَمَاذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ
وَلَكِنَّهُ ضَحِكُ كَالْبُكَاءِ

وربما تمثل بعضهم بقوله :
نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثَعَالِبِهَا
فَقَدْ بَشِمَنْ وَمَا تَفَنَّى الْعَنَاقِيدُ

وأنا أعترف بأنى لا أرى كل هذه الخصومة إلا لغوا
لا خير فيه . فقد غضب شاعر من الشعراء على أمير من

الأمراء فهجاء ، بعد أن رضى عنه فأثنى عليه . وهذا
شئ . يكون في كل زمان ويكون في كل مكان . وما ينبغي
أن نحب الشعراء أو نبغضهم ، لأنهم مدحوا أو هجوا ، ولأنهم
مدحونا نحن أو هجونا ، وإنما ينبغي أن نعرف الشعراء
أو ننكرهم لأنهم مدحوا فأحسنوا المدح ، وهجوا فأجادوا
الهجاء .

وقد رأينا أن مدح المتنبي لكافور كان مدحا معتدلا ،
يجود حيناً ويتوسط حيناً آخر . وكان جزل اللفظ ،
رصين الأسلوب ، أقرب إلى الرضى منه إلى السخط .
وما أشك في أن المتنبي قد وفق إلى الإجابة في هجاء كافور
والمصريين أكثر مما وفق إلى الإجابة في المدح ، ولبس
يطلب إلى الشاعر حين يهجو أن يقول حقا ، وإنما يطالب
إليه أن يتقن الإساءة إلى من يهجو ، ويبرع في التشهير به
والتشنيع عليه . فأما أن يكون صادقا أو كاذبا ، فأما أن
يكون مرضيا للأخلاق أو مخالفا عن أمرها وقانونها ، فهذا
شئ لا يعنى الفن بحال من الأحوال . وقد كذب الفرزدق
على جرير ، وكذب جرير على الفرزدق ، وكذب غير

الشاعرين عليهما جميعا ، وقضى لهؤلاء الشعراء بالبراعة
في الهجاء .

فماذا أنكر المتنبي من كافور ؟ أنكر عليه خلقه أولا .
رآه أسود دميما ، قبيح الشكل ، ضخيم المشفر ، مشقوقه
غليظ القدمين ، مشقوقهما أيضا ، خصيا ، ثم عيره هذا كله
في شعر مضحك لاذع من غير شك . ولكنه كان يعرف
هذا كله من كافور حين كان يمدحه ويتملقه ، ويسرف
في التقرب إليه . فهو قد أضحك الناس من كافور ، ولكنه
قد غض من نفسه عند الناس . والناس قد يضحكون من
الرجل الدميم ذي الحلقة البشعة ، والشكل القبيح ، ولكنهم
مع ذلك يكبرون عقله ، ويعجبون بأخلاقه ، ويحمدون
مهارته في السياسة ، وبراعته في تدبير أمور الساطان .
وكذلك ضحك الناس من كافور ، وما يزالون يضحكون منه
إذا قرءوا أو سمعوا هجاء المتنبي له ، ولكنهم لا يزدرونه ولا
يحقرونه ، وإنما يضحكون منه في شيء من العطف وكثير
من الإعجاب . فإذا أنكروا أحدا فهم ينكرون الشاعر
الذي أعطى ثم أخذ ، ومنح ثم استرد ، وقال ثم كذب

نفسه . وهم حين يضحكون من هذا الشاعر لا يبخلون عليه
بالإعجاب والإكبار . فهم يكبرون فنه وبراعته في تصريف
الكلام ، ولكنهم يصغرون رأيه ويحقرون خلقه ، ولا سيما
حين يكون هذا الرجل مكبرا لنفسه كما كان المتنبي يكبرها .
والمتنبي يهجو كافورا بأصله ، وبأنه كان رقيقا تلعب
في رأسه يد النخاس . وهذا كلام يضحك الناس ويرضى
العامه ، ولكنه لا يغض من كافور ، ولا يضع من قدره .
فقد كان المتنبي نفسه يثنى عليه لأنه ارتقى من حاله تلك إلى
أن أصبح يدبر ملكا واسعا وسلطانا بعيدا .

والمتنبي بعد هذا كله ينكر نفسه أشد الإنكار ، فما
ينبغي للفيلسوف الحكيم الذي أنفق شبابه الأول ثائرا على
النظم الاجتماعية ، منكر لما تقوم عليه من الجور ، مؤمنا
بالمساواة بين الناس جميعا أن يعيب رجلا بسواد الجلد ،
أو أن يعيبه بنفس هذا النظام الذي كان ينكره ويشور به ،
والذي كان يقسم الناس إلى السادة والعبيد ، وإلى الأحرار
والأرقاء ، وإلى الأغنياء والفقراء .

فالمتنبي في قصته مع كافور كلها صغير حقا ، صغير حين

مدح ، وصغير حين هجا . صغير حين رضى ، وصغير حين
غضب . ولكن صغره هذا لا يمنعه من أن يهجو فيجيد ،
ومن أن يريد إضحاك الناس فيبلغ ما يريد . والحق بعد هذا
كله أنه قد هجا كافورا فكان لاذع الهجاء . ولعله هجا
المصريين فوفق إلى تصوير شيء من مواطن الضعف فيهم ،
ومن ذا الذي لاحظ له من ضعف ؟ وأنا أعتذر — إذا
لم يكن بد من الاعتذار — من الإعجاب ببعض هجاء المتنبي
المصريين ، فكما أنه قد أحسن تصوير لون من ألوان الحياة
المصرية حين اتلف كافور ومولاه بعد اختلاف ، فهو كذلك
قد أحسن تصوير لون من أخلاق المصريين حين وصف
إذعانهم وخنوعهم لهذا الأسود الذي كانوا يرونه يضرب
ويهان ويعبث به في الأسواق ، ثم أصبحوا يرونه ملكا
ويدينون له بالطاعة والخضوع . وما أكثر الظروف التي
تدفعنا جميعا إلى أن نتمثل في شؤون أنفسنا بالأبيات التي
ذكرتها آنفا من شعر المتنبي دون أن نمسنا من ذلك أذى
أو يلحقنا منه عار . والشعب الكريم كالفردي الكريم

خليق أن يعرف عيب نفسه ويجد في إصلاحه ما وجد
إلى ذلك سبيلا .

ولننظر في نماذج من هجاء المتنبي لكافور كما نظرنا
في نماذج من مدحه إياه . ولنبدأ بهذه المقطوعة الياثية
التي جاءت على نفس الوزن والقافية اللذين اصطنعهما في أول
قصيدة مدحه بها حين أنشده :

كُنِيَ بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا

وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

ومن يدرى ؟ لعل المتنبي لو فرغ لكافور وكان منظم
النفس منظم الحياة ، لقال في هجائه بمقدار ما قال في مدحه ،
ولعارض كل قصيدة في المدح بقصيدة في الهجاء تشبهها
في الوزن والقافية ، وتنقض ما اشتملت عليه من ثناء .

ولكن المتنبي لم يفرغ حتى لهذا ، فهو كان مشغولا
عن الفن الخالص ، لا يقول الشعر إلا حين يرغب أو يرهب ،
وحين يحب أو يبغض . فأما الفراغ للفن من حيث هو فن
فذلك شيء ليس من شأنه ، ولا هو من شأن كثير من
شعرائنا ، ولا سيما في هذا العصر العباسي .

قال المتنبي في هجاء كافور :

أُرِيكَ الرِّضَا لو أَخَفَّتِ النَّفْسُ خَافِيَا ✓

وما أَنَا عن نَفْسِي وَلَا عَنكَ رَاضِيَا

أَمِينًا ✓ وَإِخْلَافًا وَغَدْرًا وَخِسَّةً

وَجُبْنَا أَشْخَصًا لُحَّتْ لِي أُمُّ مَخَازِيَا

تَظُنُّ ابْتِسَامَانِي رَجَاءً وَغِبْطَةً ✓

وَمَا أَنَا إِلَّا ضَاحِكٌ مِنْ رَجَائِيَا

وقد أنصف المتنبي نفسه ، وأنصف منها في هذه الأبيات حين لم يسخط على كافور وحده ، بل سخط على نفسه أيضا وحين لم يضحك من كافور وحده ، بل ضحك مما ناط به من أمل وما عقد به من رجاء . ولكن المهم أن نعلم ماذا كان يقول المتنبي في كافور لو أنه لم يخيب أمله ، ولم يخلفه ما وعده . أكان يرى فيه كل هذه الخصال التي زعم أنه يراها فيه الآن ، وأنه كان يراها فيه حين كان ينشده المدح ويرفع إليه الثناء ، ولكن البيت الثاني على

كل حال جميل ، ولا سيما قوله :
أَشْخَصًا لُحَّتْ لِي أُمُّ مَخَازِيَا

ثم يقول :

وَتَعْجِبُنِي رِجْلَاكَ فِي النَّعْلِ إِنِّي ✓
رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتَ حَافِيَا
وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَلْوَنُكَ أَسْوَدُ

مِنَ الْجَهْلِ أَمْ قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيَا
وفي البيت الأول ظرف ، ولكن في البيت الثاني
مبالغة سخيفة فلم يكن كافور يظن به الجهل إلى هذا الحد .

ثم يقول :

وَلَوْلَا فَضُولُ النَّاسِ جِئْتُكَ مَادِحًا ✓
بِمَا كُنْتُ فِي سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِيَا
فَأَصْبَحْتَ مَسْرُورًا بِمَا أَنَا مُنْشِدُ
وإن كان بالإشاد هَجْوُكَ غاليا

وهذا أبلغ في تصوير الجهل فقد يظن بالرجل الغفلة

عن التفريق بين المدح والذم أكثر مما تظن به الغفلة عن
التفريق بين البياض والسواد .

ثم يقول :

فَإِنْ كُنْتَ لَا خَيْرًا أَفَدْتَ فَإِنِّي
أَفَدْتُ بِلَحْظِي مِشْفَرِيكَ الْمَلَاهِيَا
وَمِثْلُكَ يُؤْتَى مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ
لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ الْبَوَاكِيَا

وليس بهذين البيتين بأس ، فقد تسكف الشاعر فيهما
عزاء عما احتمل من مشقة ، وما قطع من طريق ، وما أدرك
من خيبة ، وكان عزاءه أنه ضحك من مشفري كافور كما
ضحك من رجليه .

ومن أجود هجائه لكافور هذه الأبيات الميمية التي
بدأها هازلا ضاحكا ، ثم أخذ يجد شيئا فشيئا حتى انتهى
إلى حزن فلسفي عميق ، ثم إلى غضب حمله على أن يحرض
على كافور من يقتله . وذلك قوله :

من أَيْتِ الطَّرْقِ يَأْتِي مِثْلَكَ الْكَرَمُ
أَيْنَ الْحَاجِمُ يَا كَافُورُ وَالْجَلَمُ
جَازَ الْإِلَى مَلَكَتْ كَفَّاكَ قَدَرَهُمُ
فَعُرِّفُوا بِكَ أَنَّ الْكَلْبَ فَوْقَهُمُ
لَا شَيْءَ أَقْبَحُ مِنْ فَحْلٍ لَهُ ذَكَرٌ
تُقَوِّدُهُ أُمَّةٌ لَيْسَتْ لَهَا رَحِمُ
سَادَاتُ كُلِّ أَنْاسٍ مِنْ نَفُوسِهِمْ
وَسَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْبُدُ الْقَزَمُ
أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُخَفُّوا شَوَارِبَكُمْ
يَا أُمَّةً ضَحِكْتَ مِنْ جَهْلِهَا الْأَمُّ
أَلَا فَتَى يُورِدُ الْهِنْدِيَّ هَامَتَهُ
كَيْمَا تَزُولُ شُكُوكُ النَّاسِ وَالتَّهَمُ
فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِي الْقُلُوبَ بِهَا
مَنْ دِينُهُ الدَّهْرُ وَالتَّعْطِيلُ وَالْقِدَمُ
مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُخْزِي خَلِيقَتَهُ
وَلَا تُصَدِّقَ قَوْمًا فِي الذِّى زَعَمُوا

والمتمني في كافور مقطوعات أخرى يعرفها الناس ، يبلغ فيها الإجادة ، ولا يرتفع أحيانا فيها عن السخف . ولكنني أقف عند قصيدته الدالية التي قالها عند خروجه من مصر في آخر سنة خمسين وثلثمائة . وهي خليقة بالعناية حقا ، ولا سيما القسم الأول منها ، لما فيه من هذا الغناء الحزين الذي أجاده المتمني في مصر كل الإجادة .

وانظر إلى هذه الأبيات الأولى ، وإلى هذه اللهجة القوية التي يملؤها الحزن واللفف والإشفاق . فهو يستقبل العيد جاهلا بماذا يعود عليه . أبهذه الهموم والأحزان التي تعود أن يلقاها فيه منذ أقام بمصر ؟ أم بشيء آخر يغير حاله السيئة هذه ، وينقله إلى حال خير منها ؟ وهو مع ذلك مبتئس بالعيد ، كاره له ، يمتنى لو بعد عنه ، لأن أحياءه منه بعيد ، وما يريد أن يستمتع وحده بالسرور . فمن هؤلاء الأحياء ؟ وأين يكونون ؟ أهم في قصر سيف الدولة بحلب ، حيث لا يستطيع أن يذهب ؟ أم هم بالكوفة ، حيث يريد أن يستقر ؟

يظهر أنهم ليسوا هنا ولا هناك ، ولا في أي مكان آخر ،

وإنما هم في نفس المتنبي ، أو هم في آماله التي لا يبلغها ،
وأمانيه التي لا يستطيع لها تحقيقا .

فانظر إليه كيف يقول :

لولا العَلَا لم تَجِبْ بي ما أَجُوبُ بها
وجناء حَرْفٍ ولا جَرْداء قِيدُودُ
وَكَانَ أَطْيَبَ مِنْ سَيْفِي مُعَانِقَةً
أَشْبَاهُ رَوْنَقِهِ الْغَيْدُ الْأَمَالِيدُ
فأحباؤه إذن ليسوا أشخاصا يقيمون في حلب ، أو في
الكوفة ، وإنما هي أطماعه وأمانى نفسه التي لم يظفر بها
قط ، ولن يجد إلى الظفر بها سبيلا .
واقرا هذه الأبيات التي لا أعرف أجمل منها ، ولا
أصلح للغناء :

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلَا كَبْدِي
شَيْئًا تُنَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِيدُ
يَا سَاقِيَّ أَخْمَرُ فِي كُوْوسِكُمَا
أَمْ فِي كُوْوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسْهِدُ

أَصْخَرَةُ أَنَا مَالِي لَا تُحَرِّكِي

هَذِي الْمُدَامُ وَلَا هَذِي الْأَغَارِيدُ

إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً

وَجَدْتُهَا وَحَبِيبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ

أما أنا فففتون بهذه الأبيات ، وبالثلاثة الأخيرة منها خاصة . وما أعرف أني وجدت في كل ما قرأت من الشعر العربي ما يشبهها جمالا وروعة ، ونفاذا إلى القلب وتأثيرا في النفس . ومهما أحاول فلن أستطيع تصوير ما يملأ نفسي من الحزن حين أسمع تحدته إلى ساقبيه وسؤاله إياها عما في كؤوسهما ، أحر هو أم هم وتسهيده ؟ .

ومهما أقل فلن أستطيع أن أصور إعجابي بهذا البيت الذي يسأل فيه عن نفسه ، ماله لا يطرب للخمر ولا يطرب للغناء . وما أعرف بيتا يصور السكون وجهود النفس وموت القلب خيرا من هذا البيت ، وهو على تصويره الرائع للسكون والجود والموت ، من أشد الشعر تحريكا للنفوس وإثارة للطرب الحزين في القلوب .

ثم انظر إلى هذه الحسرة التي يصيح بها البيت الأخير ،
صريحة اليأس والقنوط ، لأنه يبتغي المدام فيظفر بها ، ولكنه
وحيد قد فقد حبيب نفسه ، فهو لا يستطيع أن يلهو وحده ،
ولا أن ينعم بلذة وحيدا .

ثم اقرأ هذه الأبيات الأخرى ، فقد أخذ الشاعر يوضح
عما في نفسه ويبين أسباب حزنه شيئا فشيئا :

ماذا لَقِيتُ من الدُّنيا وأعجَبُهُ

أنى بما أنا بالكِ منه محسودُ

أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خازِنا وَيَدًا

أنا الغنى وأموالي المَواعيدُ

وهذا الشطر الأخير جميل رائع بما فيه من هذا الإيجاز
ومن هذا الشيء الذى يشبه الطباق . فهو غنى ، ولكنه
فقير ، لأن ثروته وعود لم تتحقق . هذا الشطر الجميل الذى
سار مسير الأمثال كذب كله . وكان المتنبي يعرف أنه
كذب ، لأن هذه الإبل التى كانت تحدى بين يديه مثقلة
بما كانت تحمل من الذهب والفضة والمتاع ، والتى كان

المتنبى حفيها بها ، حريصا عليها ، لا يتردد في أن يقترب الإثم
زيادا عنها ، واحتفاظا بها . هذه الإبل كانت خليفة لو
استطاعت أن ترد عليه شطره هذا ، وأن تصيح به ، أنه خرج
من مصر ، كما خرج من حلب ، ومعه أموال أخرى
غير المواعيد .

وقد وصل المتنبى إلى كافور وأصحابه ، فهجأهم بالكذب
والغدر وإخلاف الوعد ، ومقتهم ومقت الجود معهم ، ولكن
انظر إليه بعد قليل كيف يقول :

أَكَلَّمَا اغْتَالَ عَبْدُ الشَّوْءِ سَيِّدَهُ

أَوْ خَانَهُ فَلَهُ فِي مِصْرَ تَمْهِيدُ

صَارَ الْخَصِيُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا

فَالْحَرْ مُسْتَعْبِدٌ وَالْعَبْدُ مَعْبُودُ

نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثَعَالِيهَا

فَقَدْ بَشِمَنْ وَمَا تَفَنَّى الْعَنَاقِيدُ

ولست أعرف أصدق في مصر ولا أبرع في تصويرها

من هذا البيت الأخير .

وما أرى إلا أن المتنبي قد ألهم البلاغة والحكمة حقا ،
حين وفق إلى هذا البيت الذي يختصر لونا من حياة مصر
منذ أبعد عهودها بالتاريخ إلى هذا العهد الذي نحيا فيه .
ولو أن التاريخ أراد أن يحصى الثعالب التي عدت على مصر
وأموالها ، فأخذت منها ما أطاقت وما لم تطق حتى أدركها
البشم وما هو فوق البشم ، ونواطيرها نائمة ، وقادتها غافلون ،
وأموالها مع ذلك لا تفنى ولا تنفد ، ودول الثعالب يتسلو
بعضها بعضا ، ويقفوا بعضها أثر بعض ، أقول لو أراد التاريخ
إحصاء هذه الثعالب ، لما استطاع ، ولست أدري ، أيأتي يوم
يكذب فيه هذا البيت من شعر المتنبي ؟ فلا تنام نواطير
مصر ، ولا تبشم الثعالب فيها ، ولا يعدو الماكرون الغادرون
على أهلها ، الآمنين الغافلين . ثم يقول المتنبي بعد قليل :

ما كنت أحسبني أحييا إلى زمن

يسى بي فيه كلبٌ وهو محمود

ولا توهمت أن الناس قد قعدوا

وأن مثل أبي البيضاء موجود

وَأَنَّ ذَا الْأَسْوَدَ الْمَثْقُوبَ مَشْفَرُهُ
تُطِيعُهُ ذِي الْعَضَارِيطُ الرَّعَادِيدُ
جَوْعَانُ يَا كُلُّ مَنْ زَادَى وَيُمْسِكُنِي
لِسَكْنِي يُقَالُ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودُ

ثم يبلغ الغضب من الشاعر أقصاه حين ينتهى إلى هذا البيت ، فإذا هو يعلن عزمه على الهرب في هذا البيت الذى يسبغه عليه اللون الحماسى القاتم فى الشطر الأول ، ولكنه لا يلبث فى الشطر الثانى أن يستحيل إلى فكاهة تثير الضحك والاستهزاء :

وَيَلْمُهَا خُطَّةً وَيَلْمُ قَابِلَهَا

وإذن فالمتنبى ينكر هذه الخطئة ويأبى ما تحمله من الضيم ، ولكن كيف يكون إنكاره وكيف يكون إباؤه ؟ لن يكون مقاومة ولا امتناعا ، ولكنه سيكون هربا وفرارا :
لِمِثْلِهَا خُلِقَ الْمَهْرِيَّةُ الْقُودُ

والقصيدة متينة رصينة إلى آخرها ولعلها أجود ما قال المتنبى فى هذا الفن . ولم يتحدث عن هجاء المتنبى لكافور

من لم يرو هذه الأبيات الخالدة التي جاءت في آخر مقصوده
والتي ما أحسب مثقفا خليقا بهذا الوصف جهلها أو يجهلها
منذ شاع شعر المتنبي في الناس :

وماذا بمصرَ من المضحكاتِ

ولكنه ضحك كالبكاء

بها نبطي من أهل السوادِ

يُدْرَسُ أنساب أهل الفلا

وأسود مشفره نصفه

يقال له أنت بدر الدجى

وشعر مدحت به الكركدن

ن بين القريض وبين الرقى

فما كان ذلك مدحا له

ولكنه كان هجو الورى

وقد ضل قوم بأصنامهم

وأما بزق رياح فلا

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ

رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

وسواء أردنا أم لم نرد ، فإن لمصر على المتنبي فضلين
لا يستطيع هو ولا نستطيع نحن أن ننكرها . فهي قد رقت
غنائه وعلمته الحزن الطويل العميق ، والتأمل الذي يكاد يرقى
به إلى الفلسفة ، وأنطقته بأشد شعره حزنا وأبلغه في النفس
أثرا ، في ميميته التي يذكر فيها مرضه ، وفي نونيته التي
يشكو فيها الزمان . وهي قد علمته الهجاء اللاذع الممض
الذي يبقى على الدهر ولا يخلو من نفع وموعظة .

فالمتنبي مدين لمصر بكثير من حكمته ، لأنه لم يعرف الحياة
المهادنة التي تملؤها الهموم الملحة كما عرفها في مصر . كان
خليقا أن يعرفها في السجن بعض الشيء ، ولكنه كان
شابا قليل التجربة فأسرع إليه الضعف ، وكان خليقا أن
يعرفها أثناء اضطرابه في شمال الشام بعد خروجه من السجن
وبعد فراره من بدر ، ولكنه كان كثير الحركة قليل
الاستقرار ، مباعدا بينه وبين التفكير الطويل العميق . فأما
عند سيف الدولة فقد كان مشغولا بالقصر والحرب ، وبالكيد

وجمع المال ، فلما انتهى إلى مصر واستقر في ظل كافور
أُتيح له السكون والهدوء ، ولم يعرض له أحد بكيد ولا حسد ،
ولم يضيق عليه في حياته المادية ، وإنما وضع على نار هادئة
من الوعد والإخلاف فنضجت نفسه نضجا بطيئا ، ولكنه
نضج صحيح . وتعلم كيف يطيل التفكير في الحوادث والخطوب
دون أن تشغله الثورة عن التعمق والاستقصاء ، وانتهى إلى
الاستهزاء بالحوادث والخطوب وبالذين يسلطون عليه هذه
الحوادث ويغرون به هذه الخطوب فنمغ في الهجاء واستطاع
أن يرقى به من السخف والإقذاع إلى حيث يجعله أمثالا
سائرة وحكمة تنفع الناس .

١٢

ولم يكن بد للمتنبى ، حين أزمع الرحيل من مصر ، من أن يقصد إلى العراق . فسبيل الشام مأخوذة عليه ، في جنوبها ملك الإخشيديين وساطان كافور ، وفي شمالها الحمدانيون الذين فارقهم قاليا لهم ، والذين لا يستطيع أن يصل إليهم حتى لو عاد بينهم وبينه الصفو ، إلا أن يمر بطريق مأهولة في بلاد كافور يشتد فيها الطلب وتضيق فيها المراقبة .

وقد كان من الجائز أن يباعد المتنبى في أسفاره نحو الغرب ، فيقصد إلى الفاطميين في شمال أفريقيا . ولكن هذا لم يخطر له لسبب واضح جدا ، لأنه لو فعل لنفى نفسه عن العراق والشام نفيا مؤبدا كما يقولون ، لأنه كان يجعل ملك كافور بينه وبين مأمنه في العراق والشام .

فلم يكن له بدّ إذن من أن يعود إلى العراق ، ومن أن يسلك إليه طريقا غير الجادة ، لا يمكن أن يدركه فيها الطلب أو يبلغه فيها البحث إلا بعد مشقة وجهد . وقد دبر المتنبى

أمره تدبيرا حسنا ، وأعانه على ذلك جماعة من أعراب
مصر الذين يحسنون العلم بطرق الصحراء . فالديوان ينبئنا بأنه
استعان برجل قيسى من بلبيس فأرسل إليه دليلا ، ومدحه
المتنبى بالأبيات التي أولها :

جَزَى عَرَبًا أَمْسَتْ بُبْلَيْسَ رَبِّهَا

بِمَسْعَاتِهَا تَقَرَّرَ بِذَلِكَ عُيُونُهَا

وليس من شك في أن الشاعر جد في الهرب حتى
أمن طلب كافور ، ثم رفق بنفسه وإبله وخيله وعبيده بعد
ذلك فسار معتدلا ، ولم يمتلئ على قافلته ببعض الراحة من
حين إلى حين ، حتى انتهى إلى الكوفة ، وقال مقصورته
المشهورة في ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وثلثمائة .
وكان قد خرج من الفسطاط في يوم عرفات سنة خمسين
وثلثمائة ، فكان هذه الرحلة قد اقتضته ثلاثة أشهر أو أقل
أو أكثر قليلا .

وما كنا لنقف عند هذا الهرب ، ولا لتحدث عن
هذه الرحلة ، لولا أن فيها ظاهرتين خليقتين بالملاحظة
والتفكير ، فأما الظاهرة الأولى فنستنبطها من هذه الحادثة

التي عرضت له حين نزل في بعض طريقه بأعرابي من طيء
يقال له وردان بن ربيعة ، فجعل هذا الأعرابي يفسد عبده ،
وجعل العبيد يسرقون له من متاع سيدهم . فلما شعر المتنبي
بذلك وعرف أعظم عبده حظا من هذا الشر ضربه بالسيف
فأصاب وجهه وجذع أنفه ، ثم أمر غلمانه أن يجهزوا
عليه ففعلوا .

وقد ذكر المتنبي هذه القصة في مقطوعتين حفظهما الديوان
وقد هما الطائية في أولهما ، وهي التي يقول فيها :

لَيْنَ تَكُ طِيٍّ كَانَتْ لِنَامًا

فَالْأُمُّ رَبِيعَةٌ أَوْ بَنُوهُ

وقال الثانية يفخر فيها بتلك الضربة التي أصابت وجه
العبد ويذمه بعد موته وأولها :

أَعْدَدْتُ لِلْغَادِرِينَ أَسْـَافَا

أَجْدَعُ مِنْهُمْ بَهَنَ آنَافَا

وليس لهذا الشعر في نفسه خطر ، وإنما هو نحو من
كلام الأعراب في مثل هذه الحوادث الهينة في ظاهر الأمر ،

إنما الشيء الخطير حقا ، هو إقدام المتنبي على القتل في سبيل
ما كان يسرق هذا العبد من متاعه . فذلك لا يصور بخله
وحرصه على المال فحسب ، وإنما يصور ما هو شر من هذا ،
يصور استهانتته بالحياة الإنسانية ، واستباحته الدم الإنساني
في سبيل متاع يقوم بالدراهم والدنانير .

وأقل ما يوصف به هذا الإثم أنه لا يصور نفسا شاعرة
متحضرة رقيقة الحس متأثرة بالفلسفة ، فضلا عن الدين الذي
لا يبيح دماء الناس في مثل هذه الصغائر . ولو أن حياة المتنبي
كلها خلت من النقائص والعيوب ، لكانت هذه الحادثة
وحدها خليفة أن تسبغ عليها لونا أحمر قانيا يبغيها ويبغيض
صاحبها إلى الناس .

الغريب أن المتنبي يفخر بهذا الإثم ، ويراه مظهرا من
مظاهر البطولة والفتوة . وأغرب من هذا أن من الناس
من أعجب بهذا الإثم ، وبشعر المتنبي فيه قديما وحديثا ، كأنه
يكفي أن يقترب الإثم ويرتكب الفجور ليحمد الآثم بإثمه
ويثني على الفاجر بفجوره في بيئات تتخذ الإسلام ديناً ،
وتتخذ الفلسفة والحضارة مقوما للعقل والقلب والشعور .

ولكنها الفتنة بالمتنبى تصرف الناس حتى عن أبشع سيئاته
وأشدها نكرا .

أما الظاهرة الثانية فنراها في هذه المقصورة التي أذاعها
من الكوفة ، ووصف فيها طريقه وهجا فيها كافورا ، وهي
أن استرداد الشاعر لحريته قد رد عليه فتوته الأولى ومرحه
القديم وقتا ما ، وإذا نفسه الشابة تشيع في هذه القصيدة
فرحة مرحلة وخائلة تياهة لا تكاد تسع نفسها ولا يكاد
يسعها الكون ، وإذا الشاعر يعود إلى غروره القديم
فيفخر بنفسه في غير قصد ولا اعتدال ، ويقول هذا الفخر
في شعر جميل سائغ محبب إلى النفس .

وليس من شك في أن هذه المقصورة من أجود ما قال
المتنبى من الشعر ، وقد أحبها الناس في عصره واستنشدوه
إياها ، وأعجبوا بها إعجابا شديدا . وهي خليقة بهذا الإعجاب ،
لأنها تلائم نفس الشاعر أصدق ملاءمة وتلائم المعاني التي
أراد الشاعر أن يذيعها فيها .

وأظهر ما يعجبني أنا من هذه القصيدة ملاءمة الشاعر
بين موضوعها أو موضوعاتها ، وبين ما اصطنع فيها من الوزن

والقافية ، فهو قد أراد أن يصف هربا سريعا بعيدا ممعنا
في السرعة ، ممعنا في البعد ، وأن يفخر بنفسه فخرا يجب
أن يذيع ويشيع ويملا الآفاق في أسرع وقت ، وأن يهجو
عدوه هجاء لاذعا يجب أن يسير ويطير في أسرع وقت
أيضا . فاضطلع لهذا كله هذا البحر الذي يصور السرعة
والعدو ، وهذه القافية المقصورة التي ينطلق بها حرف اللين
إلى غير حد . وما أسرع ما سارت القصيدة وطارت حتى
ملأت الآفاق ، وانطلقت بها الألسنة في كل مكان .
وأول القصيدة وصف بدوى للطريق ، أو قل تسمية
بدوية للمواضع التي مر بها وأقام فيها من الفسطاط إلى
الكوفة ، وليس له من الجمال إلا بداوة اللفظ وعدوبته ،
وهذه الحركة السريعة التي تحسها فيه . وآخر القصيدة
هجاء لكافور قد رأيته وعرفت قدره ، فأما وسط القصيدة
فهو هذا الفخر الذي ذكرته آنفا ، والذي لا بد من روايته
لتعجب بنشاطه وسرعته ، وبضخامته وخفته في وقت واحد ،
وإن كان درسه وتحليله ينتهيان إلى ما يؤلم ، ويثير العطف
والإشفاق .

فِيَالِكَ لَيْلًا عَلَى أَعْكُشٍ
أَحَمَّ الْبِلَادِ خَفِيَ الصُّوَى
وَرَدْنَا الرُّهَيْمَةَ فِي جَوْزِهِ
وَبَاقِيهِ أَكْثَرُ مِمَّا مَضَى
فَلَمَّا أَنْخَنَّا رَكَزْنَا الرَّمَا
حَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلَا
وَبِتْنَا نَقْبَلُ أَسْـيَافَنَا
وَنَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعِدَى
لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالْعِرَاقِ
وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ أَنِّي الْفَتَى
وَأَنِّي وَفَيْتُ وَأَنِّي أَبَيْتُ
وَأَنِّي عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا
وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ قَوْلًا وَفَى
وَلَا كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسَفًا أَبَى
وَمَنْ يَكُ قَلْبُهُ كَقَلْبِي لَهُ
يَشُقُّ إِلَى الْعِزِّ قَلْبَ التَّوَى
(٢٢ م — ٢٢ ج)

وَلَا بُدَّ لِلْقَلْبِ مِنْ آلَةٍ
وَرَأْيٍ يُصَدِّعُ صُمَّ الصَّافَا
وَكُلِّ طَرِيقٍ أَتَاهُ الْفَتَى
عَلَى قَدَرِ الرَّجُلِ فِيهِ الْخُطَا

فهذا الفخر الرائع البديع كله ينحل إلى شيء يسير ،
وهو أن الشاعر قد فرّ من مصر فرار اللص ، واندفع في
الصحراء اندفاع الصعلوك ، وقتل في طريقه عبدا لأنه سرق
بعض المتاع . فظاهر هذا الفخر معجب من غير شك ،
وباطنه يحزن ويضحك من غير شك أيضا . ولكننا قد نزدري
الرجل ، وقد ينتهي بنا الازدراء إلى أن نرحمه دون أن
يمنعنا هذا أن نعرف للشاعر حقه في كثير من الإعجاب .

الكتاب الخامس

الفصل الأخير من حياته

١٠

والمسألة التي تحتاج إلى بحث واستقصاء وتعجز النصوص ،
إلى الآن ، في رأيي ، عن حلها على نحو يرضى ويرىح ، سواء
في ذلك ما حفظ الديوان من الشعر ، وما تحدث الرواة به
من الأخبار ، هي ماذا كان المتنبي قد أضمر في نفسه من
رأي ، ورسم لنفسه من خطة حين فر من مصر قاصدا إلى
العراق ؟

أما أحاديث الرواة فمختلفة مختلطة ، وما أحسب أنهم
فكروا في إلقاء هذا السؤال ومحاولة الجواب عليه ، ولكنهم
رأوا أن المتنبي قد استأنف الاتصال بسيف الدولة ، وذهب
إلى بغداد وعاد إلى الكوفة واتصل بسيف الدولة مرة
أخرى ومرة ثالثة وقصد إلى ابن العميد ، ثم إلى عضد
الدولة ، ثم قتل . وتناقلوا أخبارا متفرقة حول هذه الحوادث
كلها فلم يحسنوا تلخيصها ولا استخلاص ما تدل عليه من
المعاني ، إن كانت تدل من المعاني على شيء . وأما المحدثون

فقد اجتهدوا في أن يستخلصوا من شعر المتنبي وسيرته
وأحاديث الناس عنه معنى متسقا يلائم بعضه بعضا . فظنوا
أن المتنبي كان يفكر في الرجوع إلى سيف الدولة ويريد
هذا الرجوع ، وأن سيف الدولة أيضا كان يمتنى هذا . ولكن
الأحداث لم تتح للأمير والشاعر أن يلتقيا . وما أدرى ،
أكان هذا حقا أم لم يكن ؟ ولكنني أفهم سيرة المتنبي منذ
عاد إلى العراق على نحو يخالف ما ذهب إليه القدماء
والحدثون جميعا .

وأحب قبل كل شيء أن تذكر ما ألمت به في بعض
الحديث عن المتنبي عند سيف الدولة ، من أن الشاعر قد
أساء في حلب إلى والي الأمر في العراق إساءة جارحة لم
يكن من اليسير أن تنسى ، وأن تنسى في سرعة وسهولة .
والأشخاص الذين هاجم تعريضا أو تصریحا كانوا ما يزالون
أحياء ، وكان السلطان ما يزال إليهم . وقد رأيت أن المتنبي
هجا الخليفة وهجا معز الدولة وعرض بوزيره المهلبی . وأنت تعلم
أنه كان قد عرض بكافور أيضا ، ولكن تعريضه بكافور
كان يسيرا بالقياس إلى تعريضه بأولى الأمر في بغداد .

كافور

ومع ذلك فقد رأيت أن كافورا لم يأمن للمتنبي ولم يطمئن إليه ، وإنما أذله من جهة واستخدمه من جهة أخرى . وقد أظهرت تجربة كافور أن الثقة بالمتنبي سذاجة ، وأن الاطمئنان إليه حمق ، لأن المتنبي نفسه كان ساذجا وكان أحمق . طمع في كافور وكان الحق عليه ألا يفعل ، وألح على كافور ، وكان الحق عليه أن يفهم استعداداه لأول مرة لقيه فيها أو بعد انتظار قصير . ثم غضب على كافور وظل يمدحه مع ذلك حيناً ، ثم فر من كافور فأطلق لسانه فيه وأنكر ما كان قد أسبغ عليه من ثناء .

فلم يكن من المنتظر ولا من المعقول أن ينخدع أولو الأمر في العراق عن هذا كله . لم يكن من المعقول أن ينسوا ما قال فيهم ولا أن يتناسوه ، ولا أن يطمعوا المتنبي كما أطمعه كافور ، وقد رأوا نتيجة هذا كله واضحة بشعة . والمتنبي نفسه على سذاجته واعتداده بنفسه لم يكن يقدر أنه سيلقى من أهل العراق حفاوة به أو إقبالا عليه ، وقد قال فيهم ما قال . وما أحسبه كان مستعدا لأن يأمن لهم ويطمئن إليهم كما فعل مع كافور . فهو إذن كان يئسا من أن

يستأنف حياة الشاعر المادح مع أصحاب السلطان في بغداد
كما فعل في الفسطاط . وما أراه كان يفكر تفكيراً صادقاً
في العودة إلى سيف الدولة ، فلعله كان يحب الأمير ويكبره
ويثق به ، ولكنه كان يعرف سلطان الحاشية وكيد القصر
وضيق أسرة الأمير نفسها به ، وهو كان قد تعرض للموت
مرة وأفلت منه بعد جهد ، فمن يدري ؟ لعله كان يتعرض
للموت ولا يفلت منه مرة أخرى .

وكانت أمور سيف الدولة قد أخذت تفسد ويسعى
إليها الاضطراب والانهلال . فالروم يظهرون عليه من ناحية ،
والمرض يأكل صحته من ناحية أخرى . وإذن فأيسر الحزم
كان يفرض على المتنبي ألا يفكر في حلب ، وألا يطمع في
بغداد . وما أظن إلا أنه قد انتهى إلى السكوفة وهو يريد
أن يحيا فيها حياة الرجل الهادئ المطمئن ، الذي جمع من المال
مقداراً ضخماً يمكنه من أن يعيش عيشة أصحاب الثراء والجاه .
وما أظن إلا أنه كان يريد أن يستمتع بهذه الحياة حيناً من
الدهر ، وأن ينتظر ما ستتكشف عنه الأحداث ، واست
أدري ، أحس شيئاً من الحنين حين عاد إلى وطنه ؟ ولست

أدرى ، أثارت في نفسه ذكريات الصبا ؟ ففكر في نشأته
البائسة ، وفي جدته الكريمة ، كما يظن الأستاذ بلاشير .
ولكن الذى نعلمه هو أننا لا نجد أثرا لشيء من ذلك في
شعره ، فهو لم ينشئ قصيدة ، ولا مقطوعة ، ولم يشر في
قصيدة ولا مقطوعة إلى هذا العهد القديم من حياته ، كما
أنه لم ينبئنا في قليل أو كثير من شعره بما أحدثت عودته إلى
وطنه الأول من أثر في نفسه .

والغريب أننا سنجد عنده حنيننا ، ولكن إلى الشام ،
وإدكارا ، ولكن لحمص ودمشق وصحارى الشام . فأما
الكوفة وباديتها ، فقد رأيناها يذكرها شيئا ما حين كان مع
سيف الدولة . أما بعد أن عاد إليها فقد أهملها الإهمال كله .
وإذن فقد نغلو إن ظننا ، كما ظن الأستاذ بلاشير ، أنه
قد أحس شيئا من الألم والحزن حين رأى هذه المدينة
العظيمة ، وقد أخذ الخراب يسعى فيها ، والانحطاط يسرع
إليها . ولعله أحس شيئا من الكبرياء حين رأى نفسه يعود
إلى الكوفة غنيا موفورا بعد أن خرج منها بائسا معدما ،
لا يجد ما يحمله إلى بغداد . ولكن هذا أيضا لا يظهر في

شعره ، ولعله شغل ، حتى عن هذا ، بغضبه على كافور
وإذاعته الهجاء له .

على أنى أرجح أنه لم يطمئن إلى حياته في الكوفة ،
ولم يرض لنفسه هذا الخمول الذى لم يخلق له . فما هى إلا
أشهر حتى ضاق بالكوفة ورحل عنها فى آخر سنة إحدى
وخمسين وثلثمائة إلى بغداد .

رحل عنها ضيقا بها من غير شك ، فليس فيها أمير
يمدح ، ولا قائد يتقرب إليه ، ولا غنى يطمع فى ماله .
ولعله كان من أغنى أهلها حينئذ ، وهو كان قد علل نفسه
بحياة العزلة التى يستمتع فيها بالحرية والاستقلال ، وبالراحة
وفراغ البال ، ولكنه لم يكدر يذوق هذه العزلة حتى ضاق
بها ، وفر منها أشد الفرار ، لأنه لم يكن يعرف نفسه حق
المعرفة أو كان يعرفها ، ولكنه كان قوى الحس ، سريع
التأثر . فكان ذلك يخذعه عن نفسه ، ويغريه بالتغلب
والاضطراب ، ويحول بينه وبين الهدوء والاستقرار .
وقد كان المتنبي فى عنفوان قوته فى الثامنة والأربعين

من عمره ، لم يبلغ بعد السن التي يحيل نفسه فيها على
المعاش كما يقول المعاصرون . فلا غرابة إذن في أن يضيق
بالكوفة ويكره الإقامة فيها . وهو قد جرب حياة الشاعر
المتصل بالملوك والأمراء ، المنقطع إليهم ، وقد زهد الآن
في هذه الحياة واستيأس منها . ولكن أمامه لونا آخر من
ألوان الحياة الحرة المستقلة التي يملؤها مجد من طراز جديد ،
وهي حياة الشاعر الفنى المستقل الذى لا يكسب حياته
بالمدح ، ولا يغض من نفسه بالانقطاع لأمير أو وزير .
ولكنه مع ذلك يحيا ظاهرا نابها معروفا ، ينشد شعره
للطلاب ، ويفسره لهم على نحو أوضح وأجلى وأكرم مما
كان يصنع في حلب أو في القسطنطينية . وهو قريب من
بغداد دار الخلافة ، ومركز الحضارة الإسلامية ، والتي
لا يتوج الحمد إلا فيها . وقد زار بغداد بأثنا طريدا ، ثم
خرج منها خائفا يترقب . فما له لا يعود إليها غنيا كريما
يحتاج الناس إليه ولا يحتاج هو إلى أحد . وكذلك ارتحل
المتنبى إلى بغداد سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة لا راغبا ولا
راهما ، لا مريدا بأحد شرا ، ولا مريدا من أحد خيرا .

وما أظن إلا أنه أنفق الأشهر التي قضاها في الكوفة مدبرا
أمره وأمر أسرته ، مفكرا في محنته المصرية ، منشئا للشعر
في هجاء كافور ورثاء أبي شجاع .

ولست أدري أوصلت إليه هدية سيف الدولة فدحه
بقصيدته اللامية :

« ما لنا كلُّنا جَوَّ يا رسولُ »

في هذا العام ، كما يظن الأستاذ بلاشير ، أم بعد رجوعه من
بغداد كما يرى بعض الرواة . ولكني أميل إلى الرأي الثاني
وأرجحه بما في هذه القصيدة من هجاء لأصحاب السلطان
في بغداد . فقد كان المتنبي أحق ، ولكني أتردد في أن
أراه من الحق بحيث يهجو أولى الأمر في بغداد وهو يهجم
بالرحيل إليهم .

وإذن فلم تصل إليه هدية سيف الدولة في هذا العام ،
ولم يفكر هو في استئناف الصلات مع الأمير في هذا العام
أيضا . وهو كما رأيت لم يقل من الشعر في هذه الأشهر
إلا قليلا . ولم يكن في حياته في الكوفة ، ما يدفعه إلى
قول الشعر . فالناس يرونه فيلسوفا مفكرا حكيما ، وكان

خليقاً ، وقد خلا إلى نفسه وفرغ لفلسفته وتفكيره وحكمته
أن يقول في ذلك شعراً . ولكنك عرفت من كل ما قرأت
إلى الآن أنه كان شاعراً ، وشاعراً لا يقول إلا عن رغبة
أو رهبة ، ولا سيما بعد أن انتهى عهد الشباب .

٢

ودخل المتنبي بغداد ، فأقام فيها سبعة أشهر أو ثمانية ،
ولكنه لم يحدث فيها شعرا ، ولولا أن الرواة تحدثوا بقدومه
إلى بغداد وانصرافه عنها ، وبيعض ما جرى له من الأمر
فيها ، لما عرفنا من قصته في بغداد قليلا ولا كثيرا .

فهو كما رأيت لم يقل شعرا في بغداد . ولما خرج منها
لم يذكرها ، ولم يذكر إقامته فيها فيما قاله من الشعر . وقد
يظن بعض الناس ، ومنهم الأستاذ بلاشير أنه صور بعض
سخطه على بغداد في الميمية التي رثى بها فاتكا ، والتي أولها :

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النُّجْمَ فِي الظُّلَمِ

وما سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمٍ

ولكني أستبعد هذا كل الاستبعاد ، وأرجح أنه قال
هذه القصيدة قبل أن يزور بغداد ، وأن ما فيها من الحزن
والشكوى وإيثار السيف على القلم ، وذم الزمان والإخبار
بأنه قد أدرك الدهر في أوقات هرمه ، وأدركه القدماء في

أوقات شبابه ، كل هذا لم تثره بغداد ، وإنما أثاره إخفاقه
في مصر ، وغضبه على كافور ، وحزنه على فاتك ، وضيقه
بحياة البطالة والفراغ في الكوفة . وإذا لم يكن بد من
التماس إشارة إلى بغداد في شعر المتنبي بعد خروجه منها ،
فأنا ألتبس هذه الإشارة في لاميته التي مدح بها سيف الدولة
حين أهدى إليه ، والتي يحذر فيها الحمداني من الروم الذين
خلف ظهره في مصر والعراق ، والتي يقول فيها معرضاً
بالسلطان في بغداد :

ليس مَنْ عِنْدَهُ تُدَارُ المنايا

كالذي عِنْدَهُ تُدَارُ الشُّمُولُ

فهذه القصيدة ، كما رأيت منذ حين ، لم تقل إلا سنة
اثنين وخسين وثلاثمائة ، بعد أن رجع المتنبي إلى الكوفة .
فزيارة المتنبي لبغداد إذن لا تكاد تعنيننا ، لأنها لم
توحي إلى الشاعر بشيء ، ولم تترك في شعره أثراً ما .
فكانها بالقياس إلى فنّه لم تكن . ومع ذلك فالناس يكثر
فيها القول ، وينوِّعون فيها الأحاديث ولا يكادون يفقهونها
على وجهها ، أو لا يكادون يفقهون ما جرى للمتنبي فيها

على وجهه . والأمر مع ذلك أيسر من كل هذا ، فلم يقصد
المتنبى كما رأيت إلى بغداد ليفيد بشعره مالا أو مجدا عند
الخليفة أو الأمير أو الوزير ، وإنما قصد إليها ليعيش فيها
عيشة الشعراء والعلماء والناهبين من الأغنياء . ويقال إنه
زار الوزير المهلبى وشهد مجلسه ، ورأى فيه جماعة من الأدباء
والعلماء ، وشارك فى بعض ما كان بينهم من حوار . ولكنه
لم يمدح الوزير فأسرّها له ، وأغرى به الهجائين والمجادلين .
ولست أدري ، أزار المتنبى الوزير المهلبى أم لم يزره ؟ ولكنى
أرجح ، إن كانت هذه الزيارة قد وقعت ، أنها لم تكن
إلا زيارة رسمية كما يقول المعاصرون ، قد أبرأ الشاعر بها
ذمته ، ليأمن الكيد والغدر ، وليعيش هادئاً مطمئناً فى
بغداد . وما أظن أن المهلبى كان ينتظر منه مدحاً ، وما أظن
أن المتنبى فكر فى أن يجدد تجربته مع كافور . ويجب أن
نلاحظ أن المتنبى كان لبقاً مؤثراً للعافية ، ومسيطراً على نفسه
أثناء إقامته فى بغداد ، لم يتح له أن يمدح معز الدولة ، ولا
أن يمدح المهلبى ، ولا أن يصل إلى الخليفة . وما أشك فى
أن كثيراً من سراة بغداد وأشرافها كانوا يودون لو يمدحهم

الشاعر ، ولعل الشاعر نفسه كان يود لو يمدح بعض هؤلاء السراة والأشراف . ولكنه لم يفعل اصطناعا للذوق — فما ينبغي أن يمدح أحدا من أهل بغداد (وهو لم يمدح خليفتها وملاكمها ووزيرها) — واحتفاظا بمكانته ، وضنا بمقامه أن يعيبه المقربون من السلطان بأنه لم يستطع أن يبلغ الرؤساء فاكثفى بمن دونهم .

آثر الشاعر العافية إذن ، وتجنب السياسة ، لأنه لم يكن يستطيع أن يدنو منها ، وتجنب السياسة لأنه لم يكن يحبهم ولم يكونوا يحبونه . وقد يظن — والأستاذ بلاشير يرى هذا الرأي — أن المتنبي أعرض عن مدح الرؤساء في بغداد إبقاء على ما كان بينه وبين سيف الدولة من الود ، واحتفاظا بما كان قد دبر من الشخوص إلى حلب . وكانت العلاقات سيئة بين الحمدانيين والبويهيين ، فكان مدحه للبويهيين يفسد عليه خطته التي دبرها في نفسه . ولكنني أستبعد هذا أيضا كل الاستبعاد ، لأنني لا أقطع بأن المتنبي فكر حقا في الرجوع إلى حلب . وما أشك في أنه لو وجد سبيلا إلى الرؤساء في بغداد لما تردد في سلوكها ، ولكن هؤلاء الرؤساء (م ٢٣ — ج ٢)

احتملوا مقامه في العراق ، ودخوله بغداد وإقامته فيها ، وهذا
منهم كثير . فما كان المتنبي أن يطمع في أكثر منه .
وقد ظن الأستاذ بلاشير أن المتنبي كان يفكر في
السفر من بغداد إلى حلب ، ولكن غارة الروم على شمال
الشام واقتحامهم حلب ، وإخراجهم سيف الدولة عنها وإقامتهم
فيها وقتا ما ، كل هذا رد المتنبي عما كان قد عزم عليه .
وكل هذه فروض لا يرجحها نص ، بل لعل النصوص
تباعدا بينها وبين الحق . فقد دعا سيف الدولة شاعره إلى
الرجوع إليه وأجابه المتنبي في آخر سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة
في بائيته المشهورة بأنه سامع مطيع ، ولكنه لم يكذب يمضى
في القصيدة حتى عرض بالاعتذار .

وقد أنفذ القصيدة إلى سيف الدولة من الكوفة في
ذي الحجة ، وخرج من الكوفة في المحرم ، ولكن لا إلى
حلب ، حيث سيف الدولة ، بل إلى أربان ، حيث ابن
العميد ، ثم إلى شيراز ، حيث عضد الدولة . فلم يكن المتنبي
يقدر الرجوع إلى حلب أو يفكر فيه ، وإنما كانت له خطة
أخرى سنها بعد حين .

إذن ففي سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ، لم تكن نفس
المتنبى قد أبلت من ضيقها بالملوك والأمراء ، ولم يكن قد
زهد في حياة الهدوء والاستقلال . ولم يكن يريد في بغداد
إلا هذا الهدوء والاستقلال ، ولكنه لم يظفر بهما لسبب
يسير جدا ، فقد احتمله أولو الأمر في العراق ، ولكن على
أن يقيم بعيدا عن بغداد ، لا على أن يأتي فيقيم بين أسماعهم
وأبصارهم ، ويستقر على صدورهم كأنه الكابوس ، لا يريدون
أن يدنوه ، ولا يريد هو أن يدنى نفسه منهم . ولكنه مع
ذلك مقيم بين أظهرهم يغدو ويروح ويختلف إليه الطلاب ،
يروون عنه ويسمعون منه ، ويختلف إليه العلماء يحدثونه
ويخوضون معه في ألوان الجدل .

كل هذا كان كثيرا ، والحق أن المتنبى قد استمتع
أمام السلطان السياسي في جميع الأقطار التي زارها وأقام
فيها بحرية غريبة بالقياس إلى ذلك العصر ، وبالقياس إلى
ما كان مألوفا من الظلم والطغيان . فهو قد أغضب الأمراء
ومن دون الأمراء ، ولم يتعرض لعقوبة ظاهرة رسمية ،
وإنما كان آمنا مطمئنا في حلب حتى خرج منها . ولما

ضاق به الحمدانيون لم يجاهروه بالعقوبة ، وإنما هموا باغتياله .
ولجأ إلى مصر ، فلولا أنه طمع في غير مطمع لما لحقه أذى
من كافور . ومع ذلك فلم يلحق به كافور أذى ، وإنما حاول
أن يمنعه من ترك مصر ليرد عن ملكه لسانه الحاد الطويل .
ثم عاد إلى العراق ، بعد أن قال في أصحابه ما قال فلم يردوه
ولم يزعموه ، وإنما تركوا له الحرية في أن يقيم في وطنه
ما أراد . ثم هو لا يكتفي بهذا ، بل يذهب إلى بغداد نفسها
وهو مع ذلك لا يتعرض فيها لأذى . فليس دمه مهدرا ،
وليس السجن يدعوه ، وليست المراقبة تفرض عليه ، ولكنه
مع ذلك لم ينعم بالحياة في بغداد ، لأن خصومه السياسيين
خلوا بينه وبين الشعراء والأدباء يحاربونه بالنقد ، أي يحاربونه
بالسلاح الذي كان يحسن الحرب به لو أراد .

فالشعراء البغداديون يهجونه فيسرفون في هجائه ، وابن
لنكك في البصرة يهجوهم فيقذع في هجائه ، وبعض الأدباء
والعلماء يتعرضون له ، فيجادلونه في شعره ، متحدين له ،
مشنعين عليه .

والمتمني يؤثر الصمت ، ويصطنع الحلم ، ويتكلف

الكبرياء ، ولكنه فيما أعتقد كان حذرا محتاجا ، يخاف أن يطلق لسانه فيتجاوز حده ، ويخرج عن طوره ، ويحفظ سلطانا لا يحتمله إلا في شيء كثير من الحلم المتكاف ، والأناة المتصنعة . ولولا هذا لما صبر المتنبي على هذا الهجاء القبيح ، والتحدى الشنيع . وهو كما نعلمه ضيق الصدر ، عاجز عن إمساك لسانه في فمه . بل لولا هذا لما سكنت المتنبي حتى بعد خروجه من بغداد عن هؤلاء الذين آذوه بأقوالهم وأعمالهم . ولكن المتنبي مصمم على أن يعيش في العراق ، ولا بد له من أن يؤدي ثمن المعيشة في العراق ، فيحتمل ما كان ينكره حين كان يقول ، بعد أن فر من بدر ابن عمار :

وَاحْتِمَالُ الْأَذَى وَرُؤْيَا جَانِيهِ

هـ غِذَاءُ تَضَوَّى بِهِ الْأَجْسَامُ

فلا بد له من أن يحتمل الأذى ويرى جناته ولا يدفعهم عن نفسه بيد ولا لسان . وأخرى لا ينبغي أن ننساها ، فقد كانت السياسة مبغضة للمتنبي في العراق ، وكان الأدباء

الرسميون يصانعون السياسة ، ولكن الأدب العراقي نفسه
كان يضيق بهذا الشاعر الأجنبي الذي كسب فنه ومجده
بعيدا عن العراق لأول مرة في التاريخ الأدبي . فقد كان
الشعراء في القرون الثلاثة الأولى يظهرون وينبه ذكركم في
العراق ، فإذا ظهوروا في قطر آخر ، فلم يكونوا يكسبون المجد
ونباهة الشأن إلا في العراق : فمروان بن أبي حفصة كان
يعيش في اليمامة ولولا أنه وفد بشعره على علماء البصرة وخلفاء
بغداد لما عرفه الناس . وأبو تمام نشأ في الشام وشب في
مصر وقال الشعر في الغرب ، ولكنه لم يعرف ولم يشتهر حتى
وفد على العراق . والبحترى نشأ في شمال الشام ، وقال
الشعر في مَنبِج وما حولها ، ولكنه لم يصبح شيئا إلا بعد أن
وفد على العراق .

وهذا المتنبي يولد في العراق وينشأ فيه ويبدأ فيه قول
الشعر ، ولكنه يغرب بشعره ويطيل الإقامة في الغرب
وينبغ هناك ، ثم يعود إلى العراق كامل الفن ذائع الصوت
باهر المجد . فمن حق الأدب العراقي أن يضيق به ، ومن
حق الأدباء العراقيين أن ينكروه ويعدوه دخيلا .

وإذن فلم يكن التحالف بين السياسة والأدب على
المتنبى غريبا في بغداد ، وإنما كان الغريب ألا يتحالفوا
عليه ، ومع ذلك فقد وجد المتنبى عند شباب بغداد وعند
جماعة من أدبائها وعلمائها ، بل عند جماعة من أغنيائها
وسراتها ، حبا وإجلالا فتلقوه أحسن لقاء ، وأنزلوه أحسن
منزل ، والتفوا حوله يسمعون منه ويكتبون عنه ويقومون
دونه ما وسعهم ذلك ، ولكنهم كانوا قلة وكانوا مستضعفين .
ولم يكن بد من أن ينتهى الأمر بالمتنبى إلى إحدى اثنتين :
فإما أن يتوب ويشوب إلى الذين هجأهم وآذاهم وأساء إليهم ،
ومن يدرى ؟ لعلهم لا يقبلون توبته لأنهم لا يأمنونه ، وهل
أمنه كافور ؟ وإما أن يترك بغداد ، ولكن إلى أين يتركها ؟
لا إلى سيف الدولة ، فهو لا يريد ، ولا يستطيع أن يعود
إلى سيف الدولة لأنه لا يثق بقدرة سيف الدولة على حمايته
من أعدائه وحاسديه .

ومن يدرى ؟ لعله لو هم بالعودة إلى حلب لوجد الطريق
مأخوذة عليه ، فقد انتفع معز الدولة والمهلبى من قصة
كافور . وما ينبغي أن يخلى بين المتنبى وبين الرجوع إلى

الشام ليطلق فيهما لسانه كما أطلقه في كافور .
فليس له إذن إلا أن يعود إلى الكوفة ويستقبل
أمره فيها بالروية والتفكير ؛ فإما أن يقنع بالحياة الهادئة ،
وإما أن يجد طريقا إلى الصلح بينه وبين السياسة والساسة
في بغداد .

٣

وقد عاد إلى الكوفة في السنة نفسها ، وهناك وصلت
إليه هدية سيف الدولة فشكرها باللامية المشهورة ، وهناك
نعت له أخت سيف الدولة فرثاها بالباءية المشهورة ، وانقضى
هذا العام ولا يحفظ لنا الديوان من الشعر الذي قيل فيه
إلا هاتين القصيدتين . أقال المتنبي شعرا لم يحفظ لنا ؟ أم
أعرض المتنبي عن الشعر لأن دواعي الشعر لم تكن موجودة
فنام شيطانه حتى أيقظته هدية سيف الدولة ، ثم عاد إلى النوم
حتى أيقظه موت ست الناس ؟

هذا هو الذي أرجحه ، لأنني كما قدمت لا أرى المتنبي
يقول الشعر إلا حين تدفعه إليه الدوافع ، ولعله كان يقول
الشعر في هجاء البغداديين كما كان يقوله بمصر في هجاء كافور ،
ولكنه أشد احتياطا من أن يذيعه أو يظهر عليه حتى أخص
الناس به ، وآثرهم عنده من الذين تبعوه إلى الكوفة .
استقبل المتنبي سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة محزوناً ،

كاسف البال ، متدبرا في أمره ، ولكن الحوادث أثبت
إلا أن تمتحنه امتحانا ليس أقل عسرا من الامتحانات المختلفة
التي تعرض لها في الشام ومصر . فهذه دعوة القرامطة تعود
إلى الظهور في الكوفة ، ويكثر فيها الحديث ، وينشأ عنها
لغط كثير ، وإذا فقراء المدينة والبائسون من أهلها يسرعون
إلى الدعوة ويستجيبون للدعاة ، وإذا أغنياء المدينة وأوساط
الناس فيها ينكرون الدعوة ، ويقاومون الدعاة . والمتنبى
من الأغنياء طبعا ، ولكنه كان قرمطي النشأة ، قرمطي
الشباب ، وهو الآن كاره للسلطان العراقي ، كما كان مبغضا
له في صباه وشبابه . فإلى أي جانبه يميل ؟ يميل إلى
القرامطة فيرضى شهوته إلى الحركة والحرب ؟ أم يميل إلى
السلطان فيحفظ ماله ، ولعله يصلح أمره مع هؤلاء الساخطين
عليه في بغداد ؟ مال المتنبى إلى السلطان ، وجحد القرمطية
في هذه المرة ، كما جحدها من قبل ، وإذا هو مع أغنياء
الكوفة وأوساط الناس فيها يقاومون دعوة القرامطة ،
وإذا هو يبدأ هذه المقاومة بلسانه فيهبو داعية بدويا من
دعاتهم ، ضبة بن يزيد الكلابي ، بقصيدته البائية المشهورة
التي أولها :

ما أَنْصَفَ الْقَوْمُ ضَبَّةً
وَأُمَّهُ الطَّرُطَبَّةُ

وهي من أقبح شعر المتنبي وأقذع ما قال من الهجاء ،
ولكن دعوة القرامطة هذه لا تلبث أن تقوى ويخيل إلى
الداعين أن الكوفة قد نضجت ، وإذا هم يغيرون عليها ،
وهنا تتم خيانة المتنبي للقرامطة . فهو لا يكتفى بما قدم من
المقاومة باللسان ، ولكنه ينهض ومعه غلمانه ، فيقاوم بالسيف
والرمح ، وينجح في هذه المقاومة ، ويشق لنفسه ولغلمانه
طريقا حتى يتصل بحاكم المدينة .

وتعود الغارة على المدينة ، فيعود المتنبي وغلمانه إلى
الاشتراك في ردّ المغيرين ، وتوفق المدينة إلى إبعاد المغيرين
عنها ، ولكن الخبر كان قد وصل إلى بغداد ، وإذا هي
ترسل جيشا على رأسه أحد قوادها ، دليّ بن لشكروز .
فلا يكاد هذا القائد يصل إلى الكوفة حتى يعرف الذين
أبلوا في رد القرامطة ، فيخلع عليهم ، ومنهم المتنبي . فإذا
وصلت إليه الخلعة أنشأ قصيدة في مدح القائد ، ثم ذهب

فأنشده إياها ، وهي اللامية التي أولها :

كَدَعَوَاكَ كُلُّ يَدَّعِي صِحَّةَ الْعَقْلِ

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَدْرِي بِمَا فِيهِ مِنْ جَهْلِ

والتكلف أظهر شيء في هذه القصيدة ، كأن الشاعر

كان خجلا ، مستخديا أمام نفسه وهو ينشئها ، ومهما يكن

من شيء ؛ فقد أتم المتنبي انقلابه على القرامطة . أطلق فيهم

لسانه ، وأعمل فيهم سناناه ، ومدح عدوهم ، وتلقى منه

الجائزة . وهو بهذا قد صان ماله من جهة ، وخطا الخطوة

الأولى إلى إرضاء السلطان العراقي من جهة أخرى .

ثم تريد الظروف ، التي تحب المزاح أحيانا ، أن تمتحن

المتنبي للمرة الأخيرة ، فيصل إليه في وقت واحد أو في

وقتين متقاربين ، كتابان : أحدهما من صديقه القديم

سيف الدولة ، وقد كتبه بخطه يدعوه إلى حاب ، والثاني

من فارسي صميم ، هو ابن العميد يستزيه في أرجان .

وأكبر الظن أن المتنبي نظر في الكتابين ، ثم نظر

فيهما ، ثم رد عليهما بعد قليل من الروية . فأما سيف الدولة

فقد أرسل إليه بانيته :

فَهَمَّتْ الْكِتَابَ أَبْرَ الْكُتُبِ

فَسَمِعًا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ

وَأَمَّا ابْنُ الْعَمِيدِ فَلَمْ يَرْسِلْ إِلَيْهِ كِتَابًا مَنْظُومًا وَلَا مَنْثُورًا ،
وَإِنَّمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِ نَفْسَهُ ، وَسَافِرٌ مِنَ الْكُوفَةِ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ
أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ مَوْجَهَا نَحْوِ أَرْجَانِ .

٤

وأى الرجلين بدأ بالكتابة إلى صاحبه ، أو التماس
الوسيلة إلى صاحبه ، إن أردنا التعبير الصحيح ؟ أهو ابن العميد
أم المتنبي ؟ أما إجماع الناس قديما وحديثا فمنعقد على أن
ابن العميد هو الذى كتب إلى المتنبي يستزيه . والناس
يقولون أيضا : إن ابن عباد كتب إلى المتنبي يستزيه الرى
حين كان الشاعر ببغداد ، ولكن المتنبي لم يحفل به ولم
يرد عليه ولم يتأخر عن الاستجابة لابن العميد حين دعاه
إلى أرجان .

وقوام هذه الأحاديث كلها أن المتنبي كان شديد
الكبرياء مزهوا بنفسه يترفع عن مدح الوزراء والكتاب ،
ولا يريد إلا أن يمدح الملوك والأمراء الممتازين الذين لا يقولون
امتيازاً عن سيف الدولة وكافور .

ولكن هذا كله فيما أعتقد إن صور شيئاً فإنما يصور
حب أصحاب المتنبي المتنبي وتصديق الناس لكل ما يقال .

فقد مدح المتنبي فاتكا في مصر ، ولو امتدت بفاتك الحياة
لاتصل مدح المتنبي له ولجاز أن يستجيره المتنبي وينقطع
إليه . ولم يكن فاتك أميرا ولا ملكا ولا وزيرا ولا كاتباً ،
وإنما كان قائدا غاضبا ، قد حرم السلطان فأنحاز إلى إقطاعه
في الفيوم .

وكان ابن العميد عظيم الشأن نابه الذكر ، ولكنه
على كل حال لم يكن ملكا ولا أميرا ، وإنما كان وزيرا
لأمير من أمراء الفرس أو سلطان من سلاطينهم . وقد
رأيت أني لا أعتقد أن المتنبي ترفع عن مدح الوزير المهلبى ،
وإنما أرجح أنه لم يجد سبيلا كريمة إلى هذا المدح . وطبيعة
المتنبي وسيرته تصوران لنا الأمر على غير ما فهمه أصدقاء
الشاعر ومؤرخوه . وأكبر ظنى أن الشاعر هو الذى سعى
في التقرب من عطاء الفرس ليصالح بهم أمره في الشرق
الإسلامى بعد أن فسد عليه أمره في الغرب الإسلامى ،
وأن المتنبي رغب فى أن يتقرب من ابن العميد ليقربه
ابن العميد من ركن الدولة أو من عضد الدولة حتى إذا مدح
هؤلاء العطاء وظفر برضاهم أولا ، وبجوائزهم بعد ذلك ، استطاع

أن يتقرب بهم إلى أصحاب السلطان في بغداد أو أن يستغنى
بهم عن أصحاب السلطان في بغداد . وهذا من غير شك
فرض من الفروض ليس في النصوص ما يدل عليه ، ولكنه
ملائم كل الملاءمة لطبيعة المتنبي وسيرته . فقد رأينا كيف
ترك أرض الإخشيديين بعد خروجه من السجن ، وأنفق
ما أنفق من الوقت في شمال الشام ، ثم اتصل بمدر عدو
الإخشيديين ، ثم فر منه وظل حينما مضطربا في الأرض ،
فلما عاد السلطان في الشام إلى الإخشيديين جعل المتنبي يبتغي
إليهم الوسائل متقربا من حكامهم وقادتهم حتى اتصل بأمر
من أمرائهم ، ثم رأيناه ينتهز ظفر الحمدانيين في شمال الشام
فيسعى في الاتصال بهم ويوفق إلى ما كان يريد من
الانقطاع إلى سيف الدولة ، فإذا أخفق في حاب لم يتردد في
أن يستأنف السعي ليعود إلى الإخشيديين وهو يظفر بما
كان يريد أيضا فيتصل بكافور بعد أن كان قد عرض به
وشنع عليه ، وهو قد أخفق عند كافور ففر إلى العراق .
وما أشك في أنه لم يدخله إلا بعد أن استأمن لنفسه فأعطى
الأمان ، وقد كان يظن أنه يستطيع أن يحيا في العراق

حياة الهدوء والاستقلال ، فرأى بعد التجربة أنه ما زال شاعرا محتاجا إلى من يظله ويتلقى مدحه . ولم يتيسر له ذلك في بغداد ، فالتمس أو التمس المعونة عليه في الشرق . ولم يتردد ابن العميد في أن يتلقى هذا الطامع فيه ، اللاجئ إليه ، المستعين به . فقد كان المتنبي أكبر الشعراء المعاصرين وأبعدهم صوتا من غير مراء ، وكان شعره كما قال لكافور قد شرق حتى ليس للشرق مشرق ، وغرب حتى ليس للغرب مغرب . وقد أغضبه الأميران المتسلطان في الشام ومصر ، ولم يحسن اصطناعه الأمير المتسلط في بغداد ، وما ينبغي أن تضع هذه الفرصة ، ولا أن يموت أكبر شعراء العصر ، ولم يتغن البويهيين ، ولم يدع ذكرهم في الأقطار العربية ، وما ينبغي أن يخلى بين هذا الشاعر العظيم الضعيف وبين صاحب حلب الذي كان يغريه ويزين له العودة إليه .

انتهز ابن العميد إذن هذه الفرصة ، ولعله هيا أسبابها وهونها على الشاعر تهوينا . وهذا المتنبي يرحل من العراق مشرقا فيصل إلى أرجان في شهر صفر سنة أربع وخمسين وثلثمائة .

وقد تلقاه ابن العميد أحسن لقاء ، ومنحه من ظاهر
الود والإكبار والإجلال ، ومن الهدايا والهبات ما أَرْضَى
كبريائه وطمعه معا . وأقام المتنبي عند ابن العميد ، ومعه
غلمان وجماعة من أصحابه شهرين أو ما يقرب منهما ، وخرج
من عنده ، وقد ظفر من المال بشيء كثير ، ولكنه ظفر
بما هو خير من المال ، ظفر بالاتصال بعُضد الدولة . والرواية
يحدثوننا هنا أيضا بأن عضد الدولة دعا الشاعر فتردد ، ثم
اعتذر ، ثم قبل . وهم يحدثوننا كذلك بأن ابن العميد أوحى
إلى ابنه أبي الفتح أن يرغب الشاعر في مدينة الري ، حيث
يقيم هو في خدمة ركن الدولة ، فآثر الشاعر بعد التردد
مدينة شيراز حيث يقيم عضد الدولة . وقوام هذا الحديث
أيضا إظهار الشاعر مظهر الذي يتنافس فيه الملوك والأمراء
فيمتنع عليهم ولا يستجيب لهم إلا كارها .

ولكنني أعتقد أن ابن العميد لم يكن إلا واسطة يراد
منه أن يقرب المتنبي إلى أمراء البويهيين . ولعل ابن العميد
قد تردد في تقديم الشاعر إلى ركن الدولة الشيخ أو إلى ابنه
عضد الدولة الشاب ، فاستقر رأيه على الثانية ، لشباب الأمير

المقيم في شيراز ، ولما كان هذا الأمير يدبر لنفسه وما كان يدبر له من خطة في العراق . فقد كان هذا الأمير الجريء الذكي الطموح محتاجا إلى من يدعو له في البلاد العربية ويمهد لقدمه على العراق حين تتاح له فرصة القدوم على العراق . وكان المتنبي أنفع أداة لهذه الدعوة وأقدر الناس على هذا التمهيد ، فوجه إذئذ إلى شيراز ، ولم يوجه إلى الرى .

على هذا النحو وحده أفهم تاريخ المتنبي في العام الأخير من حياته . ويخيل إلى أن من السذاجة أن تقبل الأمور كما نقلها إلينا القدماء من رواة الشعر والأدب ، وأن نهمل أثر السياسة في حياة شاعر كالتنبي قد ارتفع شأنه وعظم أمره ، وأصبح عنصرا لا يقوم أثره الممكن في نشر الدعوة السياسية .

ونحن نرى الآن ما تصنعه الحكومات مع الصحف ، وقد رأينا في أول التاريخ الإسلامي ما كانت تصنعه الحكومات مع الشعراء ، بل رأينا ما صنعت الحكومات

الغريبة مع المتنبي نفسه . فمن السذاجة أن نزن أن
ابن العميد لم يرغب إلا في شعر المتنبي ، وأن البويهيين
المقيمين في الفرس لم يريدوا إصلاح الخطأ الذي تورطت
فيه بغداد حين تجهمت لهذا الشاعر العظيم .

وقد مدح المتنبي ابن العميد بقصائد ثلاث ، أولها
الرائية التي أولها :

بَادِ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا
وَبُكَكَ إِن لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

والثانية الدالية التي أولها :

جَاءَ نِيروزُنَا وَأَنْتَ مُرَادُهُ
وَوَرَّتْ بِالَّذِي أَرَادَ زِنَادُهُ

والثالثة الدالية التي أولها :

نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى عِتَابًا عَلَى الصَّدِّ
وَلَا خَفَرًا زَادَتْ بِهِ حُمْرَةُ الْخَدِّ

وقد قلها مودعا للوزير حين ارتحل عنه إلى شيراز .
وقال المتنبي لابن العميد مقطوعة سينية ارتجلها في محجرة
حشيت بالأس والنجس ، فلم تكن ترى نارها إلا من خلال
هذا الزهر ، وأولها :

أَحَبُّ أَمْرِئٍ حَبَّتِ الْأَنْفُسُ

وَأَطْيَبُ مَا شَمَّهَ مَعْطَسُ

وقال المتنبي أيضا مقطوعة دالية لأبي الفتح ابن الوزير
حين كتب إليه يدعوهُ إلى الرى ، وأولها :

بِكُتُبِ الْأَنَامِ كِتَابٌ وَرَدُّ

فَدَتِ يَدُ كَاتِبِهِ كُلَّ يَدِ

وقراءة هذا الشعر كله تلقى في روع القارئ أن المتنبي
كان ضيقا بإنشائه ، يكلف نفسه منه ما لا تحب ، ويحملها منه
على ما لا تكاد تطيق . وأكبر ظنى أن ابن العميد كان
عظيما في نفس المتنبي ، عظيما من ناحيته العقلية والأدبية
والفنية معا ، عظيما بحيث ينبغي أن يحسب الشاعر له حسابا ،
وأن يتقى نقده ويجتهد في إرضائه . وقد يكون هذا سببا في
إجادة الشاعر وظفره بالإتقان ، لأنه يدعوهُ إلى التأنق
والتحفظ ، وتجويد الصنعة ، ولكنّه قد يكون سببا أيضا
في إخفاق الشاعر وعجزه وتهالكه . فالطبع الفنى لا يستجيب
إلى التكلف كلما دعى إليه ، ولا يعطيك الإجابة كلما

سألتها إياها . وواضح جدا أن طبع المتنبي عصاه وامتنع عليه حين أخذ في إنشاء الرائية ، فلم يصنع شيئا ، ولم يأت بما يلائم ابن العميد ولا بما يرضيه . وقد أشعر ابن العميد صاحبنا بأن هذه القصيدة لم تعجبه ، ولم ترض حاجته من شعر المتنبي . والرواة يزعمون لنا — معتذرين عن المتنبي في أكبر الظن — أن الشاعر كان قد أنشأ هذه القصيدة في مصر يمدح بها وزير كافور ابن الفرات ، ولكنه لم ينشده إياها ، فصرفها عنه إلى ابن العميد مع تغيير يسير في بعض الأبيات . ولكنني أستبعد هذا كل الاستبعاد وأعتقد أن المتنبي كان أمهر وأشد احتياطا من أن يصنع هذا بابن العميد ، وإنما يصنع هذا بالجهال وأشباه الجهال ، لا برجل اعترف له الشرق الإسلامي بالتفوق في العلم والأدب ، والفن والنقد . والذي يعينني من هذه القصيدة الضعيفة السخيفة قول المتنبي فيها :

مَنْ مُبْلِغُ الْأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهَا

جَالَسْتُ رِسْطَالِيْسَ وَالْإِسْكََنْدَرَا

وَمَلَّتْ نَحْرَ عِشَارِهَا فَأُضَافَنِي
 مَنْ يَنْحَرُ الْبِدْرَ النَّضَارَ لِمَنْ قَرَى
 وَسَمِعْتُ بِطَلِيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ
 مُتَمَلِّكًا مُتَبَدِّيًا مُتَحَضِّرًا
 وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا
 رَدَّ إِلَهُ نَفُوسَهُمْ وَالْأَعْصُرَا
 نَسِيقُوا لَنَا نَسِيقَ الْحِسَابِ مُقَدَّمَا
 وَأَتَى فِذْلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا

فالمتمني في هذه الأبيات يتكلف ازدراء الأعراب
 والغض منهم ، ويظن أنه يمدح ابن العميد بما يرضيه .
 والأعراب هنا هم سيف الدولة وأصحابه في شمال الشام .
 ومن المحقق أن ابن العميد قد ابتسم لهذا الكلام الذي
 لا يدل على شيء ولا يغني شيئاً ، ولا يمتاز إلا بما فيه
 من التكلف السخيف في المعاني والألفاظ جميعاً . وأجود
 ما قال المتنبي في ابن العميد من غير شك إنما هي الدالية
 التي هنا فيها بالنيروز . وإذا قلنا إنها أجود ما قال في

ابن العميد فنحن نريد ما نقول .

فالقصيدة جيدة ، ولكنها ليست من روائع المتنبي .
وقد أظهر الشاعر فيها جهدا وتأنقا نحسهما ، ونرثي له منهما ،
وقد ارتفع في قصيدته هذه عما كان قد انتهى إليه في
الرأية ، فلم يضعف ولم يسف . وأعانه متانة القافية
ورصانة الوزن على هذا الارتفاع . ولعله وفق بعض
التوفيق في وصف العيد ، وافتخاره بالوزير ، وفي المقارنة بين
هذا اليوم وبين غيره من أيام السنة . ولكن المهم في هذه
القصيدة اعتراف المتنبي بتقصيره في الرأية واعتذاره من هذا
التقصير وذلك حيث يقول :

هَلْ لِعِذْرِي عِنْدَ الْهَمَامِ أَبِي الْفَضِّ
لِ قَبُولُ سَوَادُ عَيْنِي مِدَادُهُ
أَنَا مِنْ شِدَّةِ الْحِيَاءِ عَلِيلُ
مَكْرُمَاتُ الْمُعِـلِّهِ عَوَادُهُ
مَا كَفَانِي تَقْصِيرُ مَا قُلْتُ فِيهِ
عَنْ عَلَاهُ حَتَّى ثَنَاهُ انْتِقَادُهُ

إِنِّي أَصِيدُ الْبُرَاةَ وَلَكِنْ
 نَ أَجَلِ النَّجُومِ لَا أَصْطَادُهُ
 رَبِّ مَا لَا يُعْبَرُ اللَّفْظُ عَنْهُ
 وَالَّذِي يُضْمِرُ الْفُؤَادُ اعْتِقَادُهُ
 مَا تَعَوَّدْتُ أَنْ أَرَى كَأَبِي الْفَضْ
 لَ وَهَذَا الَّذِي أَتَاهُ اعْتِيَادُهُ
 إِنَّ فِي الْمَوْجِ لِلْغَرِيقِ لُعْذَرًا
 وَاضِحًا أَنْ يَفُوتَهُ تَعْدَادُهُ
 لِلنَّدَى الْغَلْبُ إِنَّهُ فَاضَ وَالشَّعِ
 رُ عِمَادِي وَابْنُ الْعَمِيدِ عِمَادُهُ

فأما الدالية التي ودعه بها فليست أقل تكلفا وتصنعا
 من الرائية، وإن كانت أقل منها ضعفا وتهالكا وإسفافا .
 والإنصاف يقتضينا أن نقول إن المتنبي أخذ من ابن العميد
 أكثر مما أعطاه ، فقد قصر الشاعر من غير شك عن
 مدح هذا الرجل الذي كان بعقله وأدبه وسياسته وكرمه
 زينة لمعاصريه .

٦

على أن المتنبي لم يكد يتقدم في طريقه إلى شيراز حتى
زال عنه الحرج وانحط عنه الثقل ، وحطم القيد الذي كان
يمسك خياله ويمنعه أن يطير ، وإذا هو يبلغ من الشعر
طبقة خليقة باسمه ، وخليقة بمكانه ، وخليقة بما قال من
شعره الرائع في سيف الدولة . لماذا؟ الآن عضد الدولة
ألهمه أ أكثر مما ألهمه ابن العميد ؟ أم لأنه كان يحس
الغربة في بلاد الفرس ؟ ولم يكن له بد من بعض الوقت
ليذوق هذه الحياة الجديدة ويسينغها ويمثلها ، ويضطرب
فيها حرا غير مقيّد ولا مغلول ؟ أم لأن طبيعة البلاد
الفارسية والحياة الفارسية قد أظهرته على لون جديد من
الحياة والطبيعة ، لم يكن قد عرفه من قبل ؟ فألهمته شعرا قويا
لم يقل مثله منذ عهد بعيد ، ولعل منه ما لم يقل مثله قط .
أم لأن عضد الدولة كان أشد إطماعا للشاعر من ابن
العميد لأنه ملك ، ولأن الشاعر قد عودنا أن يستجيب

للطمع أكثر مما يستجيب لأى شىء آخر .

أما أنا فأعتقد أن هذه الأسباب كلها قد تعاونت على إطلاق الشاعر من عقاله ، وردّه إلى الجو الطلق الحر الذى تعود أن يخلق فيه .

ولم يقيم المتنبي عند عضد الدولة إلا ثلاثة أشهر ، ولكنه مدحه فأكثر المدح ، والغريب أنه وفق إلى الإجابة فى كل ما قال . وقد حفظ الديوان لنا من شعره فى عضد الدولة ست قصائد وأرجوزة ومقطوعة .

فأما القصائد فأولها الهائية التى أولها :

أَوْهَ بَدِيلُ مَنْ قَوَّلَتِي وَاهَا

لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا

والثانية النونية التى أولها :

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيِّبَا فِي الْمَغَانِي

بِمَنْزِلَةِ الرَّبِّيعِ مِنْ الزَّمَانِ

والثالثة اللامية التى أولها :

اِثْلَثُ فَإِنَا أَيُّهَا الطَّلَلُ

نَبْكِي وَتُرْزَمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ

والرابعة الدالية التي يقول فيها :

أَزَائِرُ يَا خِيَالُ أُمُّ عَائِدُ

أُمُّ عِنْدَ مَوْلَاكَ أَنَّنِي رَاقِدُ

والخامسة البائية التي رثي بها عمه الأمير ، وأولها :

آخِرُ مَا الْمَلَكُ مُعَرِّى بِهِ

هَذَا الَّذِي أَثَّرَ فِي قَلْبِهِ

والسادسة الكافية التي ودّعه بها ، وهي آخر ما قال

من الشعر وأولها :

فَدَى لَكَ مَنْ يَقْصِّرُ عَنْ مَدَاكَ

فَلَا مَلِكٌ إِذْنٌ إِلَّا فِدَاكَ

وأما الأرجوزة فطردية يقول فيها :

مَا أَجْدَرَ الْأَيَّامَ وَالْأَيَّامِي

بِأَنْ تَقُولَ مَا لَهُ وَمَالِي

وقال المقطوعة في عيد الورد وأولها :

قَدْ صَدَقَ الْوَرْدُ فِي الَّذِي زَعَمَا

أَنَّكَ صَيَّرْتَ نَشْرَهُ دِيَمَا

فهذا الإحصاء اليسير يظهر كثرة ما قال المتنبي من
الشعر في عضد الدولة أثناء هذا الوقت القصير الذي أقامه في
شيراز . وما أعرف عهدا من عهود الشاعر في حياته كلها
نشط فيه شيطانه هذا النشاط ، إلا أن يكون عهد ثورته
في الشباب . ومع ذلك فلم يحفظ لنا الديوان من شعر ذلك
العهد مثل ما حفظ لنا من شعر هذا الطور الأخير . ونشاط
الشاعر لا يمتاز في هذه الأشهر الثلاثة بالخصب وكثرة
الانتاج فحسب ، ولكنه يمتاز أيضا بالتنوع والاختلاف ،
فقد طرق المتنبي في هذا الطور أكثر فنون الشعر من المدح
والوصف والسياسة والرثاء والطرْد ، ومن الحق أنه لم يتعمق
في شعره سياسة عضد الدولة ، كما تعمق سياسة سيف الدولة
وسياسة كافور ، ولكنه مع ذلك قد ألم بطرف من
أطرافها ، فوصف في قصيدتين ثورة الأكراد على
البويهيين وانتصار هؤلاء عليهم .

وما أعرف أن المتنبي أتقن وصف الطبيعة في طور من
أطوار حياته ، كما أتقنه في هذا الطور . فوصفه لشعب بوان
رائع حقا ، ولكنه إلى الغناء أقرب منه إلى الوصف الخالص

على حين تلتبس الغناء فلا تجده في أرجوزته اللامية التي
وصف فيها الصيد ، والتي أشرت إليها آنفا . وهذه الأرجوزة
لها عندي خطر عظيم حقا ، فهي التي ارتقى فيها الشاعر إلى
أرفع ما أتيج له أن يبلغ من الإجادة الفنية الخالصة . وهي
التي امتزجت فيها نفس الشاعر بالطبيعة المادية امتزاجا مدهشا
كاد ينسيه نفسه على قلة ما ينسى نفسه ، وكاد يصرفه عن
عضد الدولة ، لولا أنه يقول الأرجوزة لعضد الدولة . وما رأيت
طبيعة الشاعر أخذت بحظ من الخصب والغزارة ، والسهولة
والجزالة ، والاندفاع معا ، كما رأيتهما في هذه الأرجوزة .
وقد استعار الشاعر إطار القدماء فسلك وصفه في نظم الرجز
كما كان يفعل أبو نواس وابن المعتز ، وكما فعل هو عند
الأوراجي ، وعند صاحب الرملة الإخشيدي ، ولكنه تجاوز
ما كان مألوفاً عند القدماء من فن الطرد ، واندفع مع الصائد
والمصيد كأنه الريح أو النسيم الذي كان يضطرب في تلك
المروج ، فيشهد ما كان يجري فيها من طراد وصراع . ثم
يحتمله خياله العنيف القوي إلى أبعد من مروج فارس ،
وإذا هو يعود إلى نجد ويرى وحشها خائفة تلتبس الأمان .

وليس يكفي أن ألم بهذه الأرجوزة إماما سريعا كهذا ،
ولكن هذا الحديث لا يتسع للدرس المفصل والبحث
الدقيق . فلعلى أعود إلى هذه الأرجوزة في غير هذا المكان .
إنما أردت أن أدل على أن نفس الشاعر وملكاته قد
استردت في هذه الأشهر الأخيرة من حياته قوتها كلها ،
وأضافت إليها قوة لم تكن تعرفها من قبل . وأكبر ظني
أن نفس الشاعر لم تمتلئ بالأمل في وقت من الأوقات كما
امتلات به في ذلك الوقت ، وما أستبعد أن يكون الشاعر
قد وثق بالفوز آخر الأمر ، واطمأن إلى أنه بعد اتصاله
بعضد الدولة قد أصبح شاعر الدولة الإسلامية غير مدافع ،
لا شاعر أمير في شمال الشام أو في مصر ، بل شاعر السلطان
الأعظم . وما أستبعد أنه قد تمثل المستقبل المشرق ، فإذا
هو يرى نفسه وقد ظفر من عضد الدولة بالمال الذي لا يكاد
يبلغه الإحصاء ، والتأييد الذي لا حد له ، وعاد إلى بغداد
مقربا إلى معز الدولة برغم المهلبى وأشيع المهلبى ، وإذا هو
الشاعر الإسلامي الفذ ، الذي يقول من بغداد فيدوى صوته
في أرجاء الدولة الإسلامية كلها شرقا وغربا ، وإذا هو يملئ
على الدهر قصائده حقا .

هذا الأمل الواسع العريض هو الذى يفسر لى اندفاع
الشاعر فى نشاط غريب ، لا نراه حتى فى مدحه لسيف الدولة ،
لا نكاد نستثنى من هذا المدح إلا بعض قصائده الروميات .
وأغرب من هذا كله أن هذا النشاط قد محا عن الشاعر
محو تاما ما كان يشعر به من ضيق وخرج عند ابن العميد .
بل رد إليه حريته كاملة ، وإذا هو لا يتحرّج من أن
يتغنى عربيته فى صراحة وجراءة ، لا حدّ لها ولا رقيب
عليهما . فهو يتغنى حمص وما حولها فى فتوة تذكر بشبابه
الغنيف ، وهو يمدح شعب بوان ويصف جماله ، ولكنه
لا يتردد فى أن يعلن حنينه إلى دمشق وغوطتها ، وإلى
الشعب العربى النازل فى الشام ، وفى أن يؤثر هذا الشعب
الفصيح الكريم على الشعب الفارسى الأعجمى ، الذى لا يقدر
الضيافة ولا يحسن القرى .

بل هو يتجاوز هذه الحرية الشخصية ، إن صح هذا
التعبير ، إلى حرية أخرى لغوية ، كان تعودها فى عصوره
الأولى ، ولكنه يسرف فيها الآن ، كأنه يريد أن يتخذها
قاعدة . فاقراً داليمته التى أولها :

أَزَاثُ يَا خَيْالُ أُمِّ عَائِدُ
أُمِّ عِنْدَ مَوْلَاكَ أَنَّنِي رَاقِدُ

واحص إعراضه فيها عن المؤلف في نصب الاسم
المصروف ، فسترى أنه تجاوز المعقول واتخذ الضرورة أصلا .
ولا تقل : إنه استجاز هذا متبعا للغة من اللغات أو مذهب
من مذاهب النحويين ، فإن الرجل لم يحفل في حقيقة الأمر
بشيء من هذا ، وإنما أطاع فنه وأرسل نفسه على سجيتهما
واستذل النحو واللغة للشعر ، وأعرض عما قد يكون من
غضب النحويين أو رضاهم .

ثم قف عند هذه القصيدة نفسها ، فسترى أنه اصطنع
فيها الحرية لا مع النحو وحده ، بل مع أصول العروض
والقافية أيضا . فقلما يصرع الشعراء في القصيدة الواحدة
أكثر من مرة ، والمتنبى يصرع في القصيدة الواحدة مرة
أو مرتين ، أما في هذه القصيدة فهو يصطنع التصريع مرات
عدة ، كأنما هو يتبع فيه وحى الفن ، وكأنما لا يريد أن
ينتقل من معنى إلى معنى دون أن يستأنف التصريع ليشعر
بهذا الانتقال ؛ ولينبئ السامع بأنه سيخرج به من حديث
إلى حديث .

وأخرى لا نكاد نجد لها إلا في شعر هذا الطور ، وهي
تحرر الشاعر من القيود التي يأخذ الشعراء بها أنفسهم في
نظم القصيد . فهو ينسب حيناً ويصف حيناً ، وهو يتغنى
دأماً في أوائل قصائده في عضد الدولة . ولكن انظر إلى
لاميته التي يصف فيها انتصار الفرس على الأكراد ،
والتي أولها :

اثَلْتُ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ

نَبْكِ وَتَرْزُمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ

فسترى كيف تبسط واصطنع حرية في الحوار لم يكن
يألفها ، ثم امض في القراءة وانظر كيف خالص إلى الأمير
من طريق بديعة في شعره حقاً ، حين تصور صاحبتة وحيدة
قد تحمل أهلها وحراسها ، ودهم الأمير ديارها ، وإذا هو
يسألها ما يريد أن يسألها . أفترأها كانت تمنحه ما تعودت
أن تضن به أم تراها كانت تبخل عليه بما يطالب إليها ؟
مع أن هذا البخل محال ، لأنه لا يكون حيث ينزل الأمير .
وما أتردد في الجهر بأن المتنبي لو أطل الإقامة في فارس
والاستمتاع بما كان يستمتع به فيها من الخفض والأمن

والنعيم ، لتغير مذهبه الشعري تغيرا قويا جدا ، ولجاز أن يحدث في الشعر العربي فنا جديدا لم يسبق إليه ، ولم يتح لأحد من العرب بعده أن يحدثه ، لأن نبوغه واستعداده لم يتاحا لشاعر عربي من الذين زاروا بعده هذه البلاد .

ومن هنا يدهشني حقا ألا يكون النقاد قد التفقوا إلى ما يمتاز به شعر المتنبي في شيراز من سائر شعره ، وأن ينظروا إليه كما تعودوا النظر إلى الشعر العادي لا يلتمسون فيه إلا ما تعودوا أن يلتمسوا من ألوان الجمال المألوف .

وأغرب من هذا أن الأستاذ بلاشير لم يكد يشعر بهذا التطور العميق الذي أحدثته زيارة الشاعر القصيرة لفارس في شعره ، مع أن الأستاذ بلاشير أوروبي ، وكان خليقا أن يحس ما بين هذا القسم من شعر المتنبي وبين العقلية الأوروبية والفنية الأوروبية من تقارب ، ليس شديدا ، ولكنه واضح كل الوضوح .

وكم كنت أحب أن أطيل الوقوف عند هذا القسم من شعر المتنبي ، فهو من الناحية الفنية الخالصة آثره عندي ، وأعجبه لي وأحبه إلى ، وهو خليق أن نقف عنده قصيدة

قصيدة ، وأن نفصله ونستخرج دقائقه ، ونضع أيدينا على مواضع التطور فيه . ولكن هذا شيء لا نفرغ منه إن أخذنا فيه إلا بعد إطالة لم يعد يحتملها هذا الكتاب .

وكل هذا الشعر مختار قد تصادف فيه بين حين وحين بيتا لا يعجبك ، ولكنك لا تستطيع أن تلغى منه قصيدة أو جزءا طويلا من قصيدة . وإذا كان لنا أن نأسف لشيء لا يغنى الأسف له ، فقد كنا نتمنى لو فر المتنبي في شبابه إلى فارس لا إلى الشام . وقد كنا نتمنى لو سار عضد الدولة مع الشاعر سيرة كافور ، فأمسكه في شيراز ولم يأذن له بالعودة إلى العراق ، وذاد عنه ، مع ذلك ، الشعور بأنه أسير لا يستطيع أن يذهب ويحجى كما يحب .

إذن لتغير شعر المتنبي تغيرا تاما ، ولوثب الشعر العربي في القرن الرابع وثبة بعيدة المدى ، وافتحت للشعراء بعد المتنبي أبواب جديدة يلتمسها الشباب من الشعراء الآن فلا يكادون يظفرون منها بما يبتغون .

٧

ولكن عضد الدولة لم يرد أن يشق على الشاعر ولا أن
يمسكه في شيراز ويحبسه عن العراق ، بل أضاف عطاء
إلى عطاء ، وإحسانا إلى إحسان ، وخلي بين الشاعر وبين
حريته . فاستأنف الشاعر سفره إلى العراق وهو يقسم جهد
أيمانه ليعودن إلى الأمير . أكان صادقا في هذا أم كان
يذهب فيه مذهب الشعراء ، ومذهبه هو مع الذين ودعهم
من المدوحين ؟ مسألة ليس من اليسير أن نجيب عليها ،
ولكني كما عرفت من سياق هذا الحديث أميل إلى اعتقاد
أن الشاعر لم يكن كاذبا ولا متكلفا ، وأنه كان يقدر في
نفسه أنه سيلقى الأمير مرة أخرى في شيراز أو في غير شيراز .
والشيء الذي لا أشك فيه هو أن نفس المتنبي كانت قد
خلصت للبويهيين ، ولعضد الدولة منهم خاصة ، وما أرتاب في
أنه لم يفصل من شيراز ، وفي نفسه الذهاب إلى الكوفة
أو إلى حلب ، وإنما فصل منها وفي نفسه الذهاب إلى

بغداد ، والاتصال بمعز الدولة والانتصار على خصومه كما
قدمت .

وهنا يحسن أن نقف لحظة قصيرة لنستخلص في كثير
جدا من الایجاز ، هذا التطور الأخير الذي طرأ على حياة
المتنبى ، فأنحرف بها عن طريقها وقلبها رأسا على عقب إن
كان للحياة رأس وعقب . فقد رأينا الشاعر بعد محنته في
شبابه يدفع شيئا فشيئا إلى طريق الشعراء من قبله ، ويتهاون
شيئا فشيئا في الاحتفاظ بما كان له من مذهب ورأى .
رأيناه يفرط في القرمطية ، وإن احتفظ بشيء من الحنين إليها ،
ثم رأيناه يمدح غير العرب حين تدعوه الضرورة إلى ذلك ،
ثم رأيناه يتكلف الشعوية في مدح الروزبارى بدمشق ،
ثم رأيناه يعود إلى عربيته حين يتصل بالحمدانيين ، ثم رأيناه
بعد ذلك يعرض عن هذه العربية وينقطع إلى عبد زنجى
أو نوبى فى الفسطاط ، فيمدحه ما امتدت له أسباب الطمع
فيه ، ثم رأيناه يسترد عربيته ويعود إلى العراق ، وقد
آثر الحميدة والهدوء ، ثم رأيناه آخر الأمر يغلب على
قرمطيته وعلى عربيته معا ، فإذا هو يهجو القرامطة ويقاتلهم

بالسيف والرمح من جهة ، وإذا هو يمدح دليز ويؤثر
ابن العميد وعضد الدولة على صديقه الحمداني القديم من جهة
أخرى . وهو يعود الآن إلى العراق ، وقد ضحى في سبيل
المال والمجد الشخصى بالقرمطية والعربية معا تحت أقدام
البويهيين .

٨

وقد انتهى إلى واسط فيما يقول الرواة في شهر رمضان
من سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، بعد أن ألم بالأهواز . فلما
انتهى إلى واسط نزل على صديق له يعرف بأبي نصر محمد الجبلي ،
وهذا الصديق هو الذي كتب إلى الخالدين بما عرف من
جلية أمر المتنبي ، بعد أن فارقه وخرج من واسط قاصدا إلى
بغداد . وليس عندي ما يحملني على الشك في خبر أبي نصر
الجبلي هذا . فالصدق ظاهر فيه ، وهو ملائم كل الملاءمة
لطبيعة الأشياء . وخبر أبي نصر الجبلي هذا معروف ، فهو قد
أنبا الخالدين في كتابه بأن فاتكا الأسدي ، خال ضبة
القرمطي ، الذي هجاه المتنبي في الكوفة قبل رحيله إلى ابن
العميد ، قد نزل به قبل مقدم المتنبي على واسط بأيام ، وجعل
يسأل عن المتنبي حتى ارتاب الجبلي بسؤاله ، ثم لم يشك في أنه
يريد به السوء لينقم لابن أخته ويرد عنه وعن نفسه عار
ذلك الهجاء القبيح . وجعل الجبلي يرد فاتكا عن هذا الشر

الذى أضمره ، فلم يبلغ منه شيئا . فلما وصل المتنبي إلى واسط
حذره الجبلي من فاتك هذا ، ونصح له أن يصطحب
الأحراس ، فأبى مستكبرا ، وعرض عليه أن يتولى هو حراسته
بإرسال نفر من أصحابه يسرون بمسيره ، وينزلون بنزوله ،
فأبى مستكبرا أيضا ، وخرج وليس معه إلا ابنه وغلماؤه .
فلما كان في بعض طريقه إلى بغداد ، قريبا من دير العاقول ،
تلقاه فاتك وأصحابه من الأعراب ، فكان بينهم شيء من
قتال ، ثم كثره فاتك بأصحابه فقتلوه وقتلوا ابنه وغلماؤه جميعا
وأخذوا ما كان معهم من متاع وكتب ومال .

أ كان فاتك نائرا لابن أخته ولعرضه فحسب ؟ أم كان
نائرا لعرضه ولشيء آخر ؟

أما القدماء فلم يترددوا في قبول الأمر كما قبله أبو نصر
الجبلي ، وكما قبله الخالديان . فهم يرون ، ويرى معهم المحدثون
أن المتنبي ذهب ضحية للسانه وتلقى الموت ثمنا لهذه القصيدة
البائية التي هجا بها ضبة في الكوفة ، على كره منه ، فيما
يقولون . وقد يكون هذا حقا فهو ملائم للمألوف من عادات
الأعراب ، ولكنني أحس من نفسي ترددا في قبوله وأراها

تنبو عنه ولا تطمئن إليه ، وأرى خاطرا يلح عليّ ، ولا يكاد يفارقني منذ درست شعر المتنبي وحياته في شيء من التدقيق والتفصيل . وأنا أعرض عليك هذا الخاطر كما يعرض نفسه عليّ ، فإن شئت فاقبله ، وإن شئت فرفضه ، فإني لا أجد بين النصوص ما يمكنني من ترجيحه فضلا عن القطع به . وهذا الخاطر يلقي في نفسي أن المتنبي لم يذهب ضخمة هذه القصيدة ، ولا ضخمة لجشع الأعراب ، فيما كان يسوق من مال ومتاع ، وإنما أدى بموته ، إلى القرامطة من جهة ، وإلى العرب من جهة أخرى ، ثمن هذه الخيانة التي اقترفها في السكوفة ، وسجلها في نفسه في شيراز ، وعاد وفي نفسه أن يعمن فيها ويباهي بها ، ويملاً بها الأرض إذا انتهى إلى بغداد .

أما أن الذين قتلوه كانوا من القرامطة ، فشيء لا أستبعده^(١) ، فقد كان الأعراب منتشرين في بادية العراق

(١) لعل نصا ، فيما نقله البغدادى في خزانة الأدب من كتاب « إيضاح المشكل لشعر المتنبي » ، من تصانيف أبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني ، يقرب هذا ويؤيده . فهو يحدثنا بأن فاتكا لما أبى المتنبي ما عرض عليه من خفارته في الطريق جمع له سبعين من رتوت الأعراب الذين يشربون دماء الحجيج فقتلوه وقتلوا من معه . وإنما كثر =

لذلك الوقت متأثرين بدعوة القرامطة أشد التأثر ، يظهرون ذلك إن أمكنتهم الفرصة ، فيغيرون على المدن والسواد ، ويخفون ذلك إذا ظهر بطش السلطان . وما أدرى ، إذا كان ضبة السكلابي داعية من دعاة القرامطة في الكوفة فما الذي يمنع خاله الأسدى أن يكون متأثرا بهذه الدعوة أيضا .

والشيء الذي لا ينبئنا به الرواة هو مصير أصحاب المتنبي الذين رافقوه إلى أرجان ، ثم إلى شيراز . فقد كان معه جماعة من البغداديين ، منهم ابن جني . فأين ومتى تفرق عنه هؤلاء الناس ؟ أرحلوا معه من شيراز ، ثم تخلفوا في واسط ؟ أتأخروا عنه في شيراز ؟ أسبقوه إلى بغداد ؟ لا ندرى ، ولكننا نعلم أنهم حزنوا عليه أشد الحزن وقالوا فيه كثيرا من الرثاء ، وعنوا بشعره يذيعونه ويفسرونه ، ولم يشهدوا موته ، ولم يعرفوا من لحظاته الأخيرة أكثر مما كتب به أبو نصر الجبلي إلى الخالدين .

= الاعتداء على الحجيج وخش ، وهان على الأعراب أن يستيحيوا دماءهم ويشربوها ، بعد أن اشتد تأثر البادية العراقية بدعوة القرامطة (انظر خزانة الأدب الجزء الأول صفحة ٢٨٩ .)

وكذلك أراد الله أن يعيش وحيدا ويموت وحيدا
ذلك الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس .

سالنش في ١٥ يوليو سنة ١٩٣٦

كبلو في ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٦

بعد الفراغ

...والآن وقد فرغت من إملاء هذا الكتاب منذ أشهر ،
وأتمت المطبعة صفحاته الأخيرة منذ ساعات ، أحب أن أسجل
أشياء من الخير ألا تضيع . أولها : أنى حين أقبلت على صحبة
المتنبى فى الصيف الماضى لم أكن جادا ولا صاحب بحث
ولا تحقيق ، وإنما كنت عابثا ، أريد أن أداعب المتنبى
أو أداعب خصومه وأصدقاءه جميعا . وليس أدل على ذلك
من هذه الصفحات التى تقرأها فى صدر هذا الكتاب .
فهى لا تصور جدا ولا بحثا ، وإنما تصور عابثا ولهوا .
ولكنى لم أكّد ألقى المتنبى وأخذ فى الحديث معه ، أو الحديث
عنه ، حتى صرفنى عن اللهو والعبث ، واضطرنى إلى محاولة
البحث والتحقيق . وأى غرابة فى ذلك ؟ ولم يكن المتنبى
صاحب راحة ولا ميالا إلى اللهو ، وإنما كانت حياته كلها
جدا ، وجدا ثقيلا ، ينتهى به وبقرائه إلى الملل أحيانا .
ولست أدرى ماذا صنع المتنبى بى ، أو ماذا صنعت أنا

بالمتنبي ؟ فقد كنت أريد أن أمضى معه متباطئا ، وأتحدث إليه أو أتحدث عنه متثاقلا ، ولكنني لم أكّد أخذ في الإيماء حتى دفعت إليه ، ودفعت فيه دفعا عنيفا ، لم أستطع له مقاومة ولا عليه امتناعا ، وإذا أنا أجزى في الإيماء أو أعدو فيه أشد العدو ، حتى لا يتابعني صاحبي إلا بجهد كل الجهد ومشقة كل المشقة ، وإذا أنا أملى إذا أصبحت ، وأملى إذا أمسيت ، وأملى بين ذلك ، وأبغض الراحة أشد البغض ، ولا أكاد أنصرف عن المتنبي إلى أحد غيره أو إلى شيء غير حديثه ، حتى إذا انتهيت إلى حيث انتهيت ، وجدتنى مكدودا قد انتهى بي الإعياء إلى أقصاه ، ووجدتنى لم أقل للمتنبي ولم أقل عنه كل ما كنت أريد أن أقول . فطويت الصحف ، وأرجأت الحديث حتى أعود إلى القاهرة .

وكنّت أريد أن أستأنف الحديث متى عدت ، فأفصل القول في فن المتنبي بعد أن فرغت من تفصيل القول في حياته ، وأقف بنوع خاص عند أشياء لم أزد على أن ألمت بها إماما . ولكن الحياة المصرية كما قلت في غير

موضع ، لا تلاءم البحث الهادئ ولا الدرس المظمئن ، ولعلها
لا تلاءم بحثا ولا درسا . فما أكاد أبلغ القاهرة حتى تتلقاني
الأعمال الجامعية ، فتستغرق أكثر جهدي ووقتي ، والحياة
الاجتماعية ، فتستنفد ما بقي لي من وقت أو جهد ، وإذا
أنا أصرف عن المتنبي صرفا عنيفا كما دفعت إليه دفعا عنيفا ،
وإذا المعنيون بنشره لا يكادون يظفرون بي لحظة ، بين حين
وحين ، ليسألوني عن هذه الكلمة أو تلك ، وليقرءوا على
هذا الفصل أو ذاك .

ومع ذلك فما أكثر ما بقي في نفسي من المتنبي .
والله وحده يعلم ، أيتاح لي أن أشفي من حديثه نفسي ، أم تحول
بيني وبين ذلك الحوائل والخطوب ؟

والأمر الثاني : أنني أبعد الناس عن حسن الرأي فيما
أملت ، ولا تظن أنني أريد أن أصطنع التواضع ، أو أن
أغض من هذا الجهد الذي أنفقته حين كان ينبغي أن
أستريح . وإنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن
صور شيئا ، فهو خليق أن يصورني أنا في بعض لحظات
الحياة ، أثناء الصيف الماضي ، أكثر مما يصور المتنبي . وإنه

لمن الغرور أن يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر الناثر ، حتى
إذا امتلأت نفسه بما قرأ ، أو بالعواطف والخواطر التي
يشيرها فيها ما قرأ ، فأملى هذا أو سجله في كتاب ، ظن أنه
صور الشاعر كما كان ، أو درسه كما ينبغي أن يدرس ، على
حين أنه لم يصور إلا نفسه ، ولم يعرض على الناس إلا
ما اضطرب فيها من الخواطر والآراء .

وأكثر من هذا أنى أخذت أرى رأيا ما أظن إلا
أن كثيرا من الناس سيضيعون به ، ولعلهم أن ينكروه
على ، وقد ضقت به أنا وأنكرته على نفسي ، ولكنى لم
أزد إلا إمعانا فيه واطمئنانا إليه ، وتعجبا من أنى قد
انتظرت هذه السن وهذا الطور من أطوار الحياة ، قبل أن
أفطن له أو أطيل التفكير فيه ، وهو أن شعر المتنبي
لا يصور المتنبي ، وأن شعر الشعراء لا يصور الشعراء تصويرا
كاملا صادقا يمكننا من أن نأخذهم منه أخذا مهما نبهت ،
ومهما نجد في التحقيق . وما أريد أن أطيل الاستدلال
على ذلك ، ولا أن أسلك إلى هذا الاستدلال هذه الطرق
الملتوية التي يسلكها الفلاسفة والعلماء والأدباء أيضا ، وإنما
(م ٢٦ — ج ٢)

أريد أن ألفتك إلى شيء يسير ، وهو أن ديوان المتنبي إن
صور شيئاً فإنما يصور لحظات من حياة المتنبي ، لا أكثر
ولا أقل ، كما أن هذا الكتاب الذي بين يديك إن صور
شيئاً فإنما يصور لحظات من حياتي أنا ، لا أكثر ولا أقل ،
فكما أنك لا تستطيع أن تزعم أنك تستخلص من هذا
الكتاب صورة صادقة لي تطابق الأصل وتوافقه ، بل
لا تستطيع أن تزعم أنك قادر على أن تستخرج من كتبي
كلها صورة صادقة لي تطابق الأصل وتوافقه ، فأنت كذلك
عاجز عن أن تخرج من ديوان المتنبي صورة صادقة تلائم
حياة المتنبي كما كانت في النصف الأول من القرن الرابع
للهجرة .

وما أكثر ما أعجب ! وما أضحك أيضاً ، حين أقرأ
ما يكتبه الناس عني بعد أن يفرغوا من قراءة هذا الكتاب
أو ذاك من كتبي ، لأنهم يحصلون لأنفسهم ، ويعرضون على
الناس صوراً يزعمون أنها تمثلني . ولست أدري ، وليس
المتصلون بي من قريب ، يرون أن بينها وبينني سبباً . وما
أشك في أن المتنبي لو أنشر اليوم وقرأ هذا السخف الكثير

الذى نكتبه عنه منذ قرون لأنكر نفسه أشد الإنكار ،
أو لأنكر هذا السخف أشد الإنكار ، ولرأى أننا لم
نكتب عنه ، وإنما كتبنا عن أنفسنا ولم نصوره ، وإنما
صورنا أنفسنا .

وإذن فقد يكون من الخير أن نقصد ، وألا نتشدد
في هذه النظرية التى يحبها المحدثون ويشغفون بها ، وهى
أن الشعر مرآة الشاعر ، وأن الأدب مرآة الأديب .

صدقنى أنى أصبحت لا أطمئن إلى هذه النظرية ،
ولست أشك فى أن الشعر مرآة لشيء ، ولكنى لا أدرى ،
أهذا الشيء هو نفس الشاعر أم هو شيء آخر غيرها ؟
ومهما أغل فى تصديق هذه النظرية ، وفى الثقة بنقد النقاد
وبحث الباحثين ، فلن أتجاوز أن أقول : إن نقد الناقد إنما
يصور لحظات من حياته قد شغل فيها بالاحظات من حياة
الشاعر ، أو الأديب الذى عنى بدرسه . وإذن فما أقل
ما نظفر به ، حين نخصص لحظات من حياتنا للاحظات من
حياة شاعر أو أديب .

وإذن فما أعرضه عليك فى هذا الكتاب ليس حياة

المتنبى كما كانت ، ولا هو حياة المتنبى كما أعتقد إنها كانت ،
وإنما هو حياة المتنبى — أستغفر الله — بل لحظات من حياة
المتنبى كما صورتها في أثناء شهر ونصف شهر من الصيف
الماضى . ومن المحقق أنى كنت أرى فى المتنبى قبل إيماء
هذا الكتاب آراء عدلت عنها أثناء الإيماء . ومن يدرى ،
لعلى أرى فى المتنبى غدا أو بعد غد أو اليوم آراء غير
ما أثبتته فى هذا الكتاب . إنما نحن عبيد اللحظات لانملكها
ولا نستطيع تصريفها ولا دعاءها ولا ردها عنا حين تقبل
علينا . وهى تقبل علينا بشيء كثير لا نحصىه ، ولما تقبل علينا
به آثار لا تحصى فى تهيئة مزاجنا للفهم والحكم والتأثر
والتأثير .

ما أحق فكرة اللحظات هذه بشيء من العناية ،
وما أجدر العناية بها أن ترد النقاد والأدباء الباحثين إلى
شئ من التواضع ، هم فى حاجة إليه .

وشئ ثالث لابد من تسجيله وهو أنى مدين بأخاص
الشكر وأجمله لصديقين ، أرى من الجحود ألا أسجل اسميهما
فى آخر هذا الحديث . ومن يدرى لعلى أتخفف عليهما من

بعض التبعات ، ولعلني أسجل اسميهما إشارا لنفسى بالعافية
لا وفاء لهما ببعض الحق .

فأما أولهما فريد شحاته ، الذي تكلف في هذا الكتاب
جهدا ليس من اليسير تصويره ، فقد ضحى في سبيله براحة
الصيف كلها . كان يكتب حين كنت أملئ أكثر النهار
وطرفا من الليل ، وكان يختلس من ساعات نومه ما ينسخ
فيه الصحف ليهيئها للطبعة .

والآخر صديق عبد العزيز احمد الذي قام على الطبع
ونهض بأعباء التصحيح ، وإنها لثقال .

وقد قلت أبا العلاء^(١) منذ أعوام طويلة في شكر
الذين أعانوه على الكتابة والتأليف .

فلأجدد هذا التقليد ، إن صح هذا التعبير ، ولأشكر
هذين الصديقين . فأنا كأبي العلاء رجل مستطيع بغيره ، وأنا
مدين لهما بظهور هذا الكتاب .

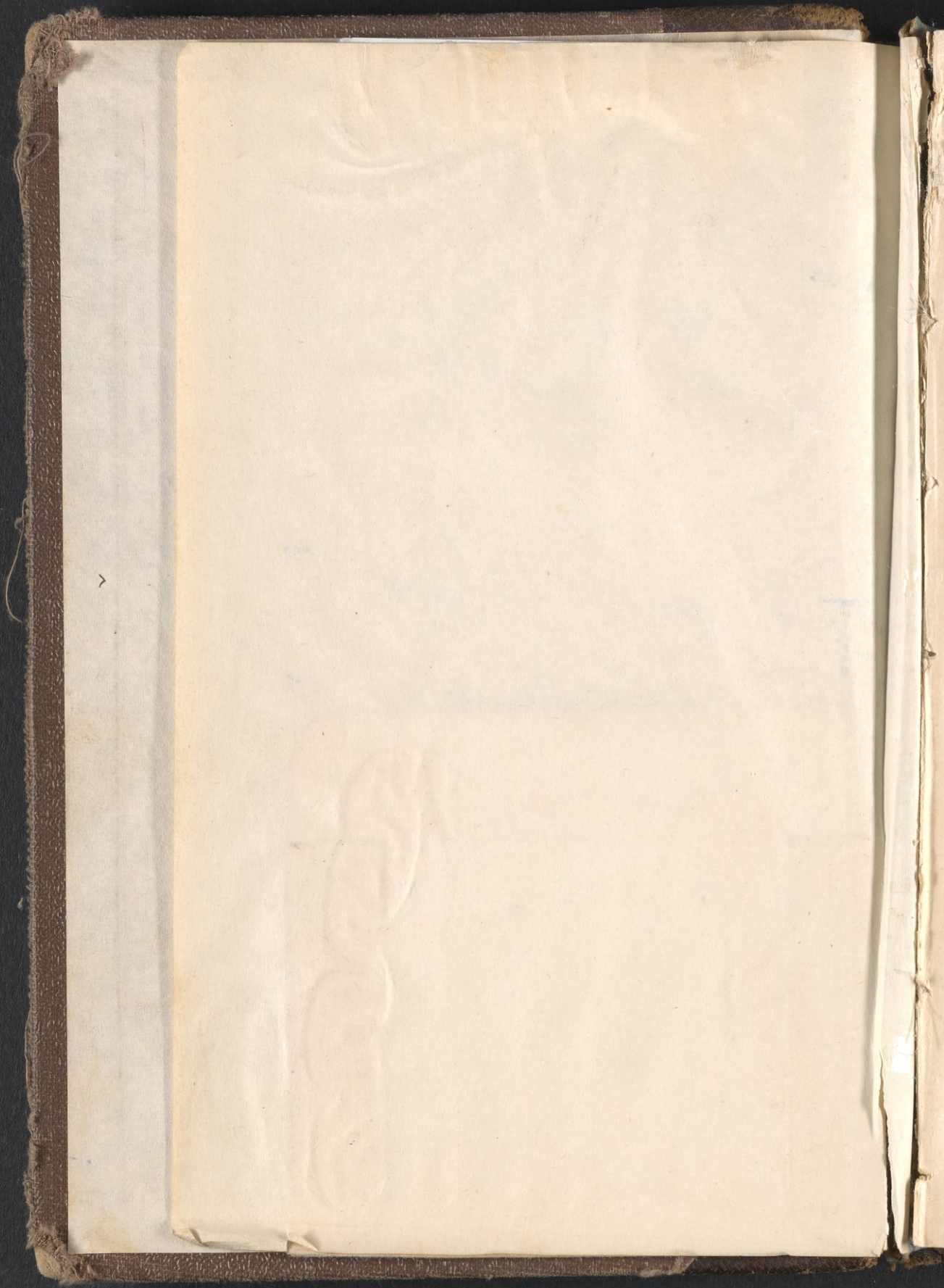
الزمالك ٦ يناير سنة ١٩٣٧

(١) ذكرى أبي العلاء صفحة ١١ الطبعة الثانية .

استدراك

وقعت في الكتاب أغلاط مطبعية بسيطة ننبه القارى
منها على ما يأتى :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧٨	٦	من مضاربها	من مضاربها
١٢٢	٣	معروضة	مفروضة
١٤٢	٥	يا ابن	يابن
١٦٤	٤	كلا بكم	كلا بكم
١٧٨	٩	يا ابا دلف	يا أبا دلف
٢٤٨	١٥	المدامة	المدامة
٢٩٢	١٤	وصيف	وصف
٢٩٣	٥	عنى	عنى
٤١٨	٨	وإن	إن
٤٣٥	٧	لكم	لكم
٤٨٨	٦	الفضل	الفضل
٤٩٩	٧	تركنتي	تركتني
٥٢٧	١٥	كان	كانت
٦٣٢	١٣	وهو	وهو



AUC. LIPDAN V. 2

PJ
7750
M8
Z85
1936
v. 2
c. 2



1 0 0 0 0 1 1 3 6 3 8

